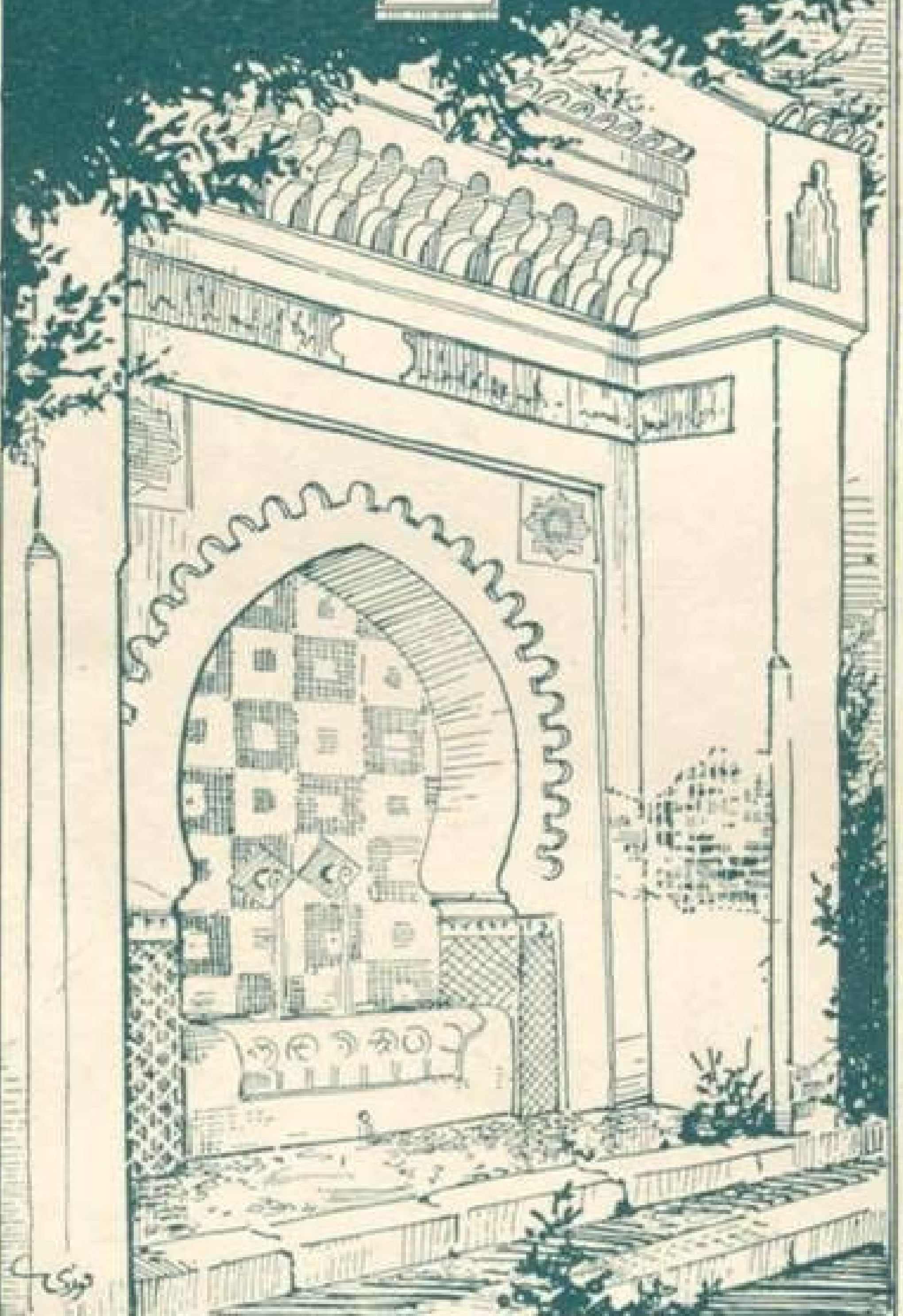
تطوان



المملكـة المغـربيـة

وزارة التعليـم العـالـي

« تـطـوان »

مجـلـة للابحـاث الـمـغـربيـة الانـدلسيـة

الـرئيس :

سـيـادة

وزيـر التعليـم العـالـي

السكـرتيـر

محمـد بـن تـاويت

ثمـن النسخـة :

المغـرب، اسبـانيـا وفـرنسـا : سنـة واحـدة .... 12،50 درهـم

فـي بـاقي البـلاد : سنـة واحـدة .... 4 دولارات

تـطـوان

مجلة للأبحـاث المغربيـة الأندلسية

بعد احتجاب طال مدة خمس سنوات تعود
هذه المجلة الى الظهور مستانفة عملها
فنرجو لها الاستمرار في مهمتها السامية

تطوان

مجلة للأبحاث المغربية الأندلسية

العدد الحادي عشر — السنة 1971

قبقجي مصطفى

بقلم الكاتب التركي احمد رفيق

تعريب محمد بن تاويت التطواني

(مقدمة الترجمة التي نشرت سنة 1955) (1)

هذه القصة من سلسلة كتب قصصية تاريخية، ألفها ـ على طريقة جرجي زيدان ـ الكاتب القدير، أحمد رفيق (باللغة التركية) وقد اخترت هذه القصة بالخصوص، لأنها تعالج نواحي هامة طريفة تطلعنا على مرحلة من مراحل التاريخ التركي، في أوائل القرن الثالث عشر الهجري، وهي مرحلة أشبه ما تكون عليه تركيا الآن، فوضعيتها من مشاكل الصراع الدولي، كان يجرها دوما الى الارتماء في أحضان الدول الكبرى، لتستفيد من النزاع القائم من ناحية، ولتعزز مركزها من ناحية اخرى، وقد كانت في تلك التاريخ في مأزق دولي حرج، فهي بين تيارين عنيدين جارفين، تيار روسيا وانكلترا من جانب، وتيار فرنسا من جانب آخر.

هذا صراع، وصراع آخر كان داخليا، بين الاتراك أنفسهم، صراع بين القديم والحديث، وهو في الحقيقة ما زال حتى الآن له حساب، يقدر قدره في تركيا ولو أنه في الخارج لا صدى له يسمع، الا أنه في الداخل ما فتىء ماثلا، في كثير من الاوساط التى لها اعتبارها الملحوظ.

وبالاضافة الى هذا كله فان هناك ناحية أخرى، لها مساس بالتاريخ المغربي الذي كان فيه مندفعا ـ الى أقصى حد ـ لمساعدة تركيا عن سخاء، مساعدات مالية وغيرها، ولو أن هذه المساعدات العديدة، لم تهملها بتاتا المصادر التاريخية المغربية، الا أننا نريد أن نطلع عليها في تاريخ الأتراك أنفسهم، الذين يأبون الا أن يومئوا اليها، إيماءات خفية فهم يذكرونها عندما يريدون ان يصوروا الضائقة المالية في خزينة الدولة، بأنها قرض مالي من «صاحب فاس»، (2) وفاس في عرف الأتراك عبارة عن المغرب

الأقصى، ويعلم الله ما كان مصير ذلك «القرض» الذي أغلقه قومه، والذي لم يراع فيه لأتراك لهذا المغرب الوفي السخي، الا ولا ذمة (وهو يصارع الاستعمار الصراع الأخير).

وشيء آخر تصوره هذه القصة التاريخية، وهو تلك الدسائس التي كانت تحاك في البلاط العثماني، وكانت غالبا، ما تقضي بالرؤوس فتطاح، وبالأذناب فترفع، وكان من جملة هذه الأذناب، صاحبنا قبقجي (3) مصطفى، الذي قام بدور خطير في الدولة والذي اكتوى بناره فيما بعد، فدارت عليه الدائرة.

وقد التزمت في ترجمتي للكتاب ترجمة حرفية، مع مراعاة تأدية المعنى المراد، ولم أحد عن هذه الخطة الا في النادر، حيث تكون بعض العبارات التركية، لا تؤدى معناها ان التزمت فيها هذه الطريقة.

مقـدمـة المـؤلف

التاريخ العثماني دام، مليء جـدا بالاضطرابات والفجائـع، ففي كـل دور من أدواره، وفي كل عصر من عصوره، كانت هذه الاضطرابات تجري قصد الوصول الى المنافـع المـادية، والامـوال المجردة، ممـا كـان يزعـزع كيـان الامبراطوريـة العثمانيـة من أساسها.

نجد الاختلالات العسكرية، التي كانت في أواخـر الامبراطورية الرومانية، تسببت في انقراض هـذه الامبارطوريـة العظيمة، أمـا العثمانيون فقد صاحبت ثوراتهـم الأولى ـ في عهدهم الأول ـ هـذه الدولة، وظلت في تماديها، على شكل ثورات متتابعـة دامية، الى أن أودت بالدولة الى دور الانحطاط.

وهكذا بعد عهـد سليمان القانوني، كانت حياة التاريخ العثماني ـ بصرف النظر عن الأطوار المؤقتة وعن استثناء واحد أو اثنين ـ مليئة كلهـا بمظـاهـر هـذه الفتن الداميـة والمثـيرة للهيجـان.

وبالنظر المنعطف الى الادوار الاخـيرة لتاريخ الدولة العثمانية، نرى دائما عقـولا جاهلـة متعصبـة، وقلوبـا مصطدمـة بحب الغنيمة، فهؤلاء العصـاة الذين يجهل أصلهم، وهؤلاء الارذال الذيـن أحرزوا المـراكـز، بالجنـايات والشقاوة، كـانوا امثلـة لتلك الطوائف، وكـان بعض هؤلاء المنسوبـين الى الطبقـة السفلى ـ وهم عادة الاكثريـة في الهيئة الاجتماعية ـ يقودون جماهـير العصيان بالمـائات والآلاف، لا لشيء الا أنهم في غايتهم يرمون الى ادارة منافـع الدولة التي ينفذها سيد الامـة كـأنها مكافـأة مشروعـة طبيعية على جناياتهم التـي جنـوهـا.

فهاته المعالم للتاريخ العثماني الجبار، كـانت سريعـة الزوال، وهي بحق لائقـة بالتسجيل والتحقيق، اذ بهـا نرى ان جدارة هؤلاء انمـا هي في اثـارة العصيان وكـون نفوذهم قائما على كتل العـوام، فكـل ذلك يجب أن يمحص بمسبار علم النفس وبـه نصل الى أن الجنايات التي حلت بالمملكـة، والمصائب التي أجريت فيها ما هي الا من نتائج هـذه العقول المنحطـة، التي صارت بها الدولـة العثمانيـة عبارة عن ضحيـة لزعماء التعصب وضيق الفكـر، وعبادة المنفعة، والحرص على الجاه، فحرموا بذلك من وشائج الوطن.

ان قبقجي مصطفى لائق بتمثال دقيق حي، لهؤلاء الزعماء الأشقياء، والوقت الذي تدرس فيه حياة الرؤساء، المدبرين للثورات على الدولة العثمانية، يصيب حقائق كثيرة، بالنظر الى أحوال الناس الروحية، وعوزهم العقلي، ونقصهم الخلقي، فالوسيلة الوحيدة اذن، هي القضاء على العوامل التي ظلت عائقة عن الارتفاع بالناصية الطاهرة العثمانية، والتوسل بالعلم والمعرة حتى يؤمن على هذه الفضائل التي حرمتها الامة.

ذلك ان التنظيم حسب حوادث التاريخ، لكل أمة، وحسب طبيعتها، لا يمكن أن يقبل الا على ضوء مثل هذه التحليلات، لتربيتها الاجتماعية، فينظر دائما في أبعد الاسباب المعينة، والمؤثرات العميقة.

والذي يقلب صفحات الثورات العثمانية، على وجوهها، ويسترسل فيها، يدرك أنه لم يحصل أي تبديل وأي اصلاح، منذ العصور الاولى التي مرت بها الحياة الاجتماعية، والعقول العثمانية، فثورة «باطرونا خليل» سنة ثلاث واربعين ومائة والف والصفحات العديدة لهذه الثورة، وثورة «مصطفى قبقجي» سنة اثنتين وعشرين ومائتين والف، لا فرق مطلقا بينهما، دائما نفس القادة، ونفس العاملين، ونفس النتائج، ونفس المصائب.

ان توالي التاريخ على هذه الصورة، وصفحاته المتشابهة المتماثلة، كل ذلك لا يؤيد الاعتقاد، بأن التاريخ يعيد نفسه لان التاريخ ليس دائما عبارة عن التكرار، فهذا القول يمكن ان يصدق في حق الامم التي تمضي أعمارها في الجهالة والغفلة المتمادية، والتي لا تستطيع ان تتأثر بعوامل المدينة والتربية الفكرية، وتبقى بعيدة عن محيط العرفان، فلا تستطيع أن تسلك طرق تكاملها، وتتقدم بحياتها الاجتماعية، وتعمل على تربية عقولها.

نعم : في مثل هؤلاء الاقوام، تبدو عين الحالة، وعين النتائج لما سيخلد دائما عين الاسباب المولدة للحوادث والواقع، وبناء على ذلك يظن الناس، أن «التاريخ يعيد نفسه» (4).

وهكذا سويا تظهر هذه الحقائق، لتصاور ماهيات الثورات العثمانية، والحالة النفسية لرؤساء العصيان، أو جهالة الامة، فاذا درسنا القبقجي، فاننا سندرس به موضوعا كاملا، جديرا بالاستفادة منه، لتنوعه وجمعه لصفحات عديدة من هذا العصيان (5).

القصـــة

بينما كان يوتى الى العاصمة العثمانيـــة، الحزينة النائحة، بتابوت سليمان القانوني، من سواحــل «الطونــا» (6) ـ بعــد سفرة «سيكتوار» ـ كـان فــي الجيش اتجاهان متضادان، فلم يكـد يعلم الجيش، بوفــاة سليمان العظيــم، حتى كــان يحول الى جهــات المــآتم، وسط الانــين والبكــاء، ولكــن بعد ذلك، حينما لــم يتسلم عطايا «الجلوس» من السلطان، سليم الثاني، ـ الملك الجديد ـ صار يدعو بالويــل والثبور، على عاهله المقدس، وملكه المرحوم.

ان وجود هــذه الحالة النفسية، في جيش الدولة العثمانية، كــان خطرا دائما على ضمان البقاء لمستقبل الدولة، والى جــانب هذا، كــان المربون بنعمة الملك، والمغذون بطعامــه، ينتظرون أن يستيقظ ملك العالم مــن نومتــه، فكانوا كسيري القلوب، من أفول نجم انسان، كــانوا يرونــه فــوق الطبيعــة، فاختفى في لحظــة، على هــذه الصورة التي لا تصدق ...

ولكــن الجيش كــان يقف الى جــانبهــم، وقفة بعيدة جــدا، عــن هــذه الاحساسات الغريبة، وهــذا الشعور الفيــاض، وكــان الجيش هــو الهيئــة العظيمة، والتي تضفي على نفسها، هذه الالقاب السطحية، والعناوين المموهة ..

واعتبارا من يوم وضعت فيه «عربــة العشب» معترضة موكب السلطــان، لسليم الثاني، كان قــد فهم على صــورة قطعيــة واضحة، أن هــذه الجيوش العنيدة المتمردة، انما كــانت تحارب، لفكرة الغــارة والنهب، وكانت تــذلل لسيوفها، الخلافــة والسلطنــة، وكانت الثورات وارتكاب الخيانات، سرعــان مــا تقــع حينما تتعرض منافــع هؤلاء الى بعض الخلل.

واخــيرا فان سياسة الدولة العثمانية، اكتشفت عــلاجا واحــدا فقط، لهذا الطغيان الدامي، وبذلك العــلاج استطــاعت ان تضمن بقــاءهــا ،،،؛ المــال !

بيــد المــال ومنبــع الثورة في الدولة العثمانية، كان الحرب، فالغنيمة كانت اهم موارد الدولــة، على الخصوص، وبناء على ذلك، كلما كانت جيوش الدولة العثمانية مظفرة، والملوك كلمــا اشبعوا بطون «الانكشارية»، واغدقــوا عليهــم الامــوال التي جمعوها من سفاهات الطمع، كــان ممكنا تسكين العوامل الراقدة، وهي فى حالــة استعداد للطغيان والفوران دائما، والاحتفاظ بالميدان بعيــدا عن الثورات فى مملكــة الدولة العثمانيــة...

ولكن بعد برهة من الزمان، أتى دور هكذا ..:

كان العثمانيون المتكلون على حوافر الخيول، ومضاء السيوف وحدها، يغطون في نومهم، وهم في غفلة وغرور، نشاوي بانتصاراتهم الاولى. وبينما كانوا هكذا، كان جيرانهم قد جعلوا ينهضون بالروح العسكرية، المنظمة على احسن نظام، والمعدة بأحسن المعدات، فتوالت بذلك على الدولة العثمانية الهزائم . وهكذا وجدت نفسها ــ على حين غفلة ــ مختلفة فى أمنها الداخلى غريبة فى مضمار المعرفة، محرومة من الظفر والغنيمة.

وسرعان ما انقطعت عن «الانكشارية»العاصية الشقية، موارد الرزق، فحلت بذلك المصائب بالدولة، من الداخل والهزائم تنثال عليها من الخارج.

هذه المصائب فتحت ثغرة في كيان الدولة العثمانية، وكانت اليمة جدا، بينما كان جيشها يقهر بجيوش «روسيا» و و (استريا، (النمسا) العدوتين اللدودين، في الخارج، وكانت تواجه في الداخل ثورات عنيفة، بفرق صغيرة وتشكيلات جزئية من الجيش. وبهذه الاضطرابات الدامية، كانت المؤسسات تهدم، هذه المؤسسات التي وجدت بعد ما أفرغ فيها مجهود السنين والاعوام وكان يهدف بها الى مقاومة الاعداء الذين تكالبوا عليها من الخارج، ولكن الاضطرابات في الداخل كانت تقضي عليها، وتنتهي بخلع الملوك الذين أنشأوها، وقد تشبثوا في احياء مملكتهم بالافكار المدنية، فانشاوا تلك المنشآت ...

فهذه الثورات المستمرة فى الدولة العثمانية، كانت كافية لان تدل، بكل وضوح، على طبائع الامة، فكل ثورة كانت تقع، اما من جراء الحرص على المراتب، واما للوصول الى المنافع الشخصية، وكان الرجال الذين هم فى مستوى معتاد جدا، هم الذين يترأسون هذا الصنف الواطىء من طراز الدهماء، ويقودونهم الى كل اختلال.

وهكذا غالبا ما نجمت الثورات عند العثمانيين، ويسترعي الانظار ــ بصفة خاصة ــ من هذه الثورات، ثورات سنة IIII5 ووقعة «أدرنة» سنة II43، وثورة سنة I222.

وكان المترئسون لهذه الثورات، من طائفة «الانكشارية»، والمتطوعة واللفيف، ففي وقعة أدرنة نجد «جالبق أحمد» الذي خلع السلطان مصطفى الثاني، وفى «اصطنبول» نجد «باطرونا خليل» الذي أجلس محمود الاول، وفى ثورة سنة I222 نجد «قبقجي مصطفى» الذي تسبب فى سقوط سليم الثالث.

هؤلاء القادة كلهم كانوا من أسافل الناس، كلهم ينتسب الى عين الطبقة وعين الصنف، ولا شبهة مطلقا في انه كانت لهؤلاء، تاثيرات سحرية ونفوذ عظيم على أتباعهم، ولكن الذي تجدر ملاحظته، هو أن الاحوال العقلية لهؤلاء الاتباع المظاهرين لهم، الذين كانوا يساعدونهم في خططهم، وفي كل هذه الثورات وهذه الجسارات التي جرتها على الدولة العثمانية، كانت مصحوبة بجمود النظر وبالتشرد وبالحماس للجهل والتعصب الاعمى. كل هذا كان يتجاوب مع الحالة النفسية، التي كان عليها الناس...

فمثل هذه الخصال الوضيعة، كان معهودا من اكبر المزايا، في نظر هؤلاء الذين تملكتهم غباوة الادمغة الجانية، وكان القسم الاعظم من هؤلاء الاجلاف الذين اشتركوا في العصيان، آنذالا، مختلة قوى أذهانهم بالسفاهة ومعاقرة الخمور، حفاة، عراة، حمالين، فلم يكن ينتظر اي خير قط، واية نتيجة من عصيان هؤلاء، وكانت اهم الوسائل للوصول الى أطماعهم، الاحراق الدم، والذبح، والاغتيال، والنهب...

فاستطاع «قبقجي مصطفى» أن يدير، بمثل هذه المؤثرات، عصابته الشقية، التي استصحبها معه، في الوقت الذي ترأس فيه على رأس الانذال العصاة، ضد التمدين في القرن الثالث عشر الهجري.

وهكذا فان الاشخاص الذين التفوا حول القبقجي، كانوا كلهم على شاكلته في العقلية والاستعداد، فهذه المشابهة العقلية المضطربة، كانت تشكل الرابطة الغريبة، للكتلة الجائعة الشرهة، وكان المتصف بالذكاء والمعرفة من الناس يدفعه حرصه على الثراء ومنافعه الخاصة، الى أن يلتحق بهذه الجماعة التي قضت على محبة الوطن. ولكن تحركات هؤلاء كانت في حقيقة الامر على استعداد الى الرجوع الى أحد الطرفين عند اللزوم...

والى جانب هؤلاء، كان قسم من الناس ـ في غاية الاحتياط ـ يقنع بأن هذه القوة لن تقهر مرة اخرى، فكانوا يطمئنون الى ما سيستطيع هؤلاء أن يبذلوه، اذ كان هؤلاء الاشقياء يرتكبون جناية الالتزام ـ قولا وفعلا ـ بتامين منافعهم، وتنميمة ثرواتهم، وكان البيت العثماني اذ ذاك الوقت، هو الذي يمثل هذه الطائفة، ويصير لعبة في يد هؤلاء الاشقياء فكان هؤلاء الوزراء يعدمون، وهؤلاء الملوك يهانون، ويحكم الاشقياء باسم الحق والقانون وأنه نافذ المفعول...

فالمظالم التي ارتكبت بدافع المنافع المادية، كانت تحز في نفوس الملوك الذين يعملون لسلامة الوطن، ولقد اشمأز مصطفى الثالث، من هذه الزمرة الخبيثة النفس، في هذه الامة مرددا :

هذا العالم يحول ... فلا تحسب أن الاصلاح في يدنا

فالفلك الدنيء ... رمى الدولة بكل ابتذال

والآن ... فليتنزه كل غاشم بأبواب السعادة

ولا يريم ... فالتجيء الى رحمة «من لم يزل» وحده

وهكذا نجد مصطفى الثالث يبدي شعور النفور والاشمئزاز، في هذه التلهفات التي مزقت قلبه، وكذلك اهل الفضل كانوا يفكرون دائما في هذه الاضطرابات الفجيعة، التي زعزعت الحياة الاجتماعية العثمانية، فكانوا يشعرون دائما بهذا الشعور المرير، فلم يكن عصيان القبقجي سنة 1222، مظهرا وطنيا، وانما كان جناية سياسية، مستندة على فكرة حماية المنافع لصنف من أراذل الناس، وسعيا لمحق سعادة الوطن، اذ كان ظهور هذا العصيان المفجع، في وقت كانت الحرب قائمة مع الاعداء، وكان الجيش على طول الحدود مقهورا ممزقا، فكان عمله هذا اهانة لصقت باسم الوطن والامة العثمانية.

كان القبقجي مصطفى يقود ثلة جائعة جاهلة مغرضة، تريد هد أركان الدولة، وتحول دون النهوض، ولا ترغب مطلقا في المدينة الاوربية، فكانت نتائج هذه الجريمة اليمة جدا، بالنسبة الى الدولة ورجالها، الذين قتلهم القبقجي بدون شفقة، وكانوا بحق وجوه المملكة التي أرادوا لها القانون المدني، ومسايرة الحضارة الحديثة.

وسليم الثالث نفسه لم يكن من الملوك الذين لا يحسبون لمصالح البلاد حسابها، وانما كان رجلا نير العقل ذا حظ عظيم من الذكاء، حريصا على القيام بمهمة السلطنة، (7) على العكس من خلفه السلطان مصطفى الرابع، الذي كان فاتر الطبع، مفرطا في التشبث بميلاذ الحياة، ولكن تفكير زمرة الاسافل الوقحين، وقف على خدمة المنافع الخاصة لهذا القطيع الجائع.

بذلك، فقد هدم القبقجي صرح المدينة، الذي اقيم على اساس وطيد ـ في دور سليم الثالث ـ والذي كانقد ابتدا في عهد مصطفى الثالث.

كانت ثورة 1222 ضربـة قاسية على الدولة العثمانية، التي ظلت محرومة من المدنية، الحديثة، مائة سنة بعد ذلك، وكـان سليم الثالث يفكر في شيئين : أولا اصلاح «الانكشارية» والثاني تخليص الامة من الاعيب الذين يسمون بالعلماء.

كـان الفريق الاول يلوث شرف الامة، خارج الوطن، اما الفريق الثاني فكان يخل بسعـادة الامـة ويكبت وجـدانها، بل كـان يخنق حياتها بالمرة، فبمجرد مـا يلوح بصيص من نور المعرفـة في المملكة، تتحد هاتان القوتـان الغاشمتان، فتهدم بسواعدها منار المدينة الحديثة، وبذلك تبقى عقلية الدولـة العثمانيـة معطلة دائما، تحت تاثـير هذين العاملـين.

كان سليم الثالث قـد ادرك بالتجربة الطويلة، هذه الحقائق المرة، وكانت نتائج معاهـدة «يـاش» سنة 1206 عميقة الالـم في قلبـه، فبموجب هذه المعاهدة كـان عليـه، أن يصادق على الحـاق «القـرم» بروسيـا، وان تترك قلعـة «اوجـاقـوف» في يد الروس، وأن الحدود بـين روسيا وتركيا، من هذه الناحية ستعين بنهري «دينيه ستنه ر» و «قوبـان»، فيكون على الجيش العثماني بموجب هـذه المعاهدة، أن يتاخر عن مواقعه، ويرجع حامـلا لـواء المـذلـة والهـوان.

فهذا القدر من الكوارث والمصائب، كـان كافيا في خدش كـرامة الـدولة العثمانية، ولكن مـع هـذا لم يصادف مطلقا من أي فـرد، تألمـا أو تاثـرا، من هـذه الهزيمـة الفادحـة، لان الامـة كـانت تتدهور، في فساد الاخـلاق، وتتدحرج في مهاوى التفسخ...

لقد كـان «الانكشارية» فيما قبل، يمثلون أشجع فرقـة في جيش الدولة، امـا الآن فقد انقلبوا الى عنصر مضر، يمكن ان يعد منبـع الشقاء والفساد فيه، اذ صار هؤلاء «الانكشارية» يفرون مـن سلاح الاعـداء، تاركـين لغـيرهم سبيل الدفـاع عن الوطـن، وصاروا لا يرغبون فى شيء، الا ما كـان فيـه وسائـل الاخـلال برفاهية المواطنـين وأمانيهـم.

أمـا السياسة الخارجية للدولة، فكانت مذبذبـة مشوشـة، حتى صارت شبحـا خياليا، بعيدا كـل البعد، عن الشوكـة السياسية، التي كانت فى دور «الكوبروليـين»، فلم يكـن العثمانيون بذلك، يستطيعون أن يستفيدوا، أيـة فائدة من حنكـة الغرب، وكانوا يوخنون من هزيمة تلحـق بهم، عـن غـرور عظيم، وبذلك حلت الدقائق العصيبة «لمسالة الشرق»، ولم تكن «المسالة الشرقية» هـذه في الحقيقـة، الا مسالة طرد العثمانيين من اوربـا.

وكانت هذه «المسألة» قد ابتدأت اعتبارا من يوم أن وطىء العثمانيون، باقدامهم بلاد الروم (8)، لتدرج انها كانت موضوع البحث، من طرف أعداء العثمانيين، في نهاية كل حرب ،، وكان انقسام تركيا قد شكل مشاكل الدولة على الخصوص، وكان العثمانيون ينهمكون في التفاخر الذي لا يعقل كنهه، فارغين بالا، غير عابئين بعواقب هذه السياسة، فكانوا يقتعون بقصص الحرب والغزو، ماخوذين بانتصارات ماضيهم، على حين، كان الفناء قد لوح لهم في افق الضعف والاهمال.

كانوا لا يدركون ان السواعد المتينة والصدور الفدائية، لن توفي وظيفة عظمى أمام رقي الادوات الفنية، التي كانت بالنسبة اليهم، خارقة للعادة ...
حقا ان الادوار الاولى للدولة العثمانية، كانت لامعة جدا، حيث كان ضعف الجيوش الاوربية وعوزها : فلم يكن في مقدورها آنذاك، أن تؤثر أي تاثير، في متانات التشكيلات العسكرية للدولة العثمانية وبذلك كانت امواج التعصب تتكسر أمام أسوار الجيوش العثمانية الحديدية، فكانت هذه الجيوش المعادية، سرعان ما ترجع الى مراكزها الاوربية، تجر وراءها ذيول الهزيمة وقد خيم عليها الضعف الاليم والخيبة المريرة...

ولكن لما كان جيش «مصطفى باشا» العظيم، قد زين بالحلى الذهبية، وبدأ يتلقى دروس الهزيمة القاسية، كان الاضمحلال الفجيع قد حل يوم أن أصيب أمام «ويانة» ... فاعتبارا من ذلك اليوم، زال شعور أوربا الضعيف، اذ في سنة 1094، ه كانت الجيوش الاسترية قد اتفقت مع روسيا، التي كانت تجاور التراب العثماني، فابتدأت مسألة الشرق في الانحلال، على صورة دامية مستمرة...

وفيما بعد أراد سليم الثالث ان يشكل قوة في الخارج، ليجعل بذلك حدا لهذه الفاجعة المدهشة، فشرع أول الامر في تنظيم الجيش وتأسيس المدارس، والحقيقة أن اصلاح الجيش كان لازما أول ـ لضمان بقاء الكيان العثماني ـ لان الدولة العثمانية نشأت بالجيش، وابتدأت في الاضمحلال بالجيش، وكانت الفرقة «الانكشارية» في الجيش بمثابة روح العثمانية، فبهذا الجيش الشجاع ـ كان ـ قد أقيمت عروش الدولة العثمانية، وبه ظهرت الخوارق للعادة، وفي حجر هذا الجيش تربت الدولة العثمانية، وفي ظله صارت حاكمة للاقطار الشاسعة، ولن «التخت» العثماني الذي كان يشكل أريكة الظفر للملوك الابطال، صار اعتبارا من التاريخ السالف، ميدانا لسفاهة السلاطين الذين حرموا مواهب الاتزان الفكري، المميزات

التقليدية، والشهامة القديمة، في هذا الجيوش ... وصار الجيش «الانكشاري» عبارة عن عصابة الاشقياء، فاختلت ادرتـه، حتى كـان أطفال «دوشـرمـة» يحشرون للخدمة في الجيش، فبـدأ بذلك شعور الضعـة يتجلى في صفوفـه، وبقبول أشخـاص غـير معروفـين بشعور الطـاعـة في وسط «الانكشارية» فسد نظـام الجيش تماما، فشكلت «الانكشارية» اشـد أصناف الامـة تمردا فكـان هذا الصنيع الاهـوج، مما جعـل طوائف من الناس ينحشرون في هذه السلالـة الشقية، لاجـل التخلص من شر «الانكشارية» وأصبحـوا يضحـون بشرفهم ومكانتهم للمحافظة على كيانهم،، وبذلك لـم يعد للانكشارية أي عمل الا الشقاوة، (9) ولا مهمة غـير التعرض للخلق وحـرم «الانفـار» العسكريون، من التجارب الحربيـة والمعلومات العسكرية، فكـان هؤلاء «الانظـار» يكونون مـن بائعي الملابس البالية، والفطائـر والحلواء، والعاملين فـي الحمـامـات، والطباخـين، والحمالـين...

وطبعا، ان هؤلاء كـانوا يشتغلون بصناعتهم الحضريـة، ولكنـم كـانـوا يلتحقون بالجيش، قصد النهب في الغـزو، فلم تعد «الانكشارية» كما كـانت مهنة مفضلة مبجلـة، وانما صارت تتخذ وسيلـة من وسائل المنفعة وجلبهـا لاشخـاص أراذل، يهدفـون الى سلب الناس واغتصاب أموالهم.

هؤلاء الأنفـار لم يكونوا يطيعون ضباطهم، ثم كان خلف هؤلاء العسـاكـر العصاة يطلقون الرصاص، على مضرب العاهل سليم، فلم يجدوا يدا حديديـة تكفهم عن شقاوتهم، على حـين أنهم لـم يكـونوا من ذوى العزائم الثـابتـة، اذ بدلا من أن يكونوا يثبتون أمام العدو في حروبهم، كانوا يضطربون ويتمردون، لأجـل العـلاوات والتعيـين، بـل سرعان ما كانوا ينهبون معسكراتهم نفسها.

الى جانب هذا، كانوا يعتدون على شرف المواطنـين، اذا ما حلوا ضيوفـا على أي بيت كان، ولكن أمـام العدو كـانوا دائما يبحثون عن منافـذ للفرار. وكـان التعليم العسكري مفقودا فيهم بالمـرة، كما كـان التنسيق العسكـري معدوما فيهم، كـان الفرسان لا يحسنون حتى استلال سيوفهم، فكانوا في هذه العمليـة كثـيرا ما يصيبون آذان خيولهم ورؤوسها بجروح، وحينما كـانـوا يتدربون لسحب سيوفهم في الحرب، كـان ظهراؤهم الجاهلون الغريرون يعدون هذه الحركة منتهى البطولة، فكانوا يصيحون ما شاء الله (10)، فـاذا خرجوا سلبوا الأهالي في الطرقات، وانتهكوا تعاليم الاسلام، وكـانت البطولة في نظر هؤلاء تتمثل في شارات فرقتهم مثل لف العمامـة في طول ذراع على رؤوسهم،

وتشمير سوق سراويلهم، متجولين في الشوارع بسيقانهم المكشوفة، ومتسلطين على النساء في المنعطفات، وناهبين أموال النصارى الغادين الرائحين، وقد نشروا عباءاتهم على جوانب الطريق، أيام عيد الفصح...

وبالجملة، فانهم كانوا يصبون كل أنواع العدوان على الرعية، فلم يكن يتوقع مطلقا من هؤلاء العساكر، أي نجاح في غزواتهم، بل كانت الفرق العسكرية تتناحر فيما بينها، حتى اذا ما داهمها العدو، فرت من معسكراتها، تاركة مراجلها بذلة هذه الوضعية الأليمة التي كان عليها الجيش، كان يماثلها كذلك وضعية اخرى للعلماء، فكان هذا الطراز من العلماء يسبح في بحار الجهالة، ولكن تاثير هذا الجهل كان افظع واضر على التربية الاجتماعية للامة، لقد كان كثير من العلماء لا يستطيعون أن يدركوا الوجه المشرق الذى يليق بالاسلام، فغابت عن ادراكهم مسامح الاسلام ولطائفه وحرياته التي منحها الناس، فأطلقوا اسم الجهاد على النهب والسلب، وجعلوا عداوة العلوم من مستلزمات الدين، وبعضهم ظهر بمظهر الضعف، وراء الاستغلال واستفادة المنافع الشخصية، وتامينا لمراكزهم وهم يتحدثون عن عدل الخلفاء الراشدين واستقامتهم، ويتظاهرون بمعرفة آداب الدين ولكن العلماء الكرام الذين كانوا يتحدثون عن العدل والاستقامة، كانوا يتجنبون العدل، في سبيل ضمان مواقعهم، والحق لاجل صيانة منافعهم. اذ كانوا لا يتورعون من تحريض عصابات العصيان، ويتلذذون باراقة دماء المواطنين الابرياء، فلا تعدم أن تجد في كل عصيان أصبع العلماء العاملة، فكان كل عصيان يقع مستندا على الدين، وكانوا يقومون بتمثيل أدوارهم، تحت ستار الدين فهذا الصنف من العلماء كان اخطر وأضر عناصر الاختلال في تركيا

لقد كان العلماء يشكلون السلطة التشريعية للعصاة المهاجمين للقصور السلطانية والمتاجر والحقول، وكانت السلطة التنفيذية ممثلة في «الانكشارية» وكان سلاح العلماء الفتاوي التي يمليها الجبر والمضايقة من جهة، والمنافع الشخصية من جهة اخرى، وكان العصاة دائما ينتخبون من بينهم مفتيا ويطيعونه بفتاوي عقول قاصرة، فتقتل الأبرياء وتسلب الاموال، بل تنتهك احيانا الاعراض والحرمات فهؤلاء هم المسؤلون عن سوء تفسير احكام الاسلام خاصة بعد القرن الحدى عشر الهجري، لانهم هم الذين تسببوا في انحطاط الدولة خصوصا، والعالم الاسلامي عموما، هم الذين عاقوا النهوض وحالوا بين العقول والعلوم، بسبب ركودهم وجهلهم المطبق، فالتربية

الفكريــة العثمانيــة تدهورت، والافكــار العربيــة تكــرت حضارتهــا، فتحطم في بلاد آل عثمان كــل أمــل في الرقي، وذلك كله بسبب عنــاد العلمــاء وجهلهم وطمعهم، ففقدت بهجــة العظمة الاسلاميــة وغــارت فيوضها.

ان تسلط العلماء في بلاد آل عثمان، كان على الاخص ـ كما قلت ـ في القرن الحادي عشر، فظهر للخواجه سعــد الدين زملاء سياسيون حريصون على المادة، فنهبوا منافــع الدولــة العثمانيــة، وتسابقوا الى الاضرار بالبلاد، وكــان أهم الرؤوس من العلمــاء، اثنــان : احدهما الخــواجــه فيض الله افندي الجنــي (محضر الجــان) الذي استفــاد من شهــوات السلطان ابراهيم وخلو أفكــاره، فحكم البــلاد، ونصب بعض المفتــين، وجمع الــرشي، فلما قبض عليه متلبســا بهــذه الرذائل وجــد تحت حصــيره امــوال طائلة، فحجــز عليها، وكــانت مائتــين وثلاثــة آلاف كيسة ذهبا (من 13 الى 5 جنيهات عثمانية) كمــا وجــد عنــده صنــادق مليئــة بالذهب، واكثــر مــن خمســين فــروة صمــور (11) من أغلى الأصناف.

وفي اثنــاء جلوس محمد الرابــع فرق مــال الخواجــه الجني على اكثــر مــن 50.000 من «الانكشارية» وألف للفرسان (سيماه) فكان للانكشارية 3000 قرش «ترقيــا»، لكــل واحــد (12).

لهذا كــان القضاة ورجال الدين، المنوط بهم صيانة الدين، أشــد أعدائه، وكــانت حقوق العباد أهم مصدر واكبر منبع لشرهم، حتى انه في بعض الاحيان كانت توخذ رشى لتعيــين الاشخاص في منــاصب القضاه وبــذلك كــان كــل «عالم» يريــد أن يكون قاضيا، لا يتورع من جمــع الامــوال، بكافة الوسائل، حتى يستطيع شراء منصب قضائي، وكــان احيانا يعطي هذا المنصب لشخصين : فكان كلاهما يترقب عيوب الآخر، ويتجســس على أسراره، ليخلص له المنصب وحــده وفي عصر محمد الرابــع، كــانت مسألة الرشي متفشية، ومضرة جدا بالسمعة الاسلامية، وكــان الشعب يتجمهر امــام قصورالملك، وينضم اليــه بعض العلماء المحرومــين، فينالون المفتي بقولهم : ايها الشيخ ذا اللحية الدموية ! امــا يكفي المكــر والخــداع، باسم امة محمــد ؟ فتتماطر الشتائــم والسباب بــين الطرفــين...

ومضت ايــام السلطان ابراهيم، وكانت سيول الجهل فيها منهمرة، لغاية عصر السلطان مصطفى الثاني، حيث ظهر فيض الله أفنــدي، الذي سبق غــيره في مضمار الحرص والطمــع والجشع، فرفــع أقــاربه الى المناصب العالية، حتى طالب بعضهم بمشيخــة الاســلام، وان يكــون هــذا الحــق متــوارثا فيهــم.

وبالجملة فـان الدين عندهم كان وسيلة للوعد والوعيد، حتى ان «الجني خواجه» دافـع عن نفسه عندما هاجمه الجنود، محاولا أن يكفهم باسم الديـن وقـائلا : كفـوا أيديكـم، أنـا قاضي عسكر (13) ومن العلماء «متناسيا عقاب استهلاكـه لحقوق العباد، وهكـذا وصلت جهالات العلمـاء الى اقصى حـد...

وفي عصر السلطان سليم الثالث، تقدم «والده كـدخداى» يوسف أغـا الى سعد الله أغـا، لشراء سبع سنوات من حياتـه، فلم يرض بهذا،فذهب لقاضي «غلطـه (14) شيطان امـين أفندي، فحرر عنده حجـة، مدعيـا فيها، بلـوغ حالة القاضي الفكريـة الى حـد التدهـور في ذلك الوقت : صاحب السعـادة والعطوفة يوسف أغـا ابـن المرحـوم اسماعيـل أغـا ـ بالجلسـة الشريفـة المنعقدة بداره الواقعـة على الساحل ـ ثبت أن الحاج سعد الله أغا، بمحض اختياره ورضاه، أقـر بانه وهب سبع سنوات كاملة من اجله الموعود عند خلق الارواح وتقديرها في اللوح المحفوظ لحضرة يوسف أغـا، وسجـل ذلك، كمـا وجد في كتابه أن سيدنا آدم عليه السلام تنازل لسيدنا شيث عليه السلام (15) أو برواية اخرى أن سيدنا داود عليه السلام وهب قسطا من عمره (16) (ولم أر صورة لهذا الكتاب القديم المدعى).

كان العثمانيون معتمدين على هؤلاء العلماء، يتطلعون الى الرقي ويتحفزون للدفاع عن الشرع الشريف، ويستعدون للحياة الكريمة بـين الامـم المتحضر، ولكن الاسلام بجهل هؤلاء العلماء، وحرصهم على مصالحهـم، ضـاع نفـوذه وتغـيرت ماهيته، فلم يكـن هناك تمدن حقيقي، ولا حياة سعيدة للاسرة، ولا حب بـين الشعب، ولا تذوق للمعرفـة ولا اقبال على الصناعة، وذلك بحكم دستور المنافـع الشخصية، التي تشبث بها هـؤلاء.

وبناء على هـذا كـان سليم الثاني، حـين فكر في تقويم العلماء، واصلاح «الانكشارية» نافـذ النظر، يسعى وراء استرجاع عصر السلطان «أورخـان» والحصول على حضارة تناسب الحيـاة، في وسط العـالـم الاوربي المتحضر.

كان في أواخـر القرن الحادي عشر الهجري قـد حصل تقـدم عظيـم فـي أوربا، أما في تركيـا فانه منذ القرن العـاشر والاضطراب ينخـر في أساس الدولة العثمانية، وكـانت المضادة للرقي حتى في عهد «كويرولي حيث كـان الاضطراب في الادارة مائـلا للعيـان، وفي خطاب سفـير لويس الرابع عشر «دونوان تـين» الذى ارسله لملكه نجد صورا للاططرب في عصر كويرولي (17) اذ يول» «دونوان تـين» في مذكراته :«أسرة ملكية تلفة، ووزراء متنافرون، وآلات الادارة في الحكومة معطلة، التسويف، والسرقات، والرشى، كـل ذلك ينخـر في جسم الحكومة والدولة مثل «الغرغريـن».

ثم يقول : «ازاء هـذه الاحوال لو كـانت الحكومات المسيحية، تسلم قيادها للعلمـاء بهذا الشكل، لما كـانت تخشى الشبح التركي ولكنه يجب على هذه الحكومات، ان تدرس الشعب التركي عن كثب، على أنـه يجب ان نعترف، بـأن الشعب التركي أفضل وأمتـن بكثير، منها لصلابة طباعه الدينية، تلك المتانة التي تربو على ما للحكومة التركية من سلطان (18).

وهكـذا استمر سفـير «لويس» الرابع عشر، في ملاحظاته واستنتاجاتـه التي صدقت قرونا بعد ذلك وفي الحق كـانت البـلاد التركية تغص بالجهـل والتعصب والجنايات والغارات والسلب والتغاضي عن الحقوق، ولـم تكـن هناك مقارنـة بينها وبـين القرن الثاني عشر، بأدبائـه وسفرائـه وأربـاب فنه، الذين كانوا في أوربا دعائـم حضارتها، فتقدمت صناعتها وتجارتها مرتكزة على قواعـد وأصول. ويكفي ان نلقي نظرة على الاقتصاد السياسي الذي صوره «آدم شمث» في كتابـه «ثورة الامـم بأسسها الاقتصادية» لندرك ذلك جليـا، كما ظهر في أوربا فلاسفة، مثل «يكرت» و «مالبرنش» و «اسبنوزا» و «لايبنيس» ممـن اشتهـروا بالتفكير البشـري الدقيـق، ووضعوا القـواعـد الثـابتـة والقوانـين العامـة للكـون، وغـيروا النظريـات القـديمـة في الاعتقـادات الدينيـة، ففـي «انجلتـرا» أثبت «لـوك» وجـود اتفـاق بـين الشعب، غـير حكومي، وفي غـيرها، كـان «مونتسكيو» و «فولتـير» يقومان بتصفية الـدين، وتأسيس حقوق البشر والقضاء على استبدال الملوك، وتقويـم أودهـم، والى جانب هؤلاء، كـان «روسـو» لا يعتمد على الدين، ولا على الحكومة، ولكنـه يقـرر أن الناس بطبيعتهم، ميالون الى الخـير والنظام.

كان الأدباء والفلاسفـة بهذه الصورة، يدافعون في هذه الاثنـاء عن حقـوق البشرية، بينما كان في «النمسا» يوسف الثاني، وفي «تسكنا» «ليوبولـد» وفي «بروسيا» «فردريك» وفي «روسيـا» «كـاترين» وجميعهم قامـوا باصلاح أدت الى تقدم هؤلاء الأمـم، كما كـان هـؤلاء من الاذكياء، والملوك رؤساء الامم، ولكن ليس لهم التصرف في الجبايات والامـوال الحكومية التي تستخلص من الشعب، لهم أن يتصرفوا في أعمالهم الخـيرية، وليس لهم أن يخصصوا وظائف الحكومة، ويقفوها على المتزلفين اليهم، فالوظائف يجب أن توزع حسب الشرف واللياقة... وبنـاء على هـذا، فقـد خفضـوا مصروفات القصر في كـل مكـان، وحببـوا الادارة الى الشعب، كما فكـروا في نمو ثـروات هـذا الشعب وعملـوا على رفاهيته، ومحوا آثـار الهمجيـة والتأخر، فنوروا بلادهم بأنوار العلم والمعرفة، وحتى بعض البقايا من معالم الاستبداد، كانت تبنى صروح باسم تنوير الافكـار

واسم منفعة البشرية، الى أن صارت في القرن الثالث عشر الهجري بأوربا هيآت اجتماعية راقية، وقوانين منظمة، تدخل السرور على القلوب والاستبشار على الحياة، ووجدت علوم تدفع الانسان الى السمو بالبشرية. كما كان هناك أدب راق وشعر نبيل، فكان في روسيا «بوشكيم» وفي فرنسا «شاتوبريان» يصوران الضمير والاحساسات البشرية الراقية، على حين كنا نجد في تركيا، حفاة عراة، باسم «الانكشارية» (19) التي ربكت الامن في الولايات.

وتفاقم أمر العصابات، فنتج من ذلك، ان ضمت بعض نواحي الدولة الى «النمسا» وبعضها الى «روسيا»، وبعد ما كانت حدود الدولة العثمانية في «فيينا» تقلصت الى نهر «الدانوب».

لقد فكر السلطان سليم في بعض الاصلاحات، ازاء تقدم الاوربيين، لان انقلاب «فرنسا» شكل المجتمع الفرنسي بشكل آخر، من الوجهة الادبية والعلمية والفنية، خصوصا حينما كان وراء قائد مملوء بالنشاط مثل «نابليون»، فكيف كان للعثمانيين أن يقابلوا تقدمهم، بوسائلهم البالية القديمة، بالرغم مما كانت لها من أهمية في ذاتها، فكان يجب على الدولة العثمانية، أن تزكي دماءها بذرات الحياة، وذلك باحياء رغبة العلم والعرفان، وايجاد جيش قوى متصف بالصفات الوطنية، وتشكيل هيئة وزراء، تضاهي زملاءها في أوربا، مدركة دقائق العلوم والسياسة، وان تبتعد عن الوزراء الذين ما كان لهم مستند سوى الجهل والشقاوة ـ وقد كانوا رؤساء العصابات ـ لتتمكن الدولة من الصمود أمام هجمات أوربا، حيث كان الاحتكاك بالاوربيين.

في آخر القرن الثاني عشر الهجري، كانت الدولة العثمانية قد قبلت أن تشترك بقسطها في بناء صرح الحضارة الاوربية، بصفة تدريجية، ولكن مساعيها كانت عقيمة أو ناقصة. على أن البعض استفاد من الوجهة الفنية، في الاذواق وبعض الصنائع، والحقيقة انه في هذا العهد أدهشت بدائع «الآستانة» العالم الغربي بسحرها فنجد امثال المصورين المشهورين «مالنج» و «كاستلان» يتسابقون لرسم مناظر «الآستانة» الرائعة، كما رسموا بعض القصور البحرية على «البسفور»، مثل قصور خديجة سلطان والباشوات وبعض أغنياء «روم الفنار»، وقصور سفراء الدول الاوربية، وسواحل «الاناضول» بألوانها الزمردية الخضراء، وخاصة المساجد بمآذنها البديعة التي كانت تجذب الرسامين بسحرها.

فكانت الاناضول الجوهرة اليتيمة، بين القارتين وبين البحرين، ولكن كان باديا للعيان، أن جهل الامة العثمانية، وشقاوة عظمائها، يمنعان من امتلاك هذه البلاد الرائعة بمزاياها المعروفة لدى الجميع، فكانت استحالة هذا الامر ظاهرة عند بعض الافاضل. كان البسفور بسمائه الصافية يصل البحرين بشمس مشرقة، فتتبدل لطافته باستمرار وتتبلور مياهه مثل شريط ازرق، متلون مترجرج، وفي البر كانت الاشجار الباسقة ترتفع مثل مظلات، مكونة غابات سنوبرية ،، ثم مناظر السيدات بخمرهن، والرجال بعمائمهم، وآخرين الى جوار المياه أمام المصليات بقلانيسهم.

لهذا نجد أمثال سفير فرنسا «سبتياني» وسفير انجلترا «اربث نوت» وسفير روسيا «اتلنسكي» يتملون بهذه المناظر، ويجلبون كبار الرسامين، لرسم روائع الشرق، فراجت رسوم «مالينك» في باريز جدا، كما راجت كتب «كاستلان» في اللباس العثماني، مع رسمه لآثاره ونفائسه بشكل عجيب (20).

وفي عصر سليم الثالث كان قصر «توب قابو» محتفظا بشكله القديم، ففي الجزء الذي يواجه «غلطه» تحت القبة وفي شمال الابراج، كانت تقع دار السلطان سليم الثالث، بنيت طبق الهندسة المعمارية العثمانية، بشكل رائع، وكانت قاعة الحمام بها أربع غرف، احداهما خاصة بالسلطان واخرى خاصة بوالدته، وكانت هذه الغرف قد زينت في القصر بنقوش مذهبة بارزة على جدرانها، وقد رسم فيها مناظر طبيعية جميلة، تمثل أروع الفن التركي، فكانت صور الازهار والمناظر، قد رسمت بالوان متمازجة بديعة، كما كان الرخام الابيض والاحمر، قد ثبت على أساس الرخام الاسود، وقد كتب على الحيطان قصيدة فارسية مطلعها :

بارك الله زهي جاى لطافت مسكن

باغ فردوس كبي سير تمزد له حزن (21)

وهي قيدة طويلة قد كتبت كلها

ومن الغرف المزينة، غرفة لحية السعادة (22) وكانت هذه الغرفة قد أبدع فيها، بانواع الفسيفساء، كما كان الرخام المجوف مثبتا عليها، وكانت الجدران مليئة بأنواع الصور والازهار، مرسومة على مغاليق الابواب والدواليب والمدافىء، وكان السقف قد ثبت عليه الرخام الاسود والابيض المتداخل بعضه في بعض، كما كان فيها ميازيب جميلة، قد كتب عليها المصراع الآتي :

جسمه دلجو حيات جاودان عين شفا (23)

وكان سليم الثالث يقضي جل وقته في هذا المكان، وعظمته تثبت أن حفيد الفاتح، كان ملما بروائع الفن وكان عمر سليم الثالث في هذه الاثناء سبعا (1222) واربعين سنة، وكانت والدته «مهرشاه سلطان» مولدة. وحسب تعبير منير افندي، فانها كانت كما يقول : (في هذه الترجمة) :

السيدة مهرشاه شمس وقمر وكوكب طلعتها الوضيئة تجعل عالم الغم مسرورا.

لقد كان مهدها السامي تمهيدا للسرور.

الذي لم يترك لاحد طفل الحب مضيعا حزينا.

وهكذا تربى سليم الثالث في أحضان هذه الوالدة الراقية الشعور، فحمل بذلك قلبا مفعما بالاحاسيس، وعاش بالذوق العثماني ومال الى الفن العثماني، فتقدم بذلك الادب والموسيقى، في عصره، تقدما محسوسا، فوجد مثل الشيخ غالب (1170 ـ 1215) الذي ألف كتابه حسن العاشق، وحلل فيه الشعر العثماني بدقائقه، كما برهن بوضوح على قابلية اللغة العثمانية، بما يلي :

(مترجما) سالفها الاسود مثل شقائق عطرة

وخدها وردة تفتحت بين السنابل

وفي مرآة صدر البحر الفضي

عقود الجواهر تخال دوامته

وفي قطعة اخرى وصف الشيخ غالب «حسن» وحبه واستسلامه لآلامه، فيما يلي :

ليحترق القلب المسكين بآلامه

لكي يصدق صنمها الناري بذلك

ولتلون الارواح بالدماء

فتقنع عيونها المخمورة بالشراب

الف كرم لكل قهر فداء !

وفن الشيخ غالب يتسم بالبساطة في التصوير وتحرى الطبيعة في تبليغ المراد، فكان عصره معلنا للدعوة الى التجديد في الشعر العثماني. وكذلك في الموسيقى ابتدأت تظهر نغمات جديدة في أرجاء اسطنبول، وذلك بفضل

مجهودات الاساتـذة الـذين كـان منهم «الطنبوري اسحـاق»، «واحمـد أغـا»، «وارد اقوسطه»، «وحضر أغـا»، «وعـارف محمد أغـا»، «وعبـد الحليـم أغـا»، «وسعد الله أغـا»، وقد استهوت الادبيات والموسيقى سليم الثالث :

ماذا يكون اذا نحت كـالعندليب مـن ذلك الخد الوردى
ان بـلابـل الـروض تصيـح بكـل محبــوب
ليذهب كل رشد وثروة مع كأس العشق لذلك الجسور
فـالسكـارى تعـربـد مـن فيض كـأس عشقـة
وخيط آهـاتي لا ينقطع وقد امتد من الليل الى الصباح
واللسان يصيح تارة مـن المحبوب وآونـة مـن العـذول

هـذا الملك الشاب، الذي حرك الاحاسيس وتملكها بآهاته، كان قد غنى في «الشرقيات» المختارة، «مقامـات مولـوي» في فصـل «سوز دلارا» اذ كـان سليم الثالث قـد تعلم الموسيقى في زمن الامـارة، حيث تلقى من «أحمد كاملي» الغريمي أفندي الموسيقى الصوتية، ومن «اسحاق اورتـه كـوبلي» الطنبـور فكان سليم الثالث هو الذي أحيى فصل «سوز دلارا» وجلب دراسات جـديـدة في الاغاني والسماعات، في مثل المقامـات «راست جديد» و «بسنديده» و «بزرك» وغنى في الشرقيات فكان أستاذا (24) في مقامات «ماهور» و «عرضبار» و «شهناز» و «مخـير سنبلـه» و «يـوسلك» و «شهناز يـوسلك» و «طـاهـر بـوسلك» و «هـزام» و «شوقي أفـزا».

وكان سليم الثالث يدعو اليه أعظم الموسقيـين المختاريـن فـي عصره، فكان يمضي أوقاتا فى الطرب وتـذوق الموسيقى على الليالي القمرية، فكانت العوالم القمريـة، في عصر سليم، تتردد أصداؤها داخل «البوغاز» وفي قصوره المضيئة، فتماوج عباب البوغـاز وقد بهرت العيون المخمورة وملئت حسـورا بالانـوار المتلالئـة التي تخلب الابصار، وصدحت الموسيقى بأصدائها اللطيفة، يعزفهـا موسيقيون يلعبون بالرؤوس المتذوقـة للفن المنبعث من «صالون سراى بالديـزلي»، فهـذا كاتب معمم وآخـر «مقـوق»، شيـوخ وشباب يطربـون مـن فصل «سوز دلارا» مثلا لجنـاب سليـم (السلطان) وسط صدحات الناي والطنبور، فتترنح لـذلك أدواح الضفتـين، نائحـة باكيـة، وهـي تنصت الى سليـم :

ليحتل مجلس السكارى في نعيم الرياض

الوقت ورد فلتدر الخمور الودية على الايدي

ولنذق، نحن، وليسق فم الجام الجام

ولتنم تلك البرعومة النشوانة، فلقد أقبل الصباح

فكانت هذه الشرقيات تؤدى ترانم، باحذق صنعة وأستاذية، الدور بعد الترتيل لروح النغمات المدلة والثقيلة (25) في سماعية «آقصاق» تهتز لها سواحل «البوغاز» المضيئة.

بهذا الانسجام والذوق والطرب في «السراى» كانت تتشكل صور زمرة «موسيقى بطيئة» في المساء، وعلى أنوار القمر المغشية، في الوقت الذي تكون فيه أحراش البوغاز اللطيفة تغرق بالانوار، وتكون سفينة «بوسطنجي» باشا (26) تمر مسرعة، وبصوت يحدثه الارتطام (خيشردى ايله) على حين كان يرى البوسطانجي باشا، الذي كان مفتشا للبوغاز، لابسا «بابوشه» وطرطوره الطرنجي، بلحيته الطويلة، وهو في القارب العظيم، وكانت رقابته تحدث شعور الخوف في كل شخص مريب فكان الناظر يشاهد، بكل سرور هذا القارب المهيب، الذي يحمله متجها نحو اسطنبول، وكانت مفارقته تمكن من تنفس الصعداء لكل شخص، فاذا بالقوارب كلها ترى وهي تطوف على نغمات الناى والطنبور، ملأى بالرجال والنساء الحسان، ماخرة المياه التي تنعكس عليها أنوار البوغاز، فكانت تسمع نفثات الاسحار الموسيقية العثمانية، على طول ساحل «بريده» في ذلك الزمان الذى ترددت فيه الاصداء الشجية، فكانت تؤرث نار العشق في السماوات العلا، بين سكون الليل، وترنم البلابل، على غياض البوغاز، فتهيج الوجدان، كما هو في «دور» من فصل «شوق القلب» لسليم الثالث :

كيف لا أتحرق لجمال الطلعة البهية ؟

وكيف لا أبدو كالظل تحت قدمها ؟

ان سماعيات «يورى» التي كانت تغني في ذلك الوقت، و «شرقيات» حضر آغا وأردا قوسطه واحمد آغا، كانت تترجم عن احساسات أرباب الذوق الراقي على صفحات نور القمر.

وكـان سليم الثالث يمضي حياته الخاصة في الشعر والفـن، على حـين كـان يقوم بأعباء سلطنته ويفرض نفوذه العظيم على الحياة الرسميـة، وكـان الوقت الذي سيتوجه الملك فيه الى النزهـة يعلن قبل بيوم فكان كل شخص منتظرا تشريفه، بكل انشراح وسرور، وبالاخص فسحته البحرية التي كانت تخلب الانظار : تكون في المقدمـة ست سفن، في داخلها نحو خمسين ومائة غلام، قائمـين سماطـين على اليمـين والشمال، وسفن الاغـوات الخاصة. وسرعان ما تقصف المدافـع، فتفتح الطرق للسلطان، تحف بها الهتافات العالية والاغوات كلهم يحملون بأيديهم قضبانهم يصدرون بها الاوامر للسفـن، وخلف سفـن الغلمان : سفينة العمامـة «بعدها سفينة» ما بـين المتوجهـين وجهـة الـذات الشاهانية وفي الآخـر، كـان ياتي قارب السلطنة للذات الشاهانية، وكـانت قوارب الذات الشاهانية اثنين، الاول منهما محاطة حوافيه بطربزين مفضض، وعلى كل اربعـة اعمدة يقـوم «كشك» وكـانت حـواف هذه الكوشكـات قـد اتخذت من قصب مثقل بالذهب، مزيـنة بستاير «جوخـه» قرمزية مجدولة ومكللـة بالجواهر، ويكون السلطان في احدى السفن محاطـا بحاشيته، وأمام الدفـة يكون البوسطنجي باشا يواجهـه ثلاثة من رجـال القصر، وفي وسط «البوسطانجية» يكون غلامان، يحملان كرسيا خاصا بأيديهما، معدا لخـروج السلطان، فكان الموكب يتقدم نحـو مياه البوغـاز الزرقـاء، ويكـون احـد الخـاصة في الطليعـة.

أمـا القارب الثاني للسلطان، فهو مزين كالقارب الاول، ويرى فيه محافظ الاسلحـة حاملا سيف السلطان، وأغـوات الحريم في القوارب الآتية وراءهم.

وحين مرور السلطان سليم الثالث، تكون مدافـع «حصن البنت» تطلـق قذائفها، ويكون «البوسطانجية» المصطفون أمام الحصن يؤدون التحيات هاتفين، هتافات تتردد فى اليـابسـة.

كان السلطان سليم الثالث بسلطنته ووقـاره يحدث له نفوذا عظيما فى رعيته، وكـان اقتداره وذكـاؤه يضاعفان هـذا النفوذ، وكـان السلطان سليم منتسبا الى الطريقة الملوية، فكان فرط حساسيته يؤهله لان يكون شاعـرا بارزا، وكـان على استعداد عظيم للتفوق فى الموسيقى، فأيقظ هـذا فى روحه ذوق الفـن، وجعل طبعه دائما مجبولا على خصال تميل الى اللـين لا الشـدة والتسليم لا الصلابة والمرونة التى تتغلب على العزم الصارم، فكـانت هـذه الاوصاف تجعل سليم الثالث مثارا للتفكـير والى جـانب مافيـه من المـواهب السلطانية فان (عنعنتـه) الاصيلة كانت تحافظ على تاثـيره حتى على متغلبي زمانـه، فانهم ما كانوا يتأخرون عن الانقيـاد اليه عند المواجهـة اذ نـرى ان

المستقر للعثمانيين، أما البلقان فكان فيها شأن الرومانيين جميعا تحت نفوذ الروس كاملا، وكان بقاء الصربيين وأصحاب الجبل الاسود معرضا لنفوذ النمسا، وأما في باقي الاراضي، فكان تحكم المتغلبين، مثل ابن «باسبان» (33) وغيره.

كل هذا كان يكدر صفو الدولة ويجعلها في وضعية شائكة للغاية، وبذلك كان، منذ العصر الخامس، لا يرى بقاء للسلطنة العثمانية، التي كانت قد انتهت الى هذه المرحلة من الانهيار.

كانت توجد ثلاث دول تريد الاستفادة من هذه الدقائق العصيبة، والمرحلة المميتة لتركيا، هي روسيا وفرنسا وانجلترا وبينما كانت روسيا متمكنا سلطانها من البلقان، كانت تريد الاقتراب من «آياصوفيا» نفسها متظاهرة بالدفاع عن الحوزة المسيحية، وكان نابليون يرى اقتراب الروس من البحر الابيض فيه تهلكة (34) لفرنسا، وكان مقصد نابلين أن لا يمكن الروس من أية خطوة يخطونها عن طريق «بيزانس». ولهذه الغاية كان نابليون قد وجه الجنرال «سيبستياني» سفيرا الى اسطنبول لاخراج هذا الامل من القوة الى الفعل وكانت وظيفة السفير قد عينت غايتها : تمنية الباب العالي دائما وافهام الاتراك أن فرنسا تحميهم وعقد حلف ثلاثي تشترك فيه ايران وتركيا وفرنسا، ضد روسيا، وأن تحاط علما يوما فيوما بما تريده انجلترا وروسيا من الباب العالي، وأن تشعر روسيا وانجلترا وكل أوربا بأنها تنقل من فتح الى فتح، بالرابطة التي تربط بين فرنسا والباب العالي، وأن يقفل بوغاز البحر الاسود، في وجه الروس، وأن لا يمتد نفوذ الروس الى «افلاق» و «بغدان» و «برنسلك» (35).

وكان اول عمل للسفير «سبستياني» لما جاء الى اسطنبول هو احباط الاتفاق الذي كان سيعقد بين الباب العالي وروسيا. وكان «ابيسيلانتي» «وموروزي» حاكما افلاق وبغدان يعملان لنشر نفوذ الروس في تركيا، وكانا يمهدان كل الاروام لصالح الروس، فأحدث هؤلاء أول حركة في الصرب، وفي الولايات الاخرى، ولم يكونا يفتران عن مزاولة الوسائل التي تمكن من هذه الغاية، ولكن في بواطن هذه الحركة كانا يجريان وراء الاطماع وتحقيق غايات الروس.

ومهما يكن فان سبستياني ما فتىء يشوق الباب العالي «والسراي»، وفي النهاية تمكن من عزل حاكمي افلاق و بغداد فعين بدل «موروزي» «غاليماكي» وبدل «ايبسلانتي» «الكندر صوجو»، فكتب سبستياني، وهو

مسرور من نجاح هـذه السياسة، كتابا الى طولـيران، يقول فيه : بالامس تملص الباب العالي حقيقة من وصايـة الروس، وتخلص مـن نفـوذ الروس، وسلك مسلكه القويم، فاتخـذ التدابـير الـلازمـة للسلامـة.

ولكن بموجب معاهدة «ياش»، ما كـان عزل حاكمي افـلاق وبغـدان ممكنـا الا بموافقة وزارة «بطرسبرج»، لان هذين الحاكمين كـانا قـد نصبا لمدة سبع سنوات، فـلا يعزلان دون انهاء مدتهمـا، وعلى ذلك كـان سفـير روسيا «ايتالينسكي» يتوجه الى الباب العالي محتدا متميزا غيظـا، يهـدد تركيا باعلان الحرب عليها، وكـان سفـير انجلترا «اربثنوط» يدير لسانـه بنفس النغمـة، ويتهـم تركيـا بوقوعها تحت نفـوذ فرنسا. غـير أن قبـول سبستياني للحضور كـان يعطي المسالة لونا آخـر، اذ كـان سبستياني ينصح سليم الثالث باستعمال الشدة، مقنعـا الملك الغيور بسياسية نابليون الشرقية.

وهكذا كـان سليم الثالث في ذلك الوقت يفهم كـون نابليون يريـد منـع نفـوذ الروس في تركيـا، فكـان يرى التسليم المطلق بسياسة نابليون، ولكن بسبب ما يعلمه من حـال «الانكشارية» كـان يطلب مـن نابليـون المساعـدة الحـربيـة لمهاجمة روسيـا، وكـان تصرف سليـم قـد أغاظ قيصر روسيـا «الكسانذر» وجعله يحتد جـدا، وبذلك كـان سفـير روسيا يسلم الى البـاب العالي بلاغـا صارما، تضمن هـذا البلاغ «اما أن يعـاد حاكما افـلاق وبغـدان الى حكومتهما، واما أن العلاقـة الدبيلوماسية ستقطع بيننا»، ثم عاد سفـير نجلترا بنفس اللهجـة، مخبرا بأن الاسطول الانجليزى سيهدد العاصمة، تضاما مـع الاجـراء الروسي بقطع العلاقـات الدبلوماسية.

فكانت هذه التهديدات ترغم الباب العالي وسليم الثالث الى حـد بعيـد، وخصوصا التهديد الانجليزى، الذى كـان قـد احدث تاثـيرا عظيما جدا، اذ كان سفـير انجلترا «اربثنوط» يعلن عـن اتفاق سيعقد بـين روسيا وانجلترا وبروسيا والسويد، وان هذا الاتفاق سيمكن القوات المتحدة من سحق نابليون.

وبـذلك أصبح سليم الثـالث مرغما على اعادة حاكمي افـلاق وبغـدان، وهو مغتم مـن هذه التهديدات، فكان ضعف سليـم الثالث هـذا ممـا جعـل سبستياني، سفـير نابليون، يهـدر قائلا، حتى الآن ما رأيت في تاريخ هـذه الدولة انقيادا موجبا للعـار الى هذه الدرجة.

وفى الحقيقة كـان الباب العالي محتارا فيما يعمل، ولكـن القوة في أيـة جهة، كانت ترمي بـه فى الطرف الاوفق احتمالا، من حيث يكون التهـديـد اكثر وازيـد، اما نفوذ نابليون، فانـه الآن، كـان سيدخل الى اقصاه : لانـه

في هـذه الاثنـاء كـان جيش الامبراطور الشاب المظفر، قـد بدد في موقعـة «يـانـا»، تماما الحلف الذي كـان سفـير انجلترا قـد اخبر به، فكـان نابليون يوجـه الى سليم الثالث، بخبر الانتصار، قائـلا : جيوش بروسيا قـد محيت من الوجود، وصارت في قبضة تصرفي كـل الممالك، فقد دخلت برلـين ثم وارسو، وها أنـا اتعقب كـل القوات بجيوش قوامها 20.000 شخص، فليساعد الطالـع بقـاء حكومتكم، واني سأنقذهـا.

ثـم كـان طالـيران يكتب الى سبستيان بقوله الامبراطور يريد أن يسلم حكـم افـلاق وبغـدان الى الباب العالي وما دام الباب العالي لـم يتمكن مـن افـلاق وبغدان فتسلما الى السلطان فـان الامبراطور لـن يسلـم بـرلـين ووارسوا، فثابروا على ذلك.

وعلى هذا وقعت مقابلة حـارة بـين سبستياني ورئيس الكتاب، حـول هـذه البشارة، وتبودلت الرسائل بـين سليم الثالث ونابليـون على حـين كانت جيوش الروس الجرارة تعبـر نهر «دينستار» مـن ثلاثـة اصـواب، فالجيوش التي كـانت تحت قيـادة الامـير «برنس اولغوروكي» والجنـرال «ميكه لسون» والجنرال «طومانسكي» كانت تتجاوز حـدود الممالك العثمانيـة، لدرجـة أن سفـير روسيا فوجىء فوقـع في الحـيرة من هـذا التجاوز، ولكن الحكومة الروسية كانت تقول : ان المكتوب لـم يصل اليها الا في كانون الاول (دجنبر) وان اعلان الحرب من جانبها كـان في تشرين الثـاني (نفمبـر) وان انذار روسيا للباب العالي كان قد صدر في التاسع والعشرين من أيلول (شتنبر) فلم يات اى جواب الى «بطرسبرج» في تشرين الاول (أكتوبـر) مما ادى الى اعلان الحرب، والواقع ان رغبة الروس كانت قـد اجريت في تشريـن الاول، وأن الخبر هـذا كـان قـد استطاع أن يصل الى بطرسبورج في تشريـن الثاني فقط، أمـا القيصر فانـه في هذه الاثناء كان قد تسلم من الباب العالي جـواب الانذار، وفي الظن ان الجنرال «ميكلسون» كـان قـد اصـدر الامـر بالحـركـات العسكريـة آنـذاك (36).

كانت حركة روسيا هذه قـد أغضبت جدا العثمانيـين، فصار الجميع يريد أن ينتقم من روسيـا، ولكـن ما فكـر قط اذ ذاك هل في قـوة منابـع الـدولة ما يفي باجـراء هذه الحرب أم لا، نعم : ان سليم الثالث كـان متاثـرا جـدا من هـذا التعدي، ومغتما مـن وقوفـه على ضعف المملكـة في نواح شتى، اذ كانت الدولة حقـا في ضائقـة ماليـة، والدفـاع عن البحر الاسود ومضايـق قلعـة «جاناق» كـان خارجا عن الطـاقـة، ونفوذ الحكومـة على الولاة الذين كانوا

على ولايات «الطونــة»، لم يكن ثابتا، على حين كانت سفينتان انجليزيتان قد رستا مواجهة لاسطنبول، فكان وجود هاتين السفينتين يفت في عضد البـاب العـالـي.

ولم يفتر نابليون، مع مرور الايام، عن تشجيع سليم الثالث، وهكذا فقد ورد في المكتوب الذي كتبه من «بوز» قوله : «بروسيا قد عقدت معاهدة مع روسيا، ولكنها ستمحى حالا، ولات حين مناص» ثم يقول في المكتوب الذي كتبه لسبستياني : أكدوا على الباب العالي بالحاح وليحشد العسكر على أطراف «خوتين» فاني سأعمل في اتحاد مع الباب العالي على سحق روسيا» (37).

والنهاية أن سليم الثالث انخدع بهذه المحفزات، فقبل حضور «سبستياني» بقصر «كاغد خانه»، وأعلنت الحرب على روسيا فحصل حماس عظيم في المملكة العثمانية، وأحضرت الى اصطنبول القطعات الاناضولية، وكانت تساق جيوش البلقان الى الطونة و «فيينا» .

وكان الحماس يتجلى في مقاومة العثمانيين لاستيلاء روسيا على «صوك» و «جانسباران» وكان العثمانيون يريدون قطع طريق «بيزانس» لهؤلاء «المسقوفين» على صورة حاتمة، وتجلى الاتحاد في المملكة، فكانت زعماء البلقان والاناضول تنضوي جميعا تحت لواء الشعور بالعثمانية وترتبط برباط الدين، ضد أعداء الاوطان.

ومن جهة أخرى عزأل حاكما «أفلاق» و «بغدان» السابقان، وكان سفير روسيا في سجنه (بيد قولـه) ثم أفرج عنه بناء على مراجعة «سبستياني» وبالجملة، فقد كان في تركيا ثوران عظيم نافذ الى الاعماق (38).

وقد طبع في باريس كتاب لنابليون الفه بعنوان «أذن مؤذن عثمان يدعو أبناء دينه» وفي هذا الكتاب تحريض العثمانيين على الروس بكل وسيلة، ويظهر فيه نابليون مخلصا للدولة العثمانية، الا ان ضعف الباب العالي وبعد فرنسا عنه، منع ذلك أن يكون له نتيجة مجدية، ففي هذه المناورات كان جيش نابليون ببولندا، يقطع خط رجعة الروس من الشمال فقط ويعوق عن ازدياد تقدماتهم، وكانت وضعية نابليون من هذه المساعدة، تجعل الانجليز يفكرون جديا في الامر، فهؤلاء الانجليز لم يكونوا يرتاحون لتقدم الروس، وتحركاتهم نحو اقليم «أفلاق»، على حين كانوا يدنون باساطيلهم الى البوغاز.

الجزار محمد باشا المشهور بالشقاوة والعصيان والتمرد، كان يقوم اعظاما كلما ذكر سليم الثالث، وكلما جاء حامل «الفرمان» (27) كان ينزل عن فرسه ويخف نحو الركاب اجلالا

كما كان سليم الثالث مهتما بالانضباطية «لاجل تقرير نفوذه في المملكة، فكان يكرس اكثر ايامه على بناء الثكنات وفتح المدارس، كما انشاء «توب خانه» (28) في «بي اغلو» ومزرعة «لوند» في «اسكدار» و «الترسانة» في «الخاص كو» والنظام الجديد الذى جعله لثكنات «للقليونجي» (29) و «الهامبرجيين» والقنبرية، وأحواض الترسانة والأنبار العظيمة على سواحل «الاسكدار» وبنى الجوامع والمدارس والحمامات، وكان يحيي الفرادس ويشيد القصور المزدانة، وكلما كان سليم الثاني يبني قاشلاق (30) أو مدرسة، كان الشيخ غالب في المناسبة يسجل تاريخ ذلك، مثلا :

قلم «غالب» رفع علم التاريخ وأقام مقاما للعسكر المنصور المخلص للملك

كما كتب تاريخا لبناء ثكنة «الخمبرجي»(31) في مزرعة «لوند» (لوند جفتلي) بهذا البيت :

عندما تم بناء الصرح العالي قلت «ياغالب» مؤرخا
الذي عمر هذه الدار العسكرية هو السلطان سليم

وفي هذا الدور كان الضباط الذين أتوا من فرنسا، ينشرون التعليم بين الجيش، وكانوا يتميزون بمؤهلات العلم والمعرفة، مثل اسحاق أفندي.
وكان سليم الثالث قد جعل المدافع تقذف طلقاتها، على الطريقة

الحديثة، وكانت السفن تنشا فى الترسانة وفي المصانع «السليمية» التي انشئت في الاسكودار، كما نشطت مصانع الاقمشة، فكانت هذه تنسج في المصانع المحلية، فترسل بخطوطها «الهمايونية» الى الأماكن المشهورة بأعمال النسيج، مثل الشام وحلب وديار بكر «ومغنيسا» وقبرص وأزمير وعشاق وبروسه ومصر وطرابزون.

وأهم منشآت سليم الثالث كان دار القنابر، وقد عين رامز أفندي القريمي لنظارة دار القنابر، فابتدأت بها دروس الخواجه اسحاق افندي،

ينصت اليها بكامل الاهتمام، وكـان سليم الثالث يحضر بنفسه الى مـدرسة «سودليجه» ويمتحن الطلبـة ويعاين الخـرائط والتصميمـات، فيحسن الى المعلمـين والطلاب بالالطـاف.

وبذلك كـانت مدرسة «سودليجه» في رقي مطرد، وكـان الضباط الذين جلبوا من فرنسا والسويد وانجلترا يبعثون في الجيش محبـة العلـم والفـن، ويلقون فيهم أفكار التعبئة والنظام، وكانت محبة الفنون بـين اركـان الدولـة العثمانية بدأت تستيقظ من سباتها على عهد مصطفى الثالث.

وكـان «شاني زاده» قـد ترجم تعليمات «فردريك الاكبر» العسكـريـة، والآثار الطبيـة، أما في دور سليم الثالث فان الآثار التي نشرهـا بالفرنسيـة محمود افندي الانجليزي كـانت قـد اظهرت نهضة العلم ايضا عند العثمانيـين، وكـان مؤلف محمود افندي قد طبع في اصطنبول، وكانت رسوماتـه النفيسة قـد حـيرت الالباب وأعجب بها كـل انسان.

وهكذا كانت مدرسة «سودليجه» قد رفعت مستوى الرياضة بالخصوص، فابتدأت في هذه المدرسة تتحقق آمـال عظـام جـدا كـان سليم الثالث يعلقها عليهـا، كما اسس المدارس التي يتخرج منها ضباط الجيش، وأراد ان يؤسس في المقاطعات معاهد للتعليم والتربية، التي رأى أن تبنى قواعدها على الاسس الاوربيـة، فـاسس في اول الامـر «النظـام الجديـد للجيش»، وكـان هـذا النظام مكونا من «بلوكـين» للخيالـين و «آلايـين بيـاده» (مشاة) وكان هؤلاء سيلتحقون بفرقـة «البوسطانجية» الكائنـين في السراى الهمايوني، وكـان احـد «الألايـين» بالسليمية والآخر في المزرعـة «جفتلك».

وكانت هذه «الألايـين» تشتمل على عشرة «بلوكات» (32) وكان كل «بلوك» عبـارة عـن 80 الى 100 رجـل وكانت «البيادة» مجهـزة ببنـادق مـوده لي وسيوف مقوسة وحراب، وكانت كسوة العساكر عبارة عن «جكتا» قـرمزيـة و «بنطلون» ازرق، وطربوش قرمزي اللون، أمـا الفرسان، فكانوا قسمـين، قسم يرتدي كسى قـرمزيـة، وقسم آخر يلبس طرطورا أصفر وكـان «النظام الجديد» مشكلا على هذه الصورة، وكانت في اصطنبول ايضا «آلايات» مشكلة كما في الاناضول، وكـان قاضي عسكـر متحمسا لتشكيـلات «الالايـات»، فكان يرغب الناس ويغريهم بادخال أقربائه ومعارفه في «النظـام الجـديـد».

وكـان هذا «النظام الجديد» له ميزانية سنوية 20.000 كيسة، ولتأمـين هذه الميزانية احدثت في خزينـة الدولـة ايرادات جديدة، مثل ايرادات الملاك التي كانت تتحصل منها ضرائب عن المنازل يتكون ايرادها من 15 الى 150 قرش

الف قرش فكانت تلك الضرائب تصير الى هـذه الخزينة. كما كانت للاقطاعات التـي ليس لها اثبات واردات اخرى وللذين لم يؤدوا الوظيفة العسكريـة، في الحرب الاخـيرة، فعليهم أن يعوضوا ذلك بايـرادات تختص بها هذه الخزينة، وكـذلك كـان ستخصص لها أمـلاك «الخاصات» عقب وفـاة أصحابها فتضاف الى الايرادات الجديدة. وفي هذا الصدد كـانت واردات «الجمرك» قـد جعلت لهـا رسوم جديدة كما وضعت للتبغ الرسمي والشراب والحريريات والصوفيات والقطنيات، فصارت واردت الخزينة الجديدة قد ارتفعت من خمسين مليـونـا فـي سنـة 1215 الى 70.000.000 مليونا، بعد خمس سنوات.

وحينما راى سليم الثالث «النظـام الجديد» يترقى في الاناضول، قـرر تشكيلـه في «مقدونيـا» بولاية الروم، غـير أن ترقي «النظام الجديد» كـان يوقـع «الانكشارية» في الخطر ويعرضهم للاضمحلال، خصوصا الحاكـم القيم على حراسة الاطراف «فـدين» و «روسجق» و «أدرنـة»، فكـان يغتـم كلمـا ذهب مع أولاد «الترسنكلي» و «طاغ دبـران» و «باسبان». فكان هؤلاء يفكرون بطريقـة حاسمة في الحركـة والثورة على السلطان سليم ويرونها لازمـة بأي صورة، لاجل تحقيق هـذا القصـد. وكان سليم يستطلع آراء رجال الحكومـة في هـذا الشان.

وفي هذه الاثناء، كـان الصربيون يثورون، وكـان الروس يحركـون اهل «الجبل الأسود» وكـان الفرنسيون يمرون أمـام أقاليم «البوسنه» ويحتلـون «راكـوزه» و «دوبرنيك». فكان السلطـان سليم في هذه الأثنـاء يحاول استغلال الفرصة، ويوجه مرسومـا، حسب اشارة ابراهيـم نسيم افنـدي، يتضمـن الاوامر الى والي قـرمـان قـاضي باشا، بالزحف ـ منـاورة ـ على الصرب بالجيوش، ضد فرنسا وروسيا، ولكنه في الواقع كـان يهدف بذلك الى تركيز «النظام الجديد» في البلقـان (مقدونيا) بهذه الوسيلة.

ولكن في الداخل، كـان من أعـداء ابراهيم نسيم أفندي، اسماعيل بـاشا الذي ما كـان يفكر في مصلحة الوطن وجعل الامة تتمتع بحسن الرعايـة فـي الداخل، ولاجل تعويق مساعي قاضي باشا شهرزاد مصطفى، كـان قد تواطـأ مـع حكام الاطراف، وبعث خطابات تستفز أعيان «البلقان». وكـان الاعيـان مشدوهـين من تشكيل «النظام الجديد» في ايالـة الروم، وبذلك اجتمعوا في «أدرنـة» متأهبـين لمقاومـة جيش قاضي باشا، ورفضوا قبـول «الفـرمـان» القاضي بتأسيس «النظام الجديد» في أدرنـة، ومزقـوا جسم من تـلا عليهـم

المرسوم في «تاكفورداغ»، فرجع قاضي باشا مع عشرين ألفا من رجاله، وقد سرت الثورة الى سائر القصبات، ولم يعمل بأوامر سليم الثالث في أي مكان، بتاتا ...

وهكذا عاد قاضي باشا الى أسطنبول بعشرين الف شخص، بدل ما كان سوقها معدا لأدرنه، كما كان قد أمر به سليم الثالث، ولكنه وجههم الى مزرعة «لوند جلفلي» الملكية، وكان كل يوم يذهب الى المعسكرات، ليشاهد في شغف عظيم تشكيلاتهم ونظامهم ومضت مدة عشرين يوما على هذه الحال، كان قد أمن تضاعف القوة المضادة «للنظام الجديد» في «أدرنة»، وتمكنهم من حشد رجالهم وكان الوقت الذي تحرك فيه «قاضي باشا» متجها الى أدرنة، تعيش فيه العقول المتفسخة في محيط اصطنبول اللطيف، فأثر ذلك في حماس الأمة وعملت تلك الجماعة على تكفير رجال «النظام الجديد» فاجبروا بذلك جيش قاضي باشا على الرجوع الى الأناضول، وسرى الحكم في أدرنة بنفس الحالة الفكرية، وما كان لجيش قاضي باشا احراز أي توفيق في أدرنه، بل استفحلت مقاومة الأشقياء «الانكشارية» المجتمعة في أدرنة، التي أجبرت جيش قاضي باشا على الانتكاص، وطبعا كانت فلول الجيش تمر على سمت الاناضول وعلى مشهد من الناس.

ان قهر «النظام الجديد»، كان بسبب الاهمال والضعف، قد جسر كل اعيان «روملي» (البلقان) على خلع السلطان، وبهذا الضعف الذي استحوذ على سليم الثالث، كان قد فقد نفوذه، فحاول هؤلاء العصاة أن يزحفوا على اصطنبول، فكان ابن «ترسنكلي» وقد وجه عساكره متشبثا بالموقف، الا أن عساكره هلكوا الى جانبه.

وبهذا كان الضعف الذي تسرب الى سليم الثالث قد قضى على كل نفوذ «للنظام الجديد» ومستقبله أيضا، واصبح سقوط سليم الثالث محققا، فلم يبق معنى للوظيفة الحكومية، التي كانت تتمثل في ذلك النظام الوحيد، وكان الواجب المحافظة على هيبة الحكومة، في عزم وقوة، والصمود بها أمام مقاومة الاشقياء بأدرنة، على حين كان عدد «الانكشارية» قليلا، وانتظاماتهم في حكم المفقود، أما عدد أفراد «النظام الجديد» فكان قد بلغ 30.000، خصوصا وقد عوينت جدارة هذا الجيش، وما حققه في توجهه الى عكة ومصر فنما بذلك نفوذه بين الناس، ولكن ضعف الحكومة ترك هذه المؤسسة، بالهمم البالغة والغيرة المتناهية منذ سنوات قوة عقيمة، وقضى على نفوذ العرش، الذي لم يتجاوز محيط نفسه.

لقد أصبحت «الانكشارية» يزداد عددها، على حساب هذا الضعف، أما اهانة اسماعيل باشا، التي أوقعت المملكة في بلاء عظيم، فقد اكتفى فيها سليم الثالث، بأن عزل هذا الوزير الخائن فقط، وصار رئيس الانكشارية، ابراهيم حلمي أغا، الصدر الأعظم وأصبح محمود عطا الله أفندي السلانكي شيخ الاسلام.

كان سليم الثالث متأثرا جدا بسبب هذا الطغيان الأليم، الذي وقع ضد العلم والمعرفة، في المملكة، ولكن ابراهيم نسيم أفندي ورجالا آخرين متحمسين، لم ينقطع املهم حتى الآن، وكان ميزان الحكم في الداخل قد اختل، وكانت الحالة الفكرية قد سيطر عليها الطغيان، ومع هذا فان أولئك ما زالوا متعلقين بالأمل في المستقبل، فيقدمون كل ما في طوقهم من تشجيع لا يفتر نحو سليم الثالث، الذى أضطر أن يتساهل مع أطماع «نابليون»، وأن يتوجه وجهة تتنكب الاحتكاكات التي ربتها سياسة أوربا، على معاداة تركيا والدولة العثمانية.

فبعد الحرب الاليمة التي انتجت معاهدة «ياش» والتي أصيب فيها الجيش العثماني بهزيمة على يد الروس، كان النفوذ الروسي قد انتشر في أطراف المملكة العثمانية، فلم يبق في يد سليم الثالث اى نفوذ او قوة، فالجيش لا يطيع، والشعب يرفض كل اصلاح، فلم يعد لسليم الثالث اى نفوذ يمتد الى خارج اصطنبول، فى البلقان أو الأناضول، حيث كان تغلب الباشوات نافذ المفعول وكانت المملكة تطفح بفساد الاخلاق ومعاداة المدنية، والجهالة التي كانت تنضم الى كل قبيح، فلم يكن اى لزوم لمداخلة الدول العظمى لاقتسام تركيا فيما بينها، ووضع حد للسلطنه العثمانية، التي كان فيها من يرى أسس الانسانية والحضارة غير ملائمة للشروع، ويفضل قيد الاحتفاظ بالمنفعة على كل الروابط المقدسة، والمثل العليا المختلفة. الى جانب من كان يعيش غريبا بالكلية عن الفنون والمدنية، التي كانت الأمم تتمتع بها خارج المملكة : هذه الأمم التي كانت تسقط من حسابها الامة العثمانية العاجزة عن ادارة الضفتين، فضلا عن ادارة الدولة نفسها.

حقا، ان سليم الثالث كان، وسط هذه المفاسد، يريد اجراء الاصلاحات، ولكنها كانت من قبيل قطرة فى بحر، لا تنال استحسانا من «الانكشارية»، والأمة المتعصبة أصالة، والمتغلبين الذين لا يرون الا الحال الموافقة لمنافعهم، في هذه الاصلاحات ... كان في الاناضول حكم قاض باشا وعصيان الوهابية، فأقفلت طرق مكة والمدينة، فهذا كله كان لا يبقي على اى أمل فى المستقبل

وكانت اسطنبول والبوغاز نقطة تسلط الشرق، فكان الانجليز يقدمون على تهلكة عظمى وهم يواجهون سلطان نابليون هذا، وفي هذه الاثناء، كانت الدولة العثمانية تقضي أواخر عمرها، اذ كانت اسطنبول معرضة لجميع الاحتلالات المختلفة، وكان «سبستياني» كالصدر الاعظم، يطبق الحكم حسب سياسة فرنسا الشرقية، التي لم تكن وليدة أوهام نابليون وتخيلاته، بل انه منذ زمان بعيد كان «فرنسوا» الاول يريد الاستحواذ على مقدرات الشرق، وبهذا كان نابليون الآن يمثل تماما عنعنات الماضي هذا وتقاليده العريقة لفرنسا، وكذلك كانت تقدمات روسيا نحو اصطنبول من «الطونه» مستندة على عنعنات التاريخ الروسي، اذ أن اسطنبول كانت بالنسبة الى روسيا منبعا غنيا جدا وفياضا منذ ماضيها الذي فيه اعتنقت «الارثودكسية» وادركت أن المدنية كلها من «بيزنطا» وحتى «ستاتوس» روسيا يقول في كتابه الذي قدمه الى الامبراطور البحار والولايات القريبة من مضيق البحر الاسود هي هكذا مراكز طبيعية توجه جميع الطرق التجارية نحوها، فاذا ملك الروس هذه الاماكن، فانهم في الحال يخضعون لانفسهم تجارة العالم».

فبناء عليه، اذا كانت الروسيا مع فرنسا ستعقدان اتفاقا في مسألة الشرق، فهذا سيكون تهلكة عظمى لانجلترا، وكان في ذلك الزمان سيساق الجيش الى ايران والاناضول، وكانت ثروة انكلترا في الهند ستذهب من يدها،ولهذا فانه في ذلك الوقت كان نابليون أعظم عدو لانجلترا، فكان كسر حركة نابليون نحو الشرق أمرا لازبا، اذ ربما لا يعبر الروس «الطونه» ولا يقع أي شيء له جدوى، وبذلك يكون عبور الاسطول الانجليزي من المضيقات لابد منه.

ولهذه الاعتبارات فان السفير الانجليزي كان قد راجع الباب العالي مطالبا اخراج «سبستياني» من اصطنبول وترك اقليم «افلاق» للروس، حتى يعقد الصلح العام بينهم، ولما رفض هذا الطلب بشدة، غادر السفير اصطنبول (39).

وهكذا كانت الدولة العثمانية، في هذا الوقت العصيب، تضلع بمهمة المدافعة للاسطول الانجليزي الجاثم على اصطنبول والروس في الشمال، فكانت هذه المهمة شاقة للغاية، نظرا الى الحالة المالية للمملكة وعسكريتها وحالتها النفسية، فحكومة الانجليز تهدد سليم الثالث، وتقول : اذا لم تمض المتاركة مع روسيا، فان الاسطول الانجليزى سيقتحم اصطنبول. وعلى حين كان الباب العالي منهمكا في المفارضة السياسية، كان سليم الثالث

منهمكا بجد في اقامة الاستحكامات بالبوغاز والمضايق، ولكن هذه الاستحكامات لم تحدث أى خوف يفت في عضد الاسطول الانجليزي، الذي كان يتطاول أمام اصطنبول، وكان يعرض هندامه ملوحا، على حين كان في اسطنبول، قد بلغ أشده ونفذ أمره، كما يصور سبستياني الآستانة والحياة بها كالآتي : ان خوف الاتراك يعجز عنه التصوير، كلهم يريدون، حتى الرقبة، الخضوع واعلان التسليم، على شروط يسيرة، «البطريات» التي رتبتها حتى الآن لما تنجز، وليس هنا شخص له المام بالمدافعة عن المدينة، غيري».

في الحقيقة ان «سبستياني» كان يحكم ساحلي «مرمرا»، ولم ينقطع عن تشجيع سليم الثالث، على حين كان القنصل «كونت بولونيالي» يقيم في اسطنبول، ويصور شهامة سليم الثالث بهذه الصورة : «هكذا في الوقت الذى تلزم فيه شجاعة الشجعان، لاتخاذ القرارات الصارمة والناجعة، لضمان الدفاع، كان السلطان سليم الثالث، يكسب الحق بلفت الانظار وتحسين وضعيته أمام كل الشعوب والامم كل الشعوب والامم فيؤكد فى هذا الصدد انه يفضل ان يصير جثة هامدة تدفن تحت انقاض العاصمة، على ان يرضى بتلك الشروط التى عرضت عليه، فى حماقة».

كان نبليون فى هذه الاثناء يرسل الى سليم الثالث خطابا من «وارسو» يقول فيه : «يمكن ان تتاكد الذات الشاهانية من أننا سنساعدها، ان جيش الروس الآن يفر من أمامي، وقد أزف الوقت الذي تتحكم فيه الدولة العثمانية».

وبينما كان الباب العالي مشغولا بهذه المذاكرة السياسية، كان توغل الاعداء واقترابهم من العاصمة يلهب كل شخص وكانت النساء اللائي في «السراى» قد أرسلن الى «السراى» القديم، وكانت الامة العثمانية كلها تستعد بجد للدفاع عن المدينة، وكان سليم الثالث يعمل بنفسه في الاستحكامات، فكانت «بطريات» المدافع تصفف مقامة على سواحل الاناضول والبلقان، ورئيت أفواه المدافع من مواقعها في السراى القديم (ايسكي سراى) (40) وكان سليم الثالث يطوف كل يوم على الجيش، وفي الغالب ما كان يرى في جولانه، يسير وحيدا متئدا، وفى بعض الاحيان كان يحادث المهندسين، أو فى يده المقياس يقيس به مسافات «البطريات» واحيانا يطوف مع «سبستياني»،،، وكان يقول لسفير فرنسا، وهو مسرور من انتظام الاستحكامات : ايها السيد السفير، ان وجودكم باستنبول أتلقاه

من جانب الحق عناية ولطفا، ولن أنسى الخدمات التي قدمتموها الي، وهي جلى اخرجتموها بجد من القوة الى الفعل، فحققتم بها آمال سيدكم الامبراطور (41).

وفي الحقيقة كانت السواحل قد أحكمت تماما في بحر خمسة أيام، وكان الاسطول الانجليزي، وهو تحت قيادة الاميرال، «دوق وورث»، قد قطع وقتا في المذاكرات، وبعد بضعة أيام فهم أخبرا أن هذا الاسطول الضعيف، سيندق بمدافع الساحل، وفي ذات يوم كان أهالى اصطنبول يشاهدون تحركات الاسطول الانجليزي، اذ كان الاسطول يقترب اولا من المدينة ثم غاب تماما منتكصا نحو عرض البحر، وفي الصباح، بينما كان اهالي اصطنبول كلهم مع سليم الثالث يتطلعون بأبصارهم تجاه مياه مرمرا الزرقاء رأوا الاسطول الانجليزي يجد فى نكوصه، وبعد اربعة أيام كان الاميرال الانجليزي «دوق وورث» يلحق هذا الاسطلول بمكتوبه، الذي وجهه من جزيرة «تنادوس بورجه اطه» (42) يقول فيه : الف شكر لله، نجونا من هذا البوغاز الجهنمي واستطعنا ان نفلت من الخناق بسلام ونفك رقابنا منه».

وهكذا فى هذه الاثناء، فقط، تنفس سليم الثالث نفسا طويلا، وكان «سبيستياني» فى غرور وافتخار، يدخل «السراي» فيعد سليم الثالث، بأنه يوفي كل رغائب أرمبراطوره ويقول : اكتبوا الى عزيزى امبراطور فرنسا العظيمةبأني سأعمل كل ما يلزم لمحاربة أعدائنا المتحالفين : الروس والانجليز.

الآن لم يبق هناك خوف من الانجليز على اسطنبول، واتجه كل نظر دقيق نحو الجيش الذي كان يتحارب مع الروس بسواحل «الطونة»، ولكن فى هذه الجهات لم يكن شيء قابلا للامل فتحقق في الجيش والواقع أن جيش الروس كان فى وضعية شائكة للغاية، فهؤلاء الروس كانوا مضطرين ليدركوا ما يداهمهم من قوة نابليون ببولونيا، فتركوا فى افلاق ويغدان 30.000 جندي فقط ولكن غلبة الجيش العثماني لهذه القوة كانت خارجة عن طوق الامكان، اذ كان الجيش يساق على صورة الاستنفار العام، من البلقان والاناضول الى الطونة امشاجا (بويلرى) فكان هذا العسكر المحروم من التعليم والتربية العسكرية، قد جيش على شكل غير منتظم «درمه جاتمه» وبذلك فكان تدارك الجيش وتقويمه مشكلا صعبا، وكان فى الجيش بعض الافكار المضرة، لها اثر فعال جدا، ففرقة «الانكشارية» لم تكن آمنة من الحكومة لانها كانت مغتمة من هؤلاء «الانكشارية» وما كانت تستطيع أن تسوق فرقة «النظام الجديد» وتضمها الى الجيش، على حين

كانت في اصطنبول أفكار رائجة مضرة كذلك حول «أغا حلمي باشا» الوزير الاعظم الذي كان يتولى القيادة العليا، تاركا بدله في الصدارة العظمى «كوسه موسى باشا» قائم مقامه في اسطنبول، فكان هذا يضر بمحيط الآستانة ويفسده، وكان «النظام الجديد» يلقى نجاحا من أصحاب التجديد الفكرى، على حين كان الشعب بجهل يكره التجديد ويريدون قلع جذور «النظام الجديد» من الاساس، وكان جماعة يريدون ان يستفيدوا من رواج هذه الافكار الجاهلة في الامة وبين رجال الحكومة، فيقفون في وجه الاهداف الاصلاحية من النظام الجديد.

وبذلك كان قد نشأ فساد عظيم في محيط اصطنبول، مما هيأ لعقل مصطفى القابقجي الجاهل وبايد سافلة أن تدار هذه المفاسد التي ستحرم المملكة من الترقي طيلة مائة سنة، وتصيب في النهاية بشقائها سليم الثالث.

كان الجيش بعد ذهابه الى سواحل الطونه قد ترك الحالة باصطنبول معرضة للفتن والدسائس، وكان المسيطر على الافكار وادمغة أهالي اصطنبول رجلان ينضمان الى سليم الثالث بقصر سراى بالديزلى وهما شيخ الاسلام «طوبال عطا» (عطا الأعرج) والقائم مقام «كوسه موسى» (موسى الأمرد) وكان التابعون لافكار هؤلاء الثلاثة وآمالهم يكونون محيط اصطنبول مع جماعة مؤلفة من العلماء والكتاب والتجار والعوام (الحمالين).

وكان سليم الثالث يتصف بلين العريكة، فيتملكه الضعف، وحقا كان سليم الثالث يدرك كون المملكة في حاجة ماسة الى الاصلاحات والترقي، ولم يكن في هذا الصدد يدخر وسعا أو يتأخر عن التضحية مطلقا، ولكن كان يبدأ بالتطبيق دون ان يهيىء له التربية الصالحة ويطعم أفكار الامة بالعلم ويطور نفسية الشعب، فكل هذه الاجراءات كانت لازمة لاجل أن يكون النجاح ممكنا وفي مساعي سليم الثالث هذه كانت تلزمه يد حديدية ومتانة نادرة، ولكن سليم الثالث لم يكن يتوفر على هذه الاوصاف.

كان سليم الثالث حليم الطبع نزيه الفكر مثقفا بالذوق والفن، تغلب عليه رقة القلب ورقاعة الاحساس، فهذه الصفات تسببت له في أن ينهزم امام الواقع والاحداث فلم يكن السلطان سليم حتى في أشد المساعي خطورة، بتلك الصرامة أو الحرص على السلطنة فلم تحدث فيه اي انجذاب نحوها قط، يقول :

سريـر سلطنتـده أولـه غـافـل بـر ان اى الهامي
سكـاده بـاقـي قالماز چونكـه بوبرچـرخ دوانـه

لا تكن غافلا في سرير السلطنة لحظـة يا الهامي
انـه لا يبقى لك لأن هـذه الأرض فلـك دوار

فالملك الذي كـان يحس بفناء السلطنة ويعبر عـن ذلك بشعـره، كـان يبحث عن فناء الحياة فى صورتها، ويعبر عـن ذلك فى تخميس لـه آخـره :

تبقـى الجبـال خـاليـة مـن الخضـرة بطراوة الشتـاء
لا سنبل يبقى ولا خـير (شبو) البساتـين كـان في الخريف
أهل البصيرة يبكـون لهـذه الحالـة بعبارات منهمرة دائمـا
لا وفاء لهذا الفلك، الذي لا يبقى على حال، لمن يربط به قلبه
فهل الآتـون لـدار الفنـاء يظنونهـا لا تـذهب (خـالـدة)

وهكذا يتراءى لنا السلطـان سليم، وقـد انتهى الى هذه الدرجـة مـن الانهيار، تمثلها في الحياة والسلطنة، فكان يحس باضمحلال الوطن أيضا، وكان يريد أن يفهـم جماعته المحيطـين به هذه الحقيقة، في قوله :

استقظ من نوم الغفلة لأن الملك مضمحـل

كان سليم الثالث من الذين يقفون حياتهم على ادراك رقي المدنية وحاجـة المملكـة العثمانية اليها، فكـان سليم الثالث يكرس تفكـيره على محو الوحشية المنسوبـة الى العثمانيـين من الافكـار ويعمل على ذلك جاهدا، وكـان سفراء الدول العظمى يقفون تمامـا على هذه الحالة التي تشغل فكر الملك، وحتى في الوقت الذى أعلنت فيـه الحـرب على الانجليز، كان «سبستياني» قـد استفاد مـن هـذه الحالة الفكرية التي كـان عليها الملك، فقال : ان حبس السفـير في «يـدى قولـه» سيكون غـير ملائم لمقتضيات المدنية ،،، ومنذ ذلك التـاريخ، كـان تقرر أن ترفـع مـن تركيـا عـادة حبس السفـراء للـدول المحاربـة.

نعم : كـان سليم الثالث، بهذه الصفة، منجذبا الى أفكـار الغرب ولوازم الترقي فيه، وكـان رجال حاشيته يتحركون وفق أحاسيس الملك، فكان هؤلاء مقتنعـين بأن الاتـراك، طالمـا لم يقتبسوا ترقيات الغرب، مما يخدم المصالـح البشريـة ويتوافق مـع الآداب الاسلامية، فـان مكانتهم في أوربا تكون خارجة عن طاقـة الامكان، وطبقا لهذه العوامل، فانهم كانوا يغتمون مما عليه المملكـة والكيان العثماني المضمحل بكيفية متدرجـة.

والحق أن بضعة انهزامات آنذاك كانت توقظ تحسرا أليما في الادمغة التي اعتادت أن تتذكر مناقب الظفر والفتوحات القديمة، فكانوا يحسون تماما بهذه الجروح، مقارنين بما كان عليه العصر من سنوحات أدبية وحضارية، فكانوا مع سليم الثالث متاثرين من اضمحلال عهدهم، وكانت تاثراتهم هذه تفصح عنها اشعارهم :

البلابل تشدو والورود تتفتح ولكن لا قلب ينشرح

اننا لم نر فصل الربيع هكذا قط ؟

كانوا يريدون أن يترجموا عن احزان العصر بتألماتهم هذه، ولكن فيهم كان كثيرون لهم عقول غير مستعدة لاجراء الاصلاحات في البلاد، فكان هؤلاء لا ياخذون بعين الاعتبار، قطعيا، الحالة الروحية لـلامة وآخرون كانوا يريدون هدم التقاليد (العنعنات) من الأساس الذى دامت عليه منذ عصور خلت، وخصوصا أولئك المغرورين الى أقصى حد بالعلوم والمعارف العصرية فهؤلاء، كانوا يثيرون حدة المخاصمين ويهيجون غضبهم، وبذلك كان وجود شبان مغرورين على هذه الصورة، لدى الحكومة، كان موجب اغتمام قدماء الرجال وتصلبهم، على حين كان قسم منهم قد سحب يده من العمل فى الحكومة، وقسم آخر كان مضطرا الى الالتحاق بالزمرة الجديدة ليحافظ على مصالحه الخاصة.

وبذلك كان القائمون على الاصلاح أغرارا لا يهتمون بالراى العام، فكانوا تهلكة عظمى للمملكة، كما كان كثير منهم ينهمك في جمع الثروات مستفيدا من الفرص، فينشيء القصور الساحلية المزدانة، ويشيد الدور الفخمة، بالرشوة والسفاهة، التي كانت قد وصلت الى الغاية القصوى، فكانت عوالم داخل «البوغاز» في الليالي القمراء تتجاوب وصفاء «التقسم» والانغام الموسيقية فهذه كانت تنبعث ثقيلة على أولئك المحافظين من رجال الحكومة، وكان أولئك يمضون أيامهم في العشرة والعيش الهنى، يفضون باسرار الدولة التي كانت في الصحف الاجنبية (43) وكان رقي الموسيقى يسكر كل رجال الدولة، ولكن فى هذا السكر كانت الثروات تدخر وتستهلك، لدرجة أن بلغت مصاريف مطبخ لأحد رجال الدولة فقط 40.300 قرشا، كما كان عبيد الدولة يغرقون في الثروات بسبب «الالتماسات» المتعلقة بهم «والحمايات» المنوطة بهم.

وبالجملة، فان احداث «النظام الجديد» وتأسيس المؤسسات المدنية في المملكة، عادة ما كان يشكل ذلك محيطا لتأمين «الذوق» والسفاهة الداعرة، وكان رجال الحكومة مسئولين عن هذا الاسراف والفخفخة الحمقاء، على حين كان الأليفون للهو والذوق كثيرا ما يحدثون تاثيرا سيئا في الأمة التي اعتادت حتى ذلك الحين حياة مخالفة، وكان كثير من المفكرين يدرك نتيجة هذه الحركات آنذاك لهؤلاء الوزراء ولكنهم لم يوجهوا أهمية بالمرة للافكار العامة، فكان كل واحد من أركان الدولة، يجد في «السراي» لنفسه محسوبية تخدمه وبذلك كان يحكم مواقعه على هذه الصورة، ولم يكن السلطان سليم يمكن من ان يدرك حقيقة ما بمعرفة هؤلاء الرجال المحيطين باطرافه، لدرجة أن كانت اقوال القرناء المداهنين تغفل وقوع الحوادث المهمة لسليم الثالث، وكانت غيرة والدة السلطان تمنع الأخبار أن تصل الى الملك وكان ضعف سليم الثالث يستولي على طبعه ويسلك سبيلا لا يدرك ما يحيق به من تعصبات الأمة التي تصطدم بها مساعيه الاصلاحية، فكان من ناحية يجلب الضباط المعلمين من أوربا، ومن ناحية اخرى كان رجال الدولة قد تفرنجوا جميعا، حتى أصبحت حركاتهم مفرطة في هذا الباب، فكانت تلك المساعي تؤخر عن غايتها وتصبح عقيمة بالمرة في نتائجها، وكان رجال الدولة يرتكبون الاعمال التي تعد كفرا في الشرع، فكانوا بهذه الصورة يحركون تعصب العلماء والجهال، على السواء، فهذا التصرف من رجال الدولة الذين لا يدركون بلباقة، حتى القواعد الاسلامية، كان موجبا لاغبرار هؤلاء الناس من الشعب، الذين لم يقصروا عن محبتهم وابراز خدمتهم لسليم الثالث، على حين كانوا يصبون اللعنات على رجال الدولة.

كان لسليم الثالث اعتقاد عظيم في «الزيج» وآثاره، وما يحضره «الحكيم باشي» من أوقات يختارها (حسب الطالع) فكان هذا يجيل «موري» الساعة ويضبطها بما يختار من أوقات، وكان فيما مضى يقول : «ان حفيد مصطفى الثالث سيفتح العالم» فنقل ذلك الى سليم الثالث، وهو ما زال أميرا، فلما تملك سليم الثالث، صار يعتقد اعتقادا جازما بأنه سيفسح عالم الغيب، بهذه الآمال الخيالية، التي حاول تحقيقها بوسيلة احداث «النظام الجديد» ...

وهكذا كان مدار التشجيع للسلطان سليم يدور بهذا الفلك، ولكنه لم يحدث شيئا مضافا الى تلك الاوصاف التي كان الملك متصفا بها، فان السلطان سليم كان بطبعه عاجزا، وحتى القوة التي كانت طوع يده كان يتردد في استعمالها، وخصوصا ما كان عليه من عدم الاستقرار الفكري وتلون

مزاجه وحرمانه من العزم على تحقيق مرامه، وكان استبداد الوزراء ولطماتهم لآمال الامة، كل ذلك كان سببا لبقائه في الحضيض، فكان وزراء السلطان سليم الذين كانوا قد وقفوا على ضعف الملوك وطباعهم، لا يتحركون لانصافه بل كانوا بدل ذلك يستخفون بالرأي العام ويغلون على «النظام الجديد» فيزيدون في الخراج ويبعثون المظالم في التحصيلات وهم متهالكون على «الذوق» والسفاهة...

وفي اصطنبول كانت فرقتان تتحركان ضد الحكومة، العلماء والانكشارية. فالعلماء كانوا يتذرعون بكون رجال «السراي» يستهترون بالدين، ولكن في حقيقة الامر انهم لم يكونوا يوافقون على نشر العلم والفن بالمملكة، اذ كان تسرب الحقائق العلمية والفنية الى ادمغة الشباب يدفعهم الى اصدار الفتاوي بصفة صارخة، كما أن قسما منهم كان يريد أن يتحكم في رقاب الناس بوسائل جبرية، كل هذا كان يصيب العلماء بمصيبة تقوم على التعاظم والكبرياء، أما الانكشارية فانهم كانوا يتوسلون بوسائل عظيمة جدا، يستعملونها للنيل من الحكومة، لان احداث «النظام الجديد» كان ضربة قاضية لحياة الانكشارية، واجبارهم على التعليمات العسكرية كان يثقل عليهم جدا، وهم يمضون أوقاتهم في التجارة يتنقلون بها هنا وهناك، وكثير منهم كان يعتبر هذه التعليمات مخالفة لتعاليم الاسلام، حتى انهم كانوا يقولون : ما لزوم هذا العسكر الجديد ؟ ان جيش آل عثمان صير الدنيا مفتوحة له بالسيف فليظهروا الآن لنا العدو حتى يروا كيف نسحق هذا العدو، اننا سنجعل تاج الملك وعرشه يخطران على رأسه، وتتقدم الى التفاحة الحمراء (الجنة).

وهكذا، ولكن النقطة التي تؤخذ بالنظر الفاحص كانت اساسا المال، وبعضهم كان يرضى بالنظام الجديد، بشرط ان لا يمس المعاش الذي كان لهم، وقسم كان يقول : نكون «روسا» ولا نكون «نظاما جديدا».

فالسياسة الداخلية كانت قضيتها الاساسية ترتكز حول «الانكشارية»، وكان هناك ثلاثة اشخاص في اصطنبول سيستطيعون أن يستفيدوا من هذه الحالة الفكرية للانكشارية والعلماء : الامير مصطفى، وكوسه موسى، وطوبال عطا.

كان الامير مصطفى بالرغم من ضعف عقله حريصا على السلطنة الى درجة متناهية، وكان المتحيزون اليه يطمعون أن ينفذوا بدل رجال السلطان سليم الى الاستفادة من هذه الحالة الفكرية، فلم يكونوا لذلك

يتأخرون عن تشجيع الناس على خلع السلطان سليم الثالث، وكانت من ناحية اخرى اشاعات تحوم حول مرض سليم الثالث واختلال عقله، ومن ناحية غير هذه. فان القائم مقام باسطنبول «كوسه موسى» وشيخ الاسلام «طوبال عطا» يشتركان معهم في افكارهم.

كان «كوسه موسى» سلانيكي، وكان ذا طبع حريص مراء، وكان منهمكا في جمع الثروات، محروما من وشائج الوطن، مصابا بمرض السعي الى الجاه، لدرجة متناهية، وكان «كوسه موسى» يظهر المتعصب «للنظام الجديد»، ولكنه ما وصل الى مراكز الرفعة، حتى عزم على ان يسحق منافسيه، واحدا فواحدا، وكان موسى باشا مغرورا وشخصا «حولا قلبا»، ولشد ما كان يعمل بشرايين الحرص على الثروة، وكان الوزراء والقائمون مقام، في ذلك الزمان، بالصفة التي تمكنهم من النفوذ العظيم والصلاحية المطلقة وكان سليم الثالث يمكن مجلس الوزراء من هذه الصلاحية، ولهذا السبب فانه اثار عداوة «كوسه موسى»، وكان الذين لا يتحملهم «كوسه موسى» اثنين : ابراهيم كتخدا، و «دفتر دار» للنظام الجديد، حاجي ابراهيم افندي، فكان «كوسه موسى» يغيظه نفوذ هذين الرجلين عند سليم الثالث، فأراد أن يستغل الحالة النفسية للعلماء والانكشارية، حتى يخلع الملك، اذا لزم الامر، ويركس هؤلاء جميعا.

اما طوبال عطا، فانه لم يكن اقل من «كوسه موسى»، حيلة ودسيسة، وكان تلميذا لمترجم «سير كبير» (أي السيرة الكبرى النبوية) متيب افندي وكان هذا التركي مالوفا بالاهانة والازدراء، فكان تلميذه هذا ذكيا، الا انه كان مقرونا باهانة شيخه المترجم، فكان بالرغم من العلم والفضل محتالا دساسا، ولم يكن شيخ الاسلام، الملازم لسليم الثالث، يجب ان تدخل الى المملكة الافكار الاوربية، وكان يتخذ مظاهر الحقائق المجردة، ويتشبث بالمعلومات التي لا تتعدى اشكال الاحكام الاسلامية، التي اصابها التحريف ولا تستند على حقيقة صادقة للعلماء وكان يعلم أن هذا المظهر سيمحى، وان لا اثر سيبقى لنفوذ العلماء ولهذا السبب فان قلبه كان يضطرم بالعداوة العظيمة لسليم الثالث وبذلك كان طوبال عطا وكوسه موسى، قد وضعا أيديهما في أيدي بعض، وقررا أن يحرما الدولة العثمانية من المؤسسات المدنية.

لقد كان طوبال عطا يرغب في خلع الملك الذي يريد كسر نفوذ العلماء، بهذه الفنون الجديدة، وكان «كوسه موسى» يريد أن يزيل منافسيه من الوسط الذي يضمه، حتى يستطيع وحده جمع الثروات، وأن يعصب رأسه بحرية، في ادارة ملك جديد، فينمي نفوذه (44).

وبعد أن اتفق حفيد «فيض الله افندي» الدساس مع السلانيكي موسى باشا، على تحطيم ما حصلت عليه مساعي السنوات كانت الاشاعات تروج فتبعث الفوضى وتثير الهيجان في اصطنبول، فكانوا يوالونها واحدة بعد اخرى، فمرة يقولون، ان القصد من سفر سليم الثالث الى الطونة كان موجها نحو سحق الانكشارية، ومرة اخرى يشيعون ان الملك سليم الثالث، خرج للسلام بلباس «النظام الجديد».

اما سليم الثالث فلم يكن يعلم شيئا عن هذه الفتن، فكان مخدوعا بتلبيس حاشيته المحيطة به، معرضا لكل التهلكات بالدسائس التي كان «طوبال عطا» «وكوسه موسى» يحيكونها يدا بيد.

وبعد سوق الانكشارية الى حدود الدانوب، كان فريق من الجيش قد أحضر من الاناضول، فتكون فرقة «لاز» (45) العظمى تحافظ على قلاع «البوغاز»، وكانت هذه الجيوش ستنضم الى فرقة «يماق طابيا للر» (46) الكائنة في «البوغاز»، على هذه الصورة من التبعية للنظام الجديد، الذي كان معسكرا في جوار البوغاز، وكانوا سيلقون معهم التعاليم العسكرية فيتمرنون متحدين، كما أنهم كانوا سيتقاضون مشهرات (47) النظام الجديد مع «اليماق»، ولم يكن سليم الثالث يتصور وجود محذور في ان تعطى هذه الرواتب من خزينة «النظام الجديد»، فبمهارة بسيطة وببعض هدايا في المناسبات الوقتية كان غرض سليم الثالث يمكن ان يتحقق ولكن كوسه موسى، كان وضع اساس الفتنة التي رتبها لافساد مساعي الملك هذه، وكان كوسه موسى يدرك عداوة «اليماق» للنظام الجديد، واستغلالا لهذا الموقف كان يحاول ان يحدث عصيانا خارج اصطنبول، وكان يقدر أن هذه الثورة ستمتد الى اصطنبول أخيرا فكانت المراسلات جارية على قدم وساق وقد وجه رجلا الى «اليماق» في هذا الصدد، موعزا اليهم أن لا يختلطوا بعسكر يلبس ملابس الفرنج، ولم يكن «اليماق» يفكرون في شيء غير السطوة والمنفعة في ذلك الوقت، بل كانوا يقولون : نحن عبيد وأبناء عبيد «انكشارية» أبا عن جد، فنحن لا نلبس لباس النظام الجديد، وقرروا فيما بينهم بعد ان تشاوروا أنهم سيمانعون في كل اجراء يلحقهم «بالنظام الجديد».

في هـذه الاثناء كان الياس راغب باشا الشامي، الذي كان قد عين لولايـة «قرمان» قـد البس أفراد معيته ملابس «النظام الجديد»، وباخلاص صرف هكذا، شاعت اشاعات تبعث على الفتنة، فتقول : ان الملك لاجل أن يعمم النظام الجديد في كـل الدنيا (المملكة) أمـر راغب باشا بذلك (48)...

وبالاستفادة من هذه الفرصة فان موسى باشا اصدر الاوامـر، بالبـاس البسة النظام الجديد، وباعطاء المعاشات للمماق على حـين كـانت تعـرضات اليماق لخليل «خاصكي» وأعوانهم، كانت تشكل مقدمة الفتنة، ولم يكن «اليماق» قطيعـا يريدون ان يلبسوا لباس النظام الجديـد، وبذلك مزقـوا أغـواتهـم (رؤساءهم) اربـا اربـا، ولم يكـد ناظر البوغـاز محمـود أفنـدي يرى هذه المصيبة، حتى كـان يقفز الى قـارب ويسرع الى «بويوك دره» ولكنه في طريقه ادركـه اليماق فـازهقـوا روحـه.

وبهذا كـانت الثورة تعلن عن العلائـم الاولى، وكـان النظام الجـديـد واليماق يشتبكون بعضهم مـع بعض بـروح ملتهبـة، وكـان جيش النظـام الجديد وهو يواجـه جيوش اليماق التي تفوقهم عـددا لا يجد بدا من الانسحاب الى معسكراتهم و «قشلاقهـم» باصطنبـول وكـانت الثـورة التي حدثت في البلقان تسري الى جميع «الطابيات»، فكان الهيجان والغليـان نافـذ المفعـول في كـل الجهـات، ولـم تكـد تشيع وقعـة البوغـاز في اصطنبول، حتى كان كوسه موسى يتملى برؤيـة المقدمـات الاولى لتحقيق رغبته، اذ بينما كـان في امكانه أن يخمد الفتنة بالقوات التي كانت في يـده، فانـه كـان يماطل الملك في ذلك، حينما كـان مجلس الشورى يجتمع مساء عند «الباب العـالي»، وكـان موسى باشا يدعي أن الأخبـار التي انتهت اليهم كـان مبالغا فيها، وأن المرتكبين لهـذه الاعمال سيعاقبون بشدة، واخـيرا أرسل هيـأة الى البوغـاز، لاجـل الاطلاع على حقيقة هـذه الوقعة، الا أن وظيفة هـذه الهيأة كانت في الواقـع تاريثا لنار الثورة، ولـم تكن للتحقق من ماهيـة الواقعـة، ولم يكـن ندمـاء سليم الثالث يدركـون على اختلافهم دسائس كـوسـه موسى، وقـد اسكـر جملتهم الغرور العظيم، حتى ان ابراهيم كتخدا مـا استطاع أن يصدق قطعيا، حينما أنهي اليـه خبـر الواقعـة، وقـال (تلك المقولة) :

ان جماعـة الخذلة مأدبـة للغراب وليست كيانا لـه أهمية

وكان أركان الدولة في أثنـاء ذلك، يحافظون على السكينة في اصطنبول، باغفالات موسى باشا، وكـان البوغاز يتقد بنـيران الثورة، فاليمـاق كـانوا يذهبون الى مرعى «بويوك دره» قريبا من «قـواق» البلقان، بناء على أوامـر

موسى و «طوبال عطا»، من اصطنبول، فكانوا يتحركون بتلك الاوامر التي تلقوها منهما، وكان مرعى «بيوك دره» في غلغلة عظيمة، يزداد فيها عدد اليماق مع الايام، وفي النهاية رأوا من اللازم انتخاب رئيس لهم يسير هذه القوة الجسيمة، ويتولى قيادة كل حركاتهم على اختلافها، فانتخب قابقجي مصطفى «جاويش»، رئيسا لعصيان سنة 1222.

كان القابقجي مصطفى قسطمونيا، وكان الجاويش مصطفى يمتاز بجسارته وتمرده بين اليماق، كما كان نفس الوقت ذكيا مكارا، وكان القابقجي في الواقع سيستطيع رياسة الزمرة الجاهلة والعابدة للمنفعة، وهي في معيته، ولكن ذكاءه لم يكن كل محصوله، في هذه الحوادث، بل انه كان يقوم بوظيفته السياسية، بناء على التعليمات التي تصدر اليه من كوسه موسى وعطا طوبال، وكان يتلقى العون من كبراء القوم مثل «ممش جاويش» وسليمان «بايبوردي» و «الارنود» علي.

وبينما كان رجال الحكومة في اسطنبول غارقين في الغفلة والغرور وكان كوسه موسى وطوبال عطا يقومان بتخدير اركان الدولة في مجلس الوزراء، كان القابجي مصطفى يحدث نفسه بانه سيوفق لهد دولة عظيمة بقوة ضئيلة، ولم تكن ثورة القباقجي لتغلب بقوتها ونفوذها، لولا أن الحكومة نفسها كان أساسها ينتخر، وهي معرضة لكارثة عظمى. وقد خيم عليها الضعف والاهمال.

لقد كان اعداء سليم الثالث والحكومة يستقرون في الداخل، وكان سليم الثالث يعتمد على القائم مقام لاسطنبول وشيخ الاسلام، ولم يكن يفكر أنه سيصبح ضحية لاعتماده هذا وصفاء قلبه السليم، وما كان يدرك أن الحلم والشفقة في السياسة ليس شيئا سوى الانتحار.

كانت قافلة القباقجي مصطفى تتلقى الاوامر في مرعى «بيوك دره» فكانت اوامر كوسه موسى وشيخ الاسلام تبلغ اليهم واحدا تلو آخر، ثم كان يبحث عن الشروط التي ستعرض على الملك، معلنة على رؤوس الاشهاد، وحسب القرار الذى اتخذه القابقجي واعوانه : ان لا تمس اموال أو أعراض أحد من المسلمين او المسيحيين، ان لا يتخذ شيء بدون تصديق باب المشيخة، وكانوا يجتمعون في «آت ميداني» (49) ولن ينفصل عنهم اى شخص ما دامت رغائبهم لم تاخذ مكانها (لم تتحقق) وكان الثوار يقسمون على صورة متلألئة، لضمان رغائبهم هذه، فكانوا يقفزون على السيوف ويقبلون الأنعام وفي هذه

الاثناء كان كوسه موسى دائما يماطل سليم الثالث، ويتكلم في طلب «اليماق» فيقول انهم يطلبون العفو، وأنهم سيتفرقون في الحال، ومن ناحية اخرى، كان يسهل للعصاة دخولهم الى اسطنبول، ويبعث للتحقيق في أعداء النظام الجديد صورة ظاهرية، أما في الباطن، فانه كان يشجع الثورة بكل قوة، مثلا كان «مصطفى قزانجي» قد أتى وقد عاق تحركاته أحداث النظام الجديد، فأرسل الى البوغاز لاسكات الأشقياء، وأعطيت له تعليمات سرية، خاصة به، فكان يامر بانسحابات النظام الجديد الى الثكنات لاشعار مصطفى أغا في ذلك الزمان (50)، بان رجال الدولة كانوا يظنون أن رغبة الاشقياء قد تحققت، فكانوا يشتغلون باللهو والراحة مخلدين الى قصورهم، ولم يكن شيء يزحزح اعتماد الوزراء واطمئنانهم، حتى ان سفير اسبانيا كان قد أدرك مقصد القابقجي، فأخبر بالكوارث التي ستصيب الباب العالي (51)، أما وزراء الدولة فكانوا قد بينوا أن المسالة لا اهمية لها، وأن الهدوء والنظام سيعادان عن قريب (52).

وفي يوم 29 ماي كنا نجد القابقجي مصطفى يسير نحو اصطنبول، مع اعوانه و «يماقه»، وكانت هذه القافلة تضم 400 أو 500 رجل، ولكن هذا العدد كان يزيد كلما تقدمت نحو الساحل، اذ كانوا يدخلون في عدادهم المتوهين الذين يصادفونهم بالطريق، وكان القابقجي يتردد كثيرا في حركته هذه، كما كان كل الاشقياء يهابون جيش النظام الجديد، ويتحامون أن يجدو أمامهم مفرزة صغيرة منه، وفي الواقع لو كانت ظهرت فرقة صغيرة من جيش النظام الجديد، لكانت تسحق هؤلاء الاشقياء، ولكن ترتيبات كوسه موسى كانت تكف الحكومة عن اخماد هذه الثورة، وبذلك جعل كل الاجراءات منها عقيمة.

وعلى حين كانت جيوش القابقجي العاصية، تزحف نحو اصطنبول، كان كوسه موسى وطوبال عطا والمتحيزون للأمير مصطفى لا يفتأون يهيئون الساحات الملائمة للعصاة في المدينة، خصوصا الخواجه منيب أفندي مترجم «السير كبير»، وتمليذه طوبال عطا، اللذين اشتركت مساعيهما فاتخذا نفوذ المشيخة آلة للشقاوة والتمرد اذ كان منيب أفندي يبعث مندوبيه الى اليماق، ويسهل حركات القابقجي مصطفى، حتى يتقدم فلا يرى ظلا للمقاومة، وكان المنادون يتقدمون أماما، صائحين :

يا عباد الله، ان مرامنا هو رفع بلية «النظام الجديد»، ولا نية لنا غير ذلك، فليكن معنا المسلمون، ومن يستطيعون أن يعملوا عملنا .. (53) وكانت أصطنبول تلك الليلة يخيم عليها السكون، وكان كوسه موسى يتوجه

الى السراى بكامل النشاط، فيخبر الملك باتيان القابقجي، على حين كان من ناحية اخرى يبعث بالتعليمات الى المدفعية، آمرا لهم الا يخالفوا القابقجي مصطفى.

الآن نرى سليم الثالث قد ادرك تماما هذا العمل المدبر، وبدلا من أن يبرز العزم والشدة لاخماد الثورة، فانه أحال على كوسه موسى حل المشكل.

ان ضعف سليم الثالث هذا، كان تهلكة عظمى لشخصه خاصة، وموقع الخاقان العثماني عامة، اذ كان يجب أن لا يتشبث بشيء غير القوة الموجودة لتخليص العرش والوطن، فكان الحفيد الجبان للسلاطين العظام الذين ركضوا في مقدمة الفتوحات والانتصارات في صحارى المجر، وبذلك كان يسلم الى يد الاشقياء مستقبل الوطن والامة، فموقف سليم هذا يعرض الى التهلكة سعادة المملكة وحياة رجال ذوى أهمية جدا.

وهكذا كان موسى باشا، وهو نشوان سرورا من هذا الاستسلام، ياتي الى الباب العالي، في منتصف الليل، ويدعو شيخ الاسلام والرجال الكرام، على حين كان القابقجي مصطفى يطوف بالثكنات، ويتقدم قافلة عظيمة، فكان القابقجي مصطفى يفاوض الانكشارية، فيوفق فى الاتفاق مع رئيس الضرابين (54) واستصحب معه أحسن رجال «الانكشارية»، وبعد أن قوى عديد رجاله بهذه الكيفة، اتجه الى «شلاق قاليونجي» فلم يجد في اتيانه الى القشلاق القبطان باشا (الرئيس) فاستفاد القابقجي من هذه الفرصة، وحرك القليوجيين معه، وحينئذ خف بحماس الى التمكن من رجال المدفعية، وكان المدفعيون أعظم ما يخافه القابقجي مصطفى، اذ كان المدفعيون عدة السلطان سليم، وكان هذا الفريق يشكل أهم ما فى النظام الجديد، كما كان سليم الثالث قد رباه على المحبة العميقة والطاعة العمياء، وكان كوسه موسى وشيخ الاسلام طوبال عطا يجتهدان جدا، في اقناع المدفعيين، ولكنهما لم يوفقا في ذلك باى شكل، وكان هدف الطوبجية مقاومة اليماق بمنتهى الشدة، غير أنه في هذه الاثناء انحلت رئاسة الطوبجية

وكان كوسه موسى باشا يعد بانه اذا أعان أى شخص من «الجوربجيين» (55) هؤلاء اليماق، فانه سيعينه فى هذه الحركة، وبهذه الصورة فانه كان يسهل مسعى القابقجي.

ومهما يكن فان القابقجي وفق فى النهاية الى اقناع المدفعية، ووعدهم بأن معاشاتهم وامتيازاتهم ستحفظ، فتحولوا في لمحة بصر اليه جميعا، فكانت أبواب «طوب خانه» تفتح على عود القابقجي مصطفى، ولاجل تحريك

احاسيس العسكر، فانـه كـان يحتضن الضباط «الجوربجيـة»، والـدمـوع تنهمر من كـلا الطرفـين، مسرة وحبورا، وبذلك نرى القبقجي مصطفى الآن قـد نال كـل مقاصده فأصبح يتقدم قافلـة مكونـة من العسكريـين واصحاب الحرف والعاطلـين والمعتوهـين، متجها بهـم نحـو «آت ميداني» وفي بضـع ساعـات كـان الميـدان الـدامـي، قـد امتـلأ بحشرات متلـونـة، طـافحـة بالهيجان، فمن ناحية كـان الجورباجية والطوبجية ياتون بطناجـيرهم، ومـن ناحيـة اخرى كـان المنـادون ينـادون، وهم يجوبون زقاقا، ليؤمنوا الجمهور، وكانت اصطنبول كلها يغمرهـا غليان وهيجـان الغوغـاء الاسافل الـذيـن ما علموا بالعصيان حتى هرعوا أفواجـا أفواجا ينهبون اموال الموطنـين، فلم تكـن سواحل «جـاردق» و «أون قباني» تـرى مـن القـوارب ومن «غلطـه» و «الاسكدار» لشـدة الازدحـام بأصناف اللصـوص والفلايكيـة والـرعـاع والمحترفـين والحمالين، كلهم يخفون الى اصطنبول ارتالا، ومن ناحية اخرى، كان العلماء يشاركـون في هـذه الحركـة مع صنف «الأغـرار».

وبذلك كان تحت شجرة الجميز العاليـة، في جامع السليمانية، قد أخذ القضاة الكرام مقاعدهم، وعلى رؤوسهم الشيلان وسادة «أفندية» الصدريـن مـع شيخ الاسلام يذهبون الى «اغا قـابوسي» (باب أغا) والعلمـاء الكـرام بجباتهم الواسعة، وطراطيرهم الضخمـة، يطـوفـون بـوقـار في الاحيـاء...

والحقيقة أن جماعـة الاشقياء كـانت قد تأسست باشتراك العلمـاء، وفي الحقيقة أيضا، أن عناصر الفوضى في اصطنبول اتت بهـذه الاضرار وهي لا تعـير نظرا أصـلا للجيش الذي كـان يصادم العدو، على طول الحدود، فكانوا بذلك يفضلون أن يبقى مقـر الخلافـة معـرضا للاستيلاء الـروسي، لاجـل ضمان منافعهم الخاصة، فكـان التحـاق العلماء بقوافل العصيان ذلا للاسلام خاصـة وان حرمـة الناس لعامـة العلماء كـانت قـد جعلت للعصيان ماهية اخرى.

وكـان القابقجي مصطفى قـد اهتدى لطريق الاستفادة من هـذه الحالـة النفسية لـلامة، فكـان يربط النـاس المنحشرين في الاطراف بعمـم العلمـاء ويسحبهم الى طريق الشقاء ولكن لم يكـن العلمـاء فقط هم الملتحقـين بهؤلاء العصاة، اذ كـان هناك غـيرهم من المتحيزين للاشقياء : أصحاب المعرفة والذكاء، ومن رجـال الدولة نفسها، غـير أن اشتراك هـؤلاء لـم يكـن بذلك المظهر من الحد والمنطق، فهؤلاء قـد أباحوا لانفسهـم ان ينتسبـوا لاولئك الاشقيـاء، تامينا للمنفعة المؤقتة، ومحافظة على ثرواتهم ومراكـزهم، مثلا : «كسا كتخدا،

من رجال ذلك العصر، لم يكد يعلم بواقعة القبقجي، حتى كان يحك لحيته، التي هي عبارة عن خمسة او عشرة من العشرات ويهتف بوكيله في الحال، قائلا ومتسائلا :

عجبا، هل يوجد في دائرتنا شخص يعرف القابقجي ؟

فلما علم انه ابن اخت لرئيس المطبخ، امر باحضار «الحريف» الى غرفة «مابين» (غرفته الخاصة) وخاطبه : اني أسلم على ابننا القابقجي مصطفى أغا، وانا معلوم عني عند العموم باني ما شاركت في العظيم او الحقير، واني قد تقيدت باجراء كل ما امر به ولهذا السبب فاني ارجو حماياته، والآن فيلزم تقديم المال ليقوم ببعض مصاريف ولدي...

وهكذا أرسل الى القابقجي ومعيته «طوربين» ـ كيسين ـ مملوءين من الذهب، فلم يكد الاشقياء يرون هذا الذهب، حتى بعثوا بالتحيات والتمنيات الى «كتخدا» قائلين : كسه كتخدا أبونا، فلا ضرر ياتيه منا، وله التامينات (56).

فجلب المحافظة على المركز والمنفعة الخاصة، لاهالي اصطنبول، كان بهذه الصورة ييسر كل الثورات، فلم يكن أهالي العاصمة يحسون باى خجل من الحياة في ظل تحكم الاشقياء، حتى انهم كانوا يشاركونهم في مساعيهم، وبذلك كان حرمان الأمة في مثل هذه الثورات، من استحقار المنافع، ومن متانة الخلق، كل ذلك كان يصور معالم اليمة لسقوط المملكة وانحطاطها الاجتماعي، اذ الحقيقة أن كل شخص كان يفهم ويدرك ماهية القابقجي، واهانته للوطن، ولكن مدار الانتساب الى خائن هذا الوطن، كان يقوم عند الذين يرونه كذلك، مقام الافتخار، فكان يسمع منهم كون القابقجي عنوان الحمية والفداء.

فهذه الحالة الفكرية للأمة، كانت تنمي قوة القابقجي وتزيده قوة على قوة، وكان القابقجي مصطفى يجري التعليمات التي يتلقاها ويطبقها حرفيا، فاصبح الآن الحاكم الوحيد لاسطنبول، القابقجي مصطفى، في «آت ميداني».

كان القابقجي مصطفى، يبعث المنادين الى الأزقة، فيجوبونها ضاربين فيها ويامر بفتح الدكاكين، وكان يشاهد الاطفال المشلولين والاشخاص الذين لا ماوى لهم، يطوفون بالشوارع متحمسين، كما كان أهالي اصطنبول الجاهلون بعواقب هذا الاحتلال المدهش يتقاطرون الى «آت ميداني» وكأنهم يتبرجون في عيد وطني، وما كانوا يستحيون من التفرج على اعدام رجال الامة الاعلام،

فكانت كل جهة مليئة بالباعة والمتفرجين، وكان القابقجي مصطفى يقوم مقام القطب من هذه الضوضاء «الغلية» المركبة من جمع العاطلين والعلماء الجاهلين، الذين لا شعور لهم، وكان القابقجي مصطفى يلقي الخطب على العسكر، وهو يمر أمام الطناجير، التي أقيمت بآت ميداني، الذى كان يغلي بالعصاة (57).

على حين كان كوسه موسى السلانيكي، يعبر لسليم الثالث، عن دهشته من هذه الثورة، ويبعث سليم الثالث ببلاغ (فرمان) الى الباب العالى مخبرا بشدة الموقف. ونرى مثالا جديدا لضعفه في هذا البلاغ الذى يقول فيه :

العلماء دعاة لي، وهم لي أمناء مخلصون، فليعلم شيخ الاسلام والافندية «صدرين» بهذا، وليكونوا ساعين مجدين في دفع هذه الجماعة، معلنين في نفس الوقت أن ملتمسات الجمهور ستحقق، وأن «النظام الجديد» سيلغى ...

هكذا كان، ولكنه ما كان يدرك ان كوسه موسى باشا لن يقنع بهذا ...

حقا ان شيخ الاسلام كان قد ابلغ القاباقجي مصطفى بلاغ الخليفة هذا، ولكن الاسماء التي كان قد أرسلها كوسه موسى في تلك الاثناء كانت قد ابتدأت تعد من جانب القابقجي، ولم يكن القابقجي مصطفى يقدح في «النظام الجديد» ويطالب بالغائه فحسب، بل كان يطالب باعدام أحد عشر رجلا وسائر القرناء، مثل ابراهيم كتخدا، وحاجي ابراهيم أفندي، ووكيل رئيس الكتاب وأمين «ضرب خانه» ـ دار ضرب العملة ـ، وكانت هذه الاسماء كلما قرئت فى الاوساط الشعبية، فكان الجمهور الآتي للتفرج على المتمردين بآت ميداني يذهل، ويتحير فيما عسى ان يصنع ليعبر عن سروره، منجذبا بذوق وحشي دام، وكانوا يكبرون القارىء لجسارة وحماقة هؤلاء الاشقياء، على حين كان المنادون يخرجون الى جميع الازقة، فينادون بالغاء النظام الجديد.

ان ضعف سليم الثالث كان يشجع هؤلاء الأشقياء، فانهم كلما رأوا مساعدة واسعافا لجوا في مطالباتهم، فكانوا يريدون ان ياتوا الى آت ميداني، بطناجيرهم واعلامهم، وكانوا يقولون للأشخاص الذين يعوقون حركاتهم :

«ان دعوانا سينظر اليها بعين الشرع، فليات شيخ الاسلام وقاضي عسكر الى هنا».

وكان شيخ الاسلام بالذات واقفا على ان العمل سيصل الى هذا الحد، فان طوبال عطا كان مشاركا لزميله كوسه موسى في تلك المساعي، فهما في الحال، كانا قد بعثا عريضة الى سليم الثالث، يخبران بمطالب مصطفى قبقجي هذه، وبعد كتابة أسماء الذين وجب عليهم القتل، اول الصحيفة، أفهموه أن «الانكشارية» مسرورون من الغاء «النظام الجديد» الا أن جمع شتاتهم خارج عن الامكان، طالما لم ينفذ اعدام المحررة أسماؤهم، وكان طوبال عطا، الذى يتقلد في عنقه امامة العلماء الكرام، قد ذهب الى آت ميدانى ليجرى العملية مع القابقجي مصطفى، فكانت منصة «تكية» الميدان مليئة بالعلماء اللابسين للطراطير العظيمة البيضاء.

وفي هذه الاثناء، كان كوسه موسى يراوغ رجال الدولة في الباب العالى مع بعض العلماء، وكان ابراهيم كتخدا يقاسي تدبيرا شاقا متاثرا به، دون أن يقضى هذا العمل الى اية نتيجة، ولكن كان على حد قول بعض المعزولين من الصدارة يقول :

«ايها القحاب السفهاء والكفار الخبثاء، لقد صيرتم الدولة في مهب الرياح، والآن تريدون تخضيب لحانا البيضاء دما».

وقد استطاع آنذاك أن يفهمهم أن الثورة قد دبرت، فكانت هذه الكلمات كافية لافتراق المجلس.

ولما كان القابقجي مصطفى مع العلماء ينتظرون جواب الملك، في آت ميدانى، كان سليم الثالث في تاثر عظيم، وكان يكفي ارسال مفرزة لتاديب الاشقياء لو برز العزم واستعملت الشدة، ولكن ذلك ما كان يدور في خلد الملك العثماني بتاتا.

والحقيقة أن ابزار متانة هكذا كانت لازمة في حل المشاكل التي نجمت بعد سليمان القانوني.

لقد كان هذا من نصيب الملوك القليلين جدا، ولكن حفيد ملوك «قوصوه» و «مهاج» كان قد أضاع طبائع المحاربين ذوى العزم، بالحياة التي كان يحياها بين النساء والجوارى في غرف «سارى لوش» فان هذه الحياة كانت قد ذهبت بأوصاف العزم الصادق والخلق المتين الذي كان عليه أمراء الدولة العثمانية، وغيبت قوة دماغهم الفعالة. فما كان هؤلاء الامراء الذين شغلوا العرش العثماني، يبدون أى ميل لاراقة قطرة من الدماء، لخلاص الوطن وترقية الامة، بل كانوا يفكرون في المحافظة على حياتهم،

اكثر مما يفكرون في منافـع المملكـة، وكانوا في كـل عصيان يروجون رغائب ثلـة رذيلة وسفيلـة، خصوصا منهم أمثـال احمد الثالث الذي ما كـان يتأخر عـن اعـدام حتى أصهـاره.

فابراز ضعف الخاقانات العثمانيـة، وانحدارهم الى هذه الدرجة من ضعف الطبـع، ومراعاة شعشعة عـرش فـاض واعتباره فوق كـل شيء، قلـل نفوذ السلطنـة، وجعل صولجان الملوك لعبـة في يـد «الانكشاريـة» وعصاباتهـا.

ان الشاب عثمان، العاهل الفدائي، ذا العزم الفـذ، في بيت آل عثمـان، ما قبـل الاذعـان لرغبة «الانكشارية» ولا لعلماء العصر حينما طلبوا اعـدام بعض رجـال الدولة بطور عالي الجناب مـرا، فانه أجابهم قائـلا :

«أنتم أرباب هذه الفتنة، وأنتم المحركـون،،، أحطمكم قبل،، وهم بعد،»

هكذا أجاب قائلا، اما سليم الثالث فلـم يبرز بتاتا هـذه المتانـة، بـل كـان السلطان يوفي رغبـة القابقجي مصطفى، فـأطـار رجال «مابين» مـن السراي، وكان يرغب أن يعفى عن اثنـين، رئيس كتابه وابراهيم، فقط، غـير ان الملك الذي أراد أن يوقظ شعور المدنية في المملكة، ما كـان يقف متأخـرا عن تضحيته بسائر رجال الدولة، ويبعث برؤوسهم الدامية الى القابقجي مصطفى، في آت ميـدانـي.

أجـل، ولكن القبقجي مصطفى، لـم يكتف بذلك، اذ كـان مقصد القابقجي هو ازاحـة منافسي كوسه موسى عن الوسط الذي فيه، ومن أجـل ذلك فان الانكشارية كانوا يخرجون، زمـرا زمـرا، وكـان يوعد كـل من يعدم أحـدا من الاشخـاص المطلوبـين، بخمسة آلاف قـرش وبذلك حصل في ذلك الوقت بـآت ميداني فوران عظيم للاشقيـاء المتمردين الذين كـانوا يطوفون الازقـة أفواجـا أفواجـا (باحثـين عن فريستهم) أما الذين قبضوا على ابراهيم كتخدا، بوساطـة جواسيس موسى باشا، فقد كـانوا يمزقون جسمه حينما كـانـوا يأتون بـه المسكين الى آت ميـداني، بحقـارات متناهيـة، وأودعـوا نقـوده ومجوهراته يد موسى باشا الغاصبة، ومن ناحية اخرى كان هؤلاء القابضون على ابراهيم كتخدا وهـم يحضرونه الى آت ميدانه، تنبعث عليهـم الـزغـاريـد والصيحات، فلم يكـد القابقجي وأعوانه الذين لـم يتخبروا باحضار ابراهيـم كتخدا، يسمعون هذه الجلبة، حتى حسبوا أن «النظام الجديد» قـد أتى اليهم، فجعلوا يجدون في الهروب متملصا بعضهم من بعض وهم في ذعر عظيم وخـور مفن، فهؤلاء الحاكمون الاشقيـاء في آت ميداني، الذي كـانوا قبل بضع دقائق

يبتغون لهم منفذا للهروب، تراهم عادوا الى انفسهم، حينما علموا أن عصابة الانكشارية، أتت بابراهيم كتخدا، فحلت بقلب كل واحد منهم السكينة، وأجهزوا على ابراهيم كتخدا، وهدأ بذلك روع موسى باشا.

لقد توالت الاعدامات، وكان للانكشارية ساعد قوى فيها، فكان الثوار جميعا يحضرون الى آت ميداني، من يتعلق به الاعراض فيعدم هؤلاء واحدا فواحدا، ويمزقون على مرأى ومشهد من الجماهير المتفرجة، وكان الاهالي وهم يتفرجون، وقلوبهم معهم، على اعدام المواطنين عادة، يشاهدون في ذلك اليوم ما يجعلهم يعدونه يوما ذا شان، يدخل عليهم البهجة والسرور.

وكان بعضهم من شيوخ «الاوجاق» يحاول أن يمنع هذه الحالة، فوفقوا في رفع جبهة الاعدامات، بامر صادر عن قبقجي مصطفى وكان القتل في النهاية وقد جرى منذ يومين، قد رفع في هذه الاثناء، اما القابقجي مصطفى فانه كان في آت ميداني قد صف أمامه رؤوس رجال الدولة الذين أتى عليهم القتل، وكان حكمه يمضى بكل قهر، وكان المتنظرون لامر القابقجي يشاهدون رؤساء العصيان السفلة ويتتبعونهم بانظار التقدير والاعجاب وما رؤى امتعاض أو تفكير لصرف هؤلاء الاشقياء، في شخص البتة، وكان القابقجي مصطفى تزداد جرأته اكثر فاكثر، كلما بدا له هذا التقدير والتبجيل، ثم كان يلغي خزينة الايراد الجديد، التي أسسها سليم الثالث، غير أن ترتيبات القابقجي كانت عبارة عن مقدمة، أما المقصد الرئيسي، فكان خلع سليم الثالث، ولاجل أن يتحقق هذا المقصد، كانت مسالة الامراء تقدم الى الانظار، وكان بحث موضوع المحافظة على حياة محمود مصطفى، من أمراء حميد الاول، شغل القبقجي كان القابقجي، حوالي المغرب، يراجع رجال الدولة، في هذه المسالة، فكان يخبر بأن الجيش الذي في معيته، لا يامن احدا على الامراء، وأنه يريد أن ياتي برجال أمناء، معتمدين من ناحيته، وكان سليم الثالث يرضى بهذا الاجراء، اذ قال في المرسوم الملكي الذي وجهه الى الباب العالي :

«أنا لاذرية لي، والامراء اولادي ونور عيني، واني معاذ الله أن يطرقني أي خاطر او خيال، يتسبب في اضمحلال سلالة آل عثمان الطاهرة، ولا شيء يتوجه اليهم بسوء، فالله لا يرينا تلك الايام، وليطل الله عمرهم».

فكان العلماء الكرام يتاثرون من هذا المرسوم الملكي، غير مستحين من الجنايات التي ارتكبوها، عن مقاصد مغرضة شرهة ولكنهم ما تاخروا عن تعيين «ايغير» الامام ليحافظ على الامراء، وكان تعيين «ايغير» الامام لهذه

الوظيفة، قد أثر جدا في سليم الثالث، لما كان عليه «ايغير» امام من عدم توفر على اهلية او مزية، ومع هذا فقد ارتقى الى وظيفة «الامام» الملكي، بخطبة في اياصوفيا وهو نفسه كان قد تربى في نعمة سليم الثالث، ونما على خبزه، وفي ظله استطاع أن يؤمن وجوده والان كان قد اخرج ما فيه من سفالة ظهر بها لولي نعمته، فكان «ايغير امام» فرحا مسرورا، وكأنه قد نال منصبا عظيما بذلك، فشرع يطوف في غرف السراي، وكانت جراءة «ايغير امام» في منتهى الوقاحة على جاه سيده، فلد جاء الى حضرة سليم الثالث، دون ان يشعر بأى حجاب، وقال له مؤنبا على الخطأ الذي نسب للملك، أنت كاسماعيل باشا، لم تدرك قدر الوزير، فاعتبرت ابراهيم كتخدا مخرب العالم، فأنا من شره، ما انقطعت عن قطع الطرق منذ سنتين، وأنت مع هذا سلمت له الزمام، وما زالت بقية للكلام، وأبرمت اعدام وزير صادق مثل اسماعيل باشا».

فثار سليم الثالث من هذه الوقاحة البالغة، ولكنه دافع «ايغير امام» بلطف قائلا :

«خذوا الأفندي ليستريح»

كان «ايغير امام» يمثل العلماء في القصر، وكان يترجم عن ماهية الطبقة التي هو منسوب اليها، وبينما كانت هذه الحال المؤلمة تجري في القصر، كان القابقجي مصطفى لا يتأخر عن اتخاذ تدابير جديدة.

وذات ليلة كان شيخ الاسلام والعلماء، يظلون بالثكنات، ورجال الامير مصطفى يلتقون مع القابقجي مصطفى خفية وكان اهل اصطنبول يعيشون في انتظار حدث يبدد الاسرار، فكان كل ما يطلبه الاشقياء يوضع في مكانه من التنفيذ، أما الجمهور فكان يفكر فيما سيسفر عنه الصباح التالي، فكان ذلك يواتي كفرجة لائقة بالتفرج عليها،،،

وهكذا في الصباح اللطيف من شهر ماي، والنجوم ما زالت تسحر الانظار، وهي منتشرة فوق قبب قصر «طوب قايو» ومناراته، على حين كانت اصطنبول «وغلطه» في ضباب وسكون، تقدمهاقبب «كوشك بغداد» اللطيفة الظريفة، وهي تتراءى في أحضان الاشجار الفارعة الخضراء، وعلى أطراف القبب والمنارات الرصاصية والبياضية الالوان، كانت ترى تموجات شجر الجميز، وشجرات السرو الزمردية، المعتمة بالخضرة القاتمة...

ثم كان تحت سماء مشمسة صافية، يخيم على الوسط سكون فجيع نافذ المفعول، كان الندى في ذلك الصباح من ماى يحدث بقطراته، قطرات الياس في القلوب، والما داميا، كما قال رجال ذلك الوقت، في تلك الايام المزهرة اللطيفة ن الربيع، لقد كان كل شيء مؤلما : البلابل صامتة، والاحواض فارغة، والرياض خربة، اما الجماهير، فقد كانت تتوجه الى «آت ميداني» زرافات، مسرعين الى الفرجة، التي تتبدى لهم بانتصارات القابقجي مصطفى، وفي ذلك اليوم كان نشاط متزايد ينبعث من هؤلاء الاشقياء، فالقابقجي مصطفى كان يتحرك وفق الاوامر التى يتلقاها، من كوسه موسى باشا، وعليها كان يدير المتمردين حوله، فقد كان القابقجي في البداية يطلب الغاء «النظام الجديد» واعدام رجال الدولة فحسب، لدرجة أنه كان في الدفعة الاولى بآت ميداني، حينما كان يشاركه في مساعيه شيخ الاسلام، اخرج ساعة من جيبه، وقال : ملكنا مثل هذه الساعة، فلكها دائر دائما، في دائرته، ومتى دخلت اليها حشرات من الخارج، فانها تعطلها وتوقف سيرها.

وعلى هذه الصفة، كانت تبرز منه معالم الذكاء، الذي كان ينمو، وكان يكبر مع الرجل، ولكن الان كان قد توجه الى اجراءات اخرى، كانت تقدر في المقياس العظيم، فانه تحت تاثير التشويقات والمحفزات التي كانت تحيط به من جماعته الاشقياء، وحتى اولئك الذين كانوا بالاطراف، كل ذلك دفعه بشدة الى خلع الملك السلطان سليم، فهذه التشويقات قد احدثت في قبقجي تاثيرات عميقة، وبينما كان شيوخ «الاوجاق» الصبوحيون يتذاكرون مع شيخ الاسلام، وكانوا قد كلفوا توزيع الاعمال بينهم كان شيخ الاسلام أفندي، لاجل ان يكون واقف على النتيجة السياسية، يقول : اسال، هل لكم اتفاق مع رؤساء الجيش والقواد، وهل توجد لهم مطالب اخرى، وهل هي بتمامها ؟

وهكذا كان الاشقياء في كل وقت ياتون الى حضرة شيخ الاسلام، أفواجا أفواجا، وبما أنهم لم يكونوا يامنون السلطان سليم، فان بقاءه على عرش السلطنة لن يكون ممكنا، كما قالوا،، فكان قرار القبقجي ومعيته هذا، يمثل الفصل الاخير للفاجعة التي قام بها الاشقياء، ولم يكد قرارهم هذا يصدر عنهم، حتى تقدموا زرافات متجهين نحو القصر الملكي، وكان شيخ الاسلام طوبال عطا ياتي الى «آت ميداني» فيعلن فتواه في الحال بذلك، ويلوث حيثية المقام الرفيع بهذه الحركة (الثورة) التي قامت في وجه «النظام الجديد» وكان نفسه فيما مضى قد افتى باحداثه، مبجلا به أفعال سليم الثالث، ومتخذا

الشريعة اداة لتحقيق رغائبه وما يحرص عليه من منافع، وها هو الان يلصق باسم الاسلام وصمة وذلا، ولكن مثل هذه المواقف كانت قد اصبحت معتادة من العلماء الكرام.

كل شخص كان يستصوب فتوى عطا الله افندي، على حين كان القابقجي مصطفى قد انتهى الى هدفه الذي مكنه من اجراءاته الاخيرة، فكان القابقجي يفهم جماعة الاشقياء فحوى الفتوى التي في يده، ويقول ها هو جناب شيخ الاسلام، قد أفتى بأن السلطان سليم اذا ظل جالسا على العرش، فالملكة لن تتحرر من النفاق، وما دام الدين هو الذي نلتزمه، فهل من اللائق أن لا نشجع شيخ الاسلام ؟ وهل يجب علينا جميعا ـ بعد هذا ـ الاعتماد على السلطان سليم ؟

وبذلك كان الاشقياء والمتفرجون كلهم، من فم واحد، يصيحون قائلين : لا .. لا ..؟

فهذه الحالة الروحية للامة، كانت تقيم دليلا مؤلما على ما كانت عليه من جهالة، وقصور نظر، اذ لم يكن هناك اى شخص يفكر في غده، وسرعان ما كان الاشقياء ـ على ذلك ـ يصيحون قائلين : اذا كان الملك سيبقى جالسا على عرشه، فان ديننا سيمحى من انظمتنا ونندثر، وأعداءنا سينتصرون، فلا نريد ان يكون ملكنا السلطان سليم : عدو الامة ... فليحى السلطان مصطفى سيدنا.

هكذا كان اولئك القوم، وما كانوا يدركون انهم اصبحوا آلة مسخرة لمنافع العلماء والاشقياء وأطماعهم السفلية، وان العلماء العابرين على رؤوسهم، قد هدموا الوطن ومحقوا الدين.

وكان القابقجي مصطفى، وسط صيحات هذا الاستحسان، يزداد غرورا، فاصبح القابقجي مصطفى رئيسا وزعيما «أغا» يمثل رغبات الامة، فالقابقجي مصطفى بين الجماهير، ها هو يتقدم شيئا فشيئا، في طريقه الى «آت ميداني»، على مثال ما كانت عليه عادة السلطنة ...

وبهذه الحالة الفكرية، التي كانت عليها اصطنبول، ووصلت الى درجة جد مؤلمة، كان الشعب وراءها لتامين منفعته العاجلة، يطئطىء رأسه لشخص، واطىء، وفي غير توقف يسلم الميدان لتحكم الاشقياء، بل يزيد فيتحيز للمستحسنين...

كانت اصطنبول، لا تسع كل شوارعها هذا الازدحام، الذي كان في هرج ومرج، على حين كان القابقجي مصطفى يتداول مع العلماء، ويعالج بفكره الوسائل التي تمكن من تبليغ فتوى طوبال عطا. وكانت ساحة «آت ميداني» تغص بأصحاب «القاووق» والعمم، الى جانب الحفاة العراة والحمالين والمحترفين من الجمهور، ومن جهة اخرى كان الاشقياء القادمون قد اجتمعوا في مكانهم، وهم يتشاورون فيما بينهم، في حالة حدة وغضب.

واخيرا كانوا يقرؤون الفاتحة، على مبايعة السلطان مصطفى، وجلوسه على العرش، صاعدة من هذا الجحفل الجاهل المتعصب، كلمة «امين»،، فكانت هذه تتجاوب بأصدائها، مترامية بانعكاساتها، متكسرة على قبب جامع السلطان احمد...

وكان «كوسه موسى» وهو منهمك في تسوية شئون الباب العالي، يشد أزره رجلان يترأسان عصابة الاشقياء في «آت ميداني» القابقجي مصطفى وشيخ الاسلام طوبال عطا، وكان شيخ الاسلام أفندي، يفكر ايضا في وسائل تبليغ فتواه فكان لذلك يتشاور مع القابقجي مصطفى، الذى قال له في النهاية :

ـ انتم، مع ساداتنا العلماء، تجلسون (الملوك).

ولكن طوبال عطا كان يخاف أن يذهب برأسه الى «السراي»، فأفصح عما يعتلج في نفسه، قائلا :

ـ أنا لا أذهب، وحدي، أريد جيشا،،

فقال الاشقياء حينئذ :

ـ كم ؟ خمس مائة ؟ ،،

فأجاب شيخ الاسلام :

ليكن أزيد ،،

حينئذ قالو :

ـ حسنا جدا، فلنرسل معك الفي جندي، والى ان تصلوا الى السراي، تكون عشرون الفا ،،،

وعلى ذلك قر قرار شيخ الاسلام أفندي، بما مكنه الاشقياء.

الآن يتقدم شيخ الاسلام الى القصر السلطاني، وامامه الاعلام مرفوعة، ومن خلفه مواكب تتلوها مواكب، وقد احتل «الانكشارية»، جوانب الباب السلطاني.

وبينما كان «السراي» حالما في سكونه، كان في خارجه الجمهور يغلي وهو في هرج ومرج، وقد سال به جوار احمد الثالث وجوار الباب العالي...

ومهما يكن فقد استمر شيخ الاسلام مع العلماء المصاحبين، يتقدم تجاه الباب العالي، على حين كان كوسه موسى السلانكي يلقى بشاشة الانتصار في وجوه الافكار(58).

ان هذين العنصرين المضرين بالدولة العثمانية المسرورين من الجرائم التي ارتكباها، كان بعضهما يهنيء بعضا، وكانا استعدادا لمراسم الجلوس لرجال الباب العالي، قد جعلا يتخذان الالبسة الديوانية.

لكن طوبال عطا، كان حتى الان لا يقوى على أن يدخل القصر، وتنقصه الشجاعة التامة، لذلك كان يسند هذه الوظيفة الى استاذه منيب أفندي، فلما امتنع هذا من ذلك، حولها على قاضي العسكر للأناصول.

لقد تقبل قاضي العسكر هذه الوظيفة في سرور عظيم، وسرعان ما كان يذهب الى القصر الملكي، بصحبة رئيس الضرابين (للعملة) غير انه لما وجد الابواب مقفلة، عاد على اعقابه يائسا، فأرسل الى «آغا دار السعادة» بذلك، ثم كانوا يوجهون الى القصر الملكي من باب «السبيل البارد» (59) معلنين في مذكرتهم، أنهم لن يتفرق جيشهم، حتى يجلس السلطان مصطفى، على العرش العثماني.

الا أن كوسه موسى باشا، كان غمه يعاوده، وهو ينفذ خطته، ويعالج فتح أبواب السراي، ثم أبواب قصر «أياصوفيا» وقد امتلأت ساحات الباب العالي بالاهالي.

اما العسكر فكان يصيخ الى أوامر تلقى عليه من القابقجي، وأمام أبواب القصر السلطاني، كانت الصيحات تعلو :

«لا نريد السلطان سليم، نريد مولانا السلطان مصطفى،،،»

فكانت هذه الصيحات ترج آفاق اصطنبول، بأصواتها المرعبة «دل خداش» وكان قسم منهم يذهب الى الباب العالي، ويتقدم العلماء ورجال دولتهم، فيمرون أمام «آلاي كوشكي» في وجهاتهم هذه.

وهكذا كان رجال القصر في هذه الاثناء يقتلون، وكان الجمهور يشاهد ذلك متشحين بوشاح المتفرج، تعلو وجههم البشاشة والسرور، أمام هذه الجنايات الفجيعة.

وكانت الزغاريد تعلو شرفات قصر «طوب قابو» وكان القابقجي مصطفى وشيخ الاسلام وكوسه موسى باشا والعلماء يتقدمون جميعا من جهة الباب العالي، وعلى اصوات الجيش الهائلة كانت أبواب القصر يشاهد افتتاحها. وتنفتح «أورته قابو» ويتم كل شيء،، فكان شيخ الاسلام وكوسه موسى باشا يدخلان الى الداخل من «باب السعادة» حيث كانا ينتظرون ورود الملك الجديد تحيط بهما الحيطان المزينة بالقاشاني الازرق والابيض، والمرايا المتلالئة اللطيفة (لخنكار صفسي).

في الحقيقة أنه لما وجهت مذكرة شيخ الاسلام، كان سليم الثالث واقفا في «سنت أوطه سي» فتقدم «أغا دار السعادة» الى سليم الثالث، وسلمه المذكرة محتومة، غير مفتوحة، فلم يكد السلطان سليم يقرأ فحوى المذكرة حتى قال :

(الآية) ذلك تقدير العزيز العليم،،

ثم توجه بكمال الاعتدال الى الحرم «الهمايوني» فهنأ السلطان مصطفى بجلوسه وبارك له سليم الثالث، ولم يبد عليه أى تأثر من هذا الخلع، بل كانت علويته وسيماؤه وصفوة قلبه تلمع في محياه، وحينما كان قد انتهى الى حضرة السلطان مصطفى، كان في غاية السكون والوقار، فحياه قائلا :
العزة والجاه، للملك الجديد،،؟

ثم قال : ان وجودى على التخت العثماني لم يكن مقدرا، ومع هذا فقد عملت دائما بما يرضي سعادة رعيتي، وكانت نيتي كلها صافية وخالصة، ولكن هذه الامة التي أحببتها الى هذه الدرجة، والتي أردت أن أعيد شرفها القديم اليها، ها هي في النهاية قد رجفت ضدي، وما دامت لا تحبني، وما دمت اني لم استطيع أن أحقق سعاداتها، فها أنذا أترك العرش والسلطنة وأبارك جلوسكم من كل صميم قلبي، لاني متيقن انكم لا تتأخرون عن خدمة هذه الدولة ورفع شأنها (60).

كان السلطان مصطفى طائش الطبع ضعيف العقل جدا، وكان الحرص على السلطنة قد استهواه وتمكن من مشاعره، ولهذا فانه كان يسمع نطق السلطان سليم، بكمال البرود والاهمال، فقابله بصفة فاترة وهما يحتضنان،

وكان السلطان مصطفى، أساسا، قد هيأ لهذه الحادثة كل احتراس، أما الآن فقد غمره السرور جدا، وهو منته الى اقصى امله، غير مهتم مطلقا بحالة سليم الثالث والطور الذي وصل اليه.

واما سليم الثالث فقد ابتعد عن جانب الملك الجديد، وركن الى محمود شهزاده، اخيه الامير الذي كان قد انقطع للهو الشباب، على حين كان السلطان مصطفى يخرج من الحرم الهمايوني، ليستقبل التبريكات من «اغوات الأندرون» ومن كوسه موسى وطوبال عطا، وكانت هذه يتلو بعضها البعض من غرفة «الخرقة الشريفة»، وامام «باب السعادة» كان العرش قد نصب، وقد استوى عليه مصطفى، وهو على عرشه كان يتقبل بيعة القوم وينعم بسرور الاهالى وفرحتهم، وهم يؤدون رسوم السلام الذى كان بعد ذلك بقليل يؤدى في جامع أياصوفيا، وتصل اصداؤه الى عنان السماء.

ومهما يكن فان الحالة الفكرية لاهالي اصطنبول، كانت ستدمي ارباب الحمية، وكان الذين يدركون نتيجة الاحوال ينظرون بتأثر الى مهوى سقوط الامة ودركها الاسفل، اما الذين كانوا دمويى القلب، ماخوذين بعظمة السلطان مصطفى وتحكم القابقجي، فانهم ما كانوا يظهرون مطلقا أي امتعاض أو يشعرون بأى انقباض، بل كانوا ينتظرون الامل يتحقق والانتقام ياخذ مجراه، في المستقبل وهم يتلهون :

رأس مال السهم آهة تنبعث لنفوذه من الروح

لقد شاهدنا في هذا الميدان كم فارس به يجول

كان جلوس السلطان مصطفى الرابع، قد اعلن بصورة آخذة براقة فكانت من ناحية المدافع تطلق قذائفها، والمنادون يصيحون أفواجا أفواجا، وكانت جماعة القابقجي مصطفى تعلن أنه لن يحدث في الميدان أي حدث مكدر، وان النظام والسكون قد استقر في نصابه، ولكن من ناحية اخرى، فانه ما زالت في الميدان أفعال دامية ترتكب وهي نافذة المفعول، فالقابقجي الذي كان قد أجلس الخاقان العثماني على عرشه اللامع البراق، كان حاكما لمقدرات الامبراطورية العثمانية، ولم يكن قد بقي اى تفكير فيما عسى أن يواجه من تهلكة أو مقاومة، وكانت الكلمات التي القيت لتخدير الاهالي وتشجيع عساكر مصطفى القابقجي، قد أحدثت كل التاثيرات المرجوة، فلم يكن احد يفكر في مصيبة الوطن وفي أحوال الجيش، ولا في مقصد الاشقياء الذي كان خلع السلطان سليم الثالث، واسقاط الوزراء والاقتعاد في مكانهم، والتعيش على

عاتق الامة المنقادة لكل النزعات، والمجدولة بسواعدهم لتامين منفعتهم الشخصية، فكان هؤلاء الوفين للمذلة والمحكومية المتسلطة، في سبيل أن يصبحوا على حالة من الثراء والرفاهية.

لم يكن القابقجي مصطفى يخشى «النظام الجديد»، فان رئيس العصيان لسنة 1222، هذا الغادر، كان قد صير «النظام الجديد» ملغى من أساسه، ولكن الثكنات مع هذا كانت مليئة بعسكر النظام الجديد، وكانت فيالق النظام الجديد ينتظرون الى مجرى الحوادث، وهم منتظرون للاوامر تصدر اليهم بالتعرض للاعداء، الا ان النهاية اسفرت عن كون هؤلاء الفوضايين قد وفقوا ولم يكونوا قد املوا في اية وسيلة لاقرار السلام معهم، لهذا ابتدأوا يتفرقون شيئافشيئا، وكانت حركة النظام الجديد هذه تسترعي انتباه القابقجي مصطفى بكل دقة، فأرسل مفرزة مؤلفة من رجال المدفعية واليماق والانكشارية الى «الاسكدار» ومزرعة «لوند» فوفق بذلك في تشتيت قوة النظام الجديد.

وفي هذه الاثناء، كان السكون والسكينة تخيم على اصطنبول، وكان اليهود والنصارى في شك من الامر، حائرين في تفكيرهم، لا يستطيعون أن يقدموا على فتح دكاكينهم، اذ كان كل شخص حتى ذلك الحين يخاف من نهب اليماق.

وهكذا كان ذلك اليوم، يشكل فيه «آت ميداني» مركزا لتمرد العلماء، ومضت خمسة ايام منذ يوم الاثنين، وهم لا يستطيعون اطفاء هذه البغضاء بالدماء التى كانت تراق بغزارة.

كان تاريث العلماء لعصيان العصابات المتمردة جديرا بالتفكير الفاحص، خصوصا منهم المحركين العجيبين، طوبال عطا وخواجه منيب افندي، اللذين كانا يعدان من أفاضل العلماء، لذلك العصر، فالشيخ عطا الله افندي، كان قد كتب حاشية على تفسير البيضاوي، وبرز في النظم والنثر، وفى سن التاسعة والاربعين كان قد احرز مقام المشيخة، أما استاذه خواجه منيب افندى، فكان قد الف ذيلا لدوحة المشايخ، كما الف تاليفا قيما فى مجلدين، متعلقا بالعسكرية الاسلامية وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام، بعنوان «سير كبير» والف آثارا اخرى مختارة، باسم فضائل الجهاد، وخلاصة النقول، فى الادب.

غير انهما كليهما ما كانا يعملان بعلمهما، على حين كان كل منهما يعد من افاضل عصره، بل كانا معا يعملان على الثورة والفوضى، مقتنصين للفرص والاغراض السخيفة. فكان خلعهما لملك خادم لافكار وطنه، عنوانا للسفاهة وان تخلصا من رجاله وما كان صنيع هؤلاء الرجال يشكل خطرا على البلاد، ولا كانوا يبرز بهم تخريب المؤسسات العسكرية والمدنية، التي كانت ستكف العدو عن تماديه في تهديد مقر الخلافة، وتخر أساسها، ان علماء العصر ما كانوا يعدون وسيلة من وسائل تحقيق الاطماع وتامين الاحتراصات، وبذلك شركوا مع عصابات الاشقياء، فما كانت البيعة الجديدة تعقد، حتى كان «آت ميداني» آنذاك يفور بالعلماء والانكشارية، على حين كان ابراهيم افندي، قد اعتصم بداره، الى ان اتى به الى الباب العالي يساق وسط التحقير والضوضاء، ويسلم الى الخصم الجاني «كوسه موسى باشا» الذي تظاهر اولا بشيء من حسن الالتفات، ولكنه ارسل سرا بالخبر الى القابقجي مصطفى، قائلا :

«لقد قبض على الحمى الكامنة، فلياتوا ولياخذوه، وليعالجوا تقييده».

وسرعان ما كان القابقجي، آنذاك، يبعث بثلة من الاشقياء الى الباب العالي، فيصطلمون ابراهيم افندي من الباب العالي، وفي الطريق ينهالون عليه ويمزقون جسده اربا اربا وينتفون لحيته خصلة خصلة، ثم ياتون برأسه الى آت ميداني،،،

وكذلك كانت الجنايات والجرائم تتوالى على نسق واحد، وبينما كانوا يلقون بكاتب ابراهيم افندي من السطح، كان وسط الاوباش «خرد وخاش» يتلقفه فيحتز رأسه في الحين ويرسل الى آت ميداني، وكان القابقجي في ذلك اليوم بالذات قد اكتفى بهاتين الجريمتين، وفي اليوم التالي (السبت) كان يعرض هندامه ويخطر في آت ميداني مع العلماء الكرام.

أما الدولة فقد كان نهب مقدراتها قد حل للاشقياء، اذ كان شيخ الاسلام والعلماء يشاركون أفكار الاشقياء في آت ميداني بل كانوا في ذلك الوقت يتقاسمون، مثل الاموال، مناصب الحكومة فيما بينهم، وكان القابقجي مصطفى يجعل من نصيبه منصب «ناظر اغا للبوغاز» فانيط به في الحال، على حين اسندت رتبة باشوية «طوتاجي» اليه بالاضافة، ثم عين لقلاع الاناضول «علي ارناوود، احد الاشقياء السابقين الى العمل في هذه الاختلالات، كما عين «بايبودى سليمان» على «قابودانية سنجاق» قبطانية سنجاق أما أغا

فكان قد طلب ما يزيد على الف قطعة ذهبية، ولكن رؤى هذا الاحسان قايلا في حقه جدا، مقابل الخدمات التي وفاها فقيل له : «ياروحي (61) طلب مرتب مامورية، فاعطيت له حينئذ مائة وخمسون «اقجه» جراية يومية للتقاعد...

وكانت الخاصة والرؤساء منهم قد رتبت لهم يومية تتراوح بين ستة «اقجه» وعشرين الى أربعين، لكل واحد منهم الا أن «سكبان باش» كان قد ادرك أن هذه اليومية بهذه المقادير ستتعسر جدا، ولهذا أفهم الاغوات، ما صار اليه بيت مال المسلمين، وتوسل الى العسكر، خفية خفية، في التخفيف منها، وفي النهاية كان الأشقياء يلجأون الى الغارة الرسمية، وما كاد يصدق بوقعة البوغاز، حتى كان كوسه موسى الذى نصب «كتخدا» يبعث بالاكياس المملوءة ذهبا الى ولد القابقجي مصطفى أغا، وينصب على ذلك أمينا على «الترسانه».

وبهذه الطريقة كانت هياة الوزراء قد شكلت، فكان هؤلاء الاشخاص سيديرون سياسة الدولة العثمانية التي تصمد بها في وجه الدهر، سياسة رجال الاسكندر الأول، ودهاء نابليون الخارق للعادة.

لقد كانت العقول الضابطة لقدرات الدولة العثمانية في حالة يرثى لها، وعلى رأسها ملك مشهور بالطيش العقلي، السلطان مصطفى الرابع، والى جانبه كوسه موسى، وطويال عطا، فالقابقجي مصطفى، فهؤلاء كانوا يشكلون أهم طاقم لسياسة الدولة العثمانية، ولكن القابقجي مصطفى كان صاحب النفوذ الاكبر، في هؤلاء الرجال، فكان المدير لجماعة الاشقياء والمنظم الفعلي لهذه الفوضى والممزق الحق لرجال الدولة عامة، فكانت كافة هذه الافعال تعد أثرا للحمية الوطنية في نظر هذه الامة الجائعة الحريصة، ووقاية حسنة لمنافع بعضهم، وكان القابقجي في آت ميداني صاحب الكلمة، فكل أوامر الاعدام كانت تصدر عنه، ووثائق الاحكام بالاعدام كانت تسلم الى يده هو، ومثلا من ذلك أنه ذات يوم أتوا بوثيقة الى القابقجي، يطلب فيها اعدام جماعة صرافين من اليهود والأرمن، فلما نظر القابقجي في دفتره فلم يجد به هذه الاسماء، سال كاتبه الانكشاري، موجها اليه نظرات الاستفهام، وقال :

— ماذا نعمل ؟ هل نمزقهم ؟

فلما فهموه أن هذه الاسماء أعطيت بعد ذلك لغرض، مزق القابقجي مصطفى الوثيقة، وطرد المحرضرين لها، بكامل التحقير، ولكنه في ذلك اليوم، كان يبحث في موضوع قتل شيخ الاسلام السالف، واسعد افندي لاجل تحيزهم للنظام الجديد.

لقد كان طوبال عطا في موقف حرج ازاء مشكل شيخ الاسلام، وقد جعل أنوار الطبقة النيرة في الامة تطفأ بيد الاشقياء، فكان يمانع بشدة في هذا المسعى. وكان يجعل الذين يوجبون القتل من رجال العلم يوجهون اليه، مما يدل على أن حركة شيخ الاسلام لم تكن منبثقة عن خصومة لهؤلاء الذين أهانوا الشريعة والدين، بل كانت على الخصوص ضد العلم والفن والترقي والمدنية، فالغرض والمنفعة كانا ينسيانهم كل شيء في حق الدين والشريعة (62).

في هذه الأثناء كان سليم الثالث يقاسي، جزاء ضعفه وملاينته، في غرفة بقصر «لوش» وكان لا يأخذ بعيدا عن النظر الدقيق، ما يجرى من نهب في الخارج، وبالرغم من ان سليم الثالث لم يكن ملكا ذا دهاء عظيم، فانه كان على المام بالمدينة وفهم عنها ما حاول تطبيقه في هذه المملكة، أما الآن فحيث ان كيان الدولة العثمانية أصبح العوبة بيد الاشقياء، فقد صار يتفجع لذلك، ويتسلى بهذه الابيات :

نرتوى من اللهو على مشهد الجور
نحن مسرورون بالفراغ من الشغل
ادراك عجلة الأفلاك يكون بالاقتراب منها
ولكننا كقطرات الدموع تقع من الأبصار
هل يليق بالأمة والدولة هذا الوضع الذي لا انسجام له ؟
نحن مجبرون، ياسليم، لتدبر عواقب ذلك ...

فكان يتلى بهذه الابيات (63) غير ان احساسات القلوب الصافية لم تكن تجد لها اي صدى في روح الاشقياء، وكان القابقجي وأعوانه قد أخذوا بأيديهم مقاليد الامة، وأصبحوا غير فارغين من التفكير في عاقبة جناياتهم، بل صاروا يدركون أن اهانات الوطن لن تبقى أبدا بدون جزاء، وأنهم سيستهدفون لنفس الجنايات التي ارتكبوها تماما، وحتى وجودهم هذا كان غير قانوني ولا يقره الشرع، لانهم ما ترأسوا الا بالجرائم والجنايات وغصب الاموال بها، فلوثوا سمعة الامة والدولة العثمانية بذلك، فكانوا

كل يوم ينتظرون الانتقام بعين اسلحتهم، حسا ومعنى، ومن المحقق انهم سينقلبون راسا على عقب، وعلى ذلك كان القابقجي مصطفى وطوبال عطا يفكران في وسيلة للفرار أو النجاة، فارتأيا أن يتفقا على اعلان عفوعام.

وبهذا كان موقف العلماء اهانة عظمى تلصق باسم الاسلام، وكان طوبال عطا وأعوانه قد وقعوا في دماء كثير من الابرياء، الذين ما كان لهم ذنب البتة، ولكنهم الآن يريدون أيضا أن يتخذوا الشريعة آلة للجناية، فكان ذلك اليوم آت ميداني مليئا بالعلماء والقضاة وكان شيخ الاسلام في الطليعة، كان هؤلاء العلماء يجتمعون تحت لواء شيخ الاسلام، فتسطر الفتاوي بعدم مؤاخذة أي فرد من أفراد «الانكشارية» الذين قاموا بتلك الجنايات، وبينما كانت تؤيد ثورة القابقجي مصطفى بالفتاوى والحجج، وكان ذلك يشكل خجلة أبدية باسم مترجم «سيركبير»، كان يبين أن الذي وقع من الجرائم انما ارتكبه أشخاص لم يفكروا فيما قاموا به من أدوار اجرامية حسب أوامر كانوا قد تلقوها من ذي قبل، بسبب هذه البدعة العظيمة التي لم يسبق لها مثيل «النظام الجديد» وكانت ضد مصالح الدولة كنتيجة لاحداث مظالم كثيرة باسم الايراد الجديد، ولكن كل واحد منهم تحت تاثيرات سفاهاته وجلب منافعه الخاصة وحدها، كان يشمل «هؤلاء الكفرة» في الهندام والملابس، وكافة أمورهم، التي كانت قواعد دول النصارى ترجع اليهم، كما كانت أيضا ضد الدولة، وتكديرا لعامة المسلمين وشعورهم، بجهل عظيم «ثم كانت تفهم كون الذي عملوه» كان صادرا عن أغوات للاوجاق العامرة، مجرد اصلاح، وقياما بخالص نية، وعلى مقتضى القانون وموجب الشرع، متسما بالرأفة، ومتفقا مع سائر الاركان التي يقوم عليها رجال الدولة، والعلماء الأعلام فقطع بذلك خيط السيطرة والتبعية لذلك السلطان المشار اليه سابقا.

ومع هذا فان العلماء لأجل تبرير جناياتهم، كانوا يفهمون أن الملك لا يعاتب أو يعاقب أو يلقى ذرة من أذى تاتيه من أى فرد من الأفراد أو الضباط، وكانوا يوشحون بالخط الملكي صدور حججهم.

وفي الحقيقة كان السلطان مصطفى يرضى الاشقياء بالتوشيحات التي كانت الحجج تصدر بها وتطرز، اذ كان يتفضل فيمضي فتاوي شيخ الاسلام، والقائم مقام، عالي المقام، والعلماء الأعلام، الذين كانوا يصدرون الاحكام الشرعية، وكانوا يقادون الى باب «الأغا» بحرمة وتعظيم، يحف بهم

الموكب وتحوطهم الجوقة، وفي يوم تال لذلك اليوم، كانت هذه الحجة قد سجلت في المحاكم الشرعية، وكان منيب أفندي يقرأ فحواها بكمال الطنطنة، ويؤمن عليها واعظ السلطانية بالدعاء، يصل في مراسم الختام الى الرحمن بكل خشوع وابتهال، فهذه الجنايات والدماء والاهانات والغارات واغتصاب الحقوق، كل هذا كان يكتسي رداء من الستر المحمود، وكانت نتائج الجنايات التي ارتكبت والانتقامات التي أزهقت الأرواح والمصائب التي حلت بالمملكة، كل ذلك ما كان ينظر اليه بعين الاعتبار بل كان رجال الدولة يتوسلون اليهم بكل أنواع المساعي لأجل أن يبرزوا شرعية مواقفهم، وفي يوم آخر وكان يوم الاثنين 24 من ربيع الاول، كان بيان آخر يعلن، بمؤاخذة سليم الثالث ورجال حاشيته، ويذكر المصائب والأحن التى أحلها رجال سليم الثالث بالمملكة فيعقبي ذلك العزل والتنصيب والحرمان والاحسان، يلي بعض ذلك بعضا، فكان المتحيزون للقابقجي قد نسوا دماء المظلومين التي أراقوها، وفي ذلك اليوم أيضا، كانوا يهرعون لتبادل التهاني فيما بينهم، وكأنه يوم عيد، ومن ناحية أخرى كان نقل والدة السلطان من القصر القديم الى القصر السلطاني، كما كان مصطفى الرابع يقلد السيف في محفل لذلك، وكان اهالى اصطنبول في نشوة هذه الفرحة اللذيذة، قد آثروا على مهام الامور الذوق والتسلية والنفخ في المزامير.

وهكذا كان السلانيكي موسى باشا، قد جعل الباب العالي في قبضته، وحتى الآن ماكا قد أزاح عنه تعطشه الى الدماء ولم يرتو بسفكها، فكان جادا فى العمل على تامين منافعه المالية والاقتصادية، ويتوسل لها بدماء الشهداء المظلومين، فينهب أموالهم ومجوهراتهم، كما كانت الاموال العائدة الى خزينة الدولة «الميرية» تقع في يد غصبه، ولم يكن السلطان مصطفى يتمكن من الاطلاع عليها، فكان الملك صاحب السلطان الجديد، قد احتل العرش العثماني بقوة سلاح القابقجي، فلم يكن بد من أن يسلم الامة الى أيدى الأشقياء بدون جدل، وعن صفاء خاطر، وبذلك لم يكن السلطان مصطفى يطلع على أى شيء، بل كان يساير كل رغبات الاشقياء، لاجل المحافظة على عرشه وسلطنته.

أما القابقجي وأعوانه، فانهم بالاستفادة من هذه المساعدة كانوا يشتركون في الاستيلاء على المقاطعات، وكانوا يقتسمون القصور والسرايات الساحلية، التي كان يمتلكها أولئك المظلومون الذين أزهقوا أرواحهم، ولم تكن معية القابقجي مصطفى تعرف شبعا لنهمها، سواء في ذلك المناصب والأموال، بل

كانوا يعزلون وينصبون من يحبون، حسب تأميناتهم، وبدون مراعـاة للأهلية أو ممارسة لأعمـال الدولة، وسرعـان ما كـان يبدو عليهم التمرد، يومـا بعـد يوم، مثـلا، كـان يمـاق القابقجي، لم يقتسموا منحـة الجلوس، فمـا كـان منهم الا أن يعزلوا رئيس الضرابـين، في اجتماع لهم بجامـع السليمانية، وكان كـوسه موسى يكون القاعـدة الامـاميـة في كـل هـذه الاشياء ومـن ناحيـة اخرى فانـه كـان مشغولا بغصب أموال المظلومـين الذين استشهدوا، فانتهت بذلك ثـروة كـوسه موسى الى الغـايـة، وكـان جيش الشقـاوة في عصيان القابقجي وحـده، قد أجـرى اليه تلك الثروة، فاكتسب كوسه موسى أمـوالا طائلـة ويسارا مفرطـا، وكـانأهالي اصطنبول يتشحون بوشاح الفـرحـة، لا يمتعضون لهذا النهب، وما كـانت خواطرهم تتالم، وهـم يشاهدون تمزيق أولئك الاشخاص بدون رحمة أو شفقـة فكان الطغيان يبدو لهم حسنا باسـم الحق والعدالة، ولا يدور في خلد أحـد أن ذلك خـارج عن نطـاق الحق، وانـه الجنايـة والغدر بعينه، فكـان كـل شخص يكتفي بالسلامة، ويؤثـر سروره بالنجـاة من تلك المصائب، على أن يصون حـال البلاد من المـذلة والهـوان فاستقبل القـرن الثالث عشر بمصائبه الفجيعة وباستعباد العثمانيـين جميعـا.

لقد كـان تسلط المحدثي النعم داعيـة الى الفـوضى والمظـالـم، وكـان ورثتهم ينهبون، والرشاوى كـانت سائدة المفعول، والعلمـاء الاعـلام الذيـن كـانوا قد أخذوا على عاتقهم الامـر بالمعروف والنهي عن المنكـر، وارتسموا بتعاليم الدين، ما أخـرجوا صوتا ينهى عـن نهب بيت المسلمـين، وينـادي بالرحمة، فظلت اصطنبول في يـد شقـاوة أشخـاص ثلاثة : طـوبال عطـا، وكوسه موسى، وقبقجي مصطفى، وكانت الحجج التى سلمـوهـا الى الملك، تقوم على أساس جاهـل بأحوال الزمـان، فالحجر فيه والجواهر سواء (64)، على حـين سبستياني يوجـه الى نابليون معلومات عـن الملك الجديد، ويقول لا اثـر لمثقـال ذرة من معلومـات سلفه السلطـان فيه، ولكـن ضعف الطبـع موجود فيه، وقد انتهى دور الحكومة ـ هكذا ـ الى نهاية هـذا البيت، وأصبح البيت العثمانى محكوما عليه بالاندثار، على حالـة طبيعية (65).

والحقيقة أن السلطان مصطفى الرابـع كـان غـير مهتم جـدا بالعثمانية، لان الملك الذى جلس على عـرش الدولة العثمانية نتيجة لجنايات القـابقجـي وأعوانه، كـان يحتضن عرش السلطنة بحرص، ويتشبث به حتى المـوت، ولم يكـن يتاثر أصلا من الجنايات التى وقعت فى دور الحكومة، وحسب تعبـير

جودت، فان السلطـان الجديد الجـاه، كـان ذوقـه الوحيد الذي يجده فـي السلطنة، عبارة عـن التفـرج بالقـارب، على صورة متلألئـة، في سواحـل البوغـاز، كـل يوم (66).

وكـان الجيش على سواحل الطونة ينتظر، مشتت الشمل منحط النفس، وكـانت الامة تئن من مضايقة فوق العـادة، والعثمانية كانت تعرض للتهلكـة، ومصطفى الرابـع، ازاء كـل هذه المصائب، كان يسلم الوطن الى القـابقجـي واعوانه، وهو غـير عابىء بما يجري، وكـان يتجول وينتقل من فرحـة الى فرحـة، وما كـان يرى لنفوذ السلطـان حتى فى العاصمة اى أثر، فاليمـاق كـانوا يمزقون رجال قصر السلطان مصطفى، وكانوا يرمون الطبانجيـة على البوستنجيان، الذين كانوا يحرسون باب القصر.

وهكذا كـان الفتور في المملكة مستحكما، بمعناه مـدى الحيـاة، وتحت نفوذ القابقجي كـان أناس كثـيرون جدا يحافظون على مراكزهـم، بـل حتى انتقاماتهم الشخصية كانوا يحرزونها بوساطـة القابقجي مصطفى، مثلا : كان احـد مدرسيه يريد أن ينتقـم من شيخ الاسلام، فكـان يدعو القابقجي مرارا الى اسعافـه ويفهمه أن طوبال عطـا نصير للنظـام الجديد، وتأثرا بتكـرر ذلك، كـان القابقجي يدعو الى قصر أحـد الباشوات، وهناك كـان يقول ان أمـل «الاوجـاق» هو عـزل شيخ الاسلام، وفي النهاية كـان طوبال عطـا قد عـزل، وكتبت بذلك مذكـرة الى والـدة السلطـان، ولكـن شيـخ الاسـلام الجديد «عماني زاده» ما كـان يبلـغ رضى المتحيزين لطوبال عطا، فما كـان من العلماء الكرام الا أن يحركـوا الجيش ويبعثوا بمذكراتهم الى القابقجي مصطفى، متضمنة لاسماء يقـع عليهـا الاختيار، ويذكرون للقابقجي فى هـذه المذكـرة ان عـزل عطـا الله افندى كان بسبب الفتوى التى أفتاها باعدامهم ثـم وفقوا فى جعل رايات العصيان تنشر في جامع السليمانية فى الصباح الثانى، مهددين بهذه الصورة رئيس الضرابـين.

وفي ذلك اليوم كـان كـوسه موسى يسأل عـن سبب العصيان وعن رئيس الضرابـين، فلما أخبر بأن الأوجـاق يكرهون شيخ الاسلام، كـان كوسه موسى، يصرخ ويقول : أيهـا الأغـا، أتقـع هكـذا المسخـرة؟.

ولكن مع هذا، لم تكن ايـة نتيجـة، وفي النهايـة كـان رئيس الضرابـين يخـرج الى حضرة مصطفى الـرابـع، ويقـول للملك الجـديـد السلطـان السكبـان باشـي :

ـ من نصب «صماني زاده» وعزل شيخ الاسلام بدون أن يسالنا ؟.
فيتجرأ مصطفى الرابع، ويقول :
ـ أنا نصبت شيخ الاسلام.
حينئذ يجيبه.
ـ الآن تقع فتنة في اسطنبول، وينبعث هرج ومرج .

وحينما سمع هذا التهديد، كان السلطان مصطفى دون ان يفكر في أن شيخ الاسلام الجديد سيعفى، سيعين طوبال عطا للمشيخة (7 جمادى الأولى).

في هذه الأعمال كلها، كان يحس بنفوذ القابقجي، غير أن رجوع عطا أفندي الى المشيخة لم يكن له تاثير طيب، وكان موسى باشا قد فكر في العواقب والمصائب التي ستنزل على رأسه، وبعد أسبوعين (22 ربيع الآخر) كان قد استعفى متخذا عياه وسيلة لذلك.

أما حمد الله باشا الذى اختير بدله، فما كان شخصا قادرا على ادارة الامور، وكان طوبال عطا قد أدرك أنه لن يدرك اي شيء بدون كوسه موسى، وفي النهاية، وبعد شهر (2 جمادى الآخر) كان قد احضر موسى باشا من بروسه الى «قائم مقاميه» اصطنبول فكان القابقجي مصطفى وطوبال عطا وكوسه موسى، يسيرون المملكة العثمانية حسب مشيئتهم، غير أن أطماع كوسه موسى وطوبال عطا كانت قد بدأت تتضارب، اذ كان مقصد كوسه موسى من خلع سليم الثالث وقتل رجال دولته، أن يدير الحكومة كما يشاء ولا يسال عما يفعل ولكن ممارسة طوبال عطا لبعض الأعمال الآن، كانت تكبت نفسه جدا، وبذلك كان يريد أن ينتقم من مفتي الأنام، فكان كوسه موسى يبحث عن قوة تركس خصمه، على حين كان القابقجي مصطفى قد انتصب أمامه بشبحه المخيف، وهو بين أشقيائه «اليماق».

لقد أصبح القابقجي مصطفى معبودا لعوام الناس، وخصوصا هؤلاء الذين صاروا أصحاب الرتب وذوي الثروات في ظل القابقجي، فما كانوا يستطيعون أن يتخلصوا من تصوير جرائته وحميته، فكان القابقجي قد سخر له القلوب في اصطنبول، وعنت الوجوه لسطوته ونفوذه، ثم نفذ على رأس اليماق الى البوغاز، وأصبح حاكما للمضيقات «بوغزلر» ولم يكن القابقجي مصطفى يمارس أمور الدولة فحسب، بل كان ظاهرا يطيع

الأوامر الصادرة من الحكومة وفي الباطن كـانت قوة الاشقياء في معيته تفرضه على الجميـع، فكـان ارتبـاط هؤلاء بـه دائمـا يشكـل سلاحـا ماضيـا للفرقة التي تكـون الى جانبه وتوجهه، فلو اتفق كوسه موسى وطوبال عطـا على ازاحـة القابقجي من الميدان فـان ذلك يكون في الامكان، ولكـن الاختلاف بينهما كـان العكس يقـوى القابقجي وينمي نفوذه، اذ كـان كـلا الطرفـين يريد أن يجعـل القـابقجي في يـده، ولكـن القـابقجي كـان مالكـا بنفـوذه وذكـائـه للرقـاب، وكـان يدرك جيدا خصومه كوسه موسى وطوبال عطـا، فكان في النهايـة قد رأى : كم يكون ممكنـا ومؤثرا أن يشرك مساعي العلمـاء الذين في معية شيخ الاسلام مـع أشقيائه، فالتزم حينئذ طرف طوبال عطـا.

وبهذه الصورة اصبح نفوذ كـوسه موسى ينهار ولا يزداد الاضعفا، ولكـن كوسه موسى كـان يشعر بتهلكـات أخرى في حالـة تقلص النفوذ الذي كـان لـه، لأن رجـال الحاشية للسلطان مصطفى كـانوا يريدون أن يعـدم سليـم الثالث موسى باشا، فكـان يجتهـد في تاخـير هذه الجناية، لأن الدمـاء المسفوكة في الجنايات، كـان تثـير فيه شعورا بالندامة وتؤلم وجدانـه، خصوصا أن دخول كـل النفوذ الى يـد «المـابـين» كـان يصدم عـزة نفس كـوسه موسى، وحينما كـان يفكـر كوسه موسى في التخلص مـن العمل على هـذه الصورة، كـانت العداوة مع شيخ الاسلام قـد سهلت، كـل رغائبه، فكـان ظهور اليماق الذين هم في معيـة القـابقجي مصطفى أمـام أبـواب القصر، نتيجة لتوجيـه موسى باشا الى «استانكوى».

وكـان القائم مقام الجديد، طيار باشا، الذي فـر الى روسيـا، في عهـد سليم الثـالث، قد عمـل بجـد مـع المتحيـزين الى السلطـان مصطفى مـن ذلك المكـان (67) والآن كـان يتسلم مكافاته على غـيرته، وكـان طيار باشـا ذكيـا خبيثا جـدا، فاتفق مـع شيخ الاسلام ولـم يكن يخلو من الاحتكـاك باليماق المتفقـين مع القابقجي، ولكن في اثناء العزل والتنصيب، كان القابقجي مصطفى وحده يحـافظ على مـركـزه.

ومهما يكن، فـان طوبال عطا والقابقجي مصطفى تعاهـدا، وشرعا في فك أجهـزة الحكومـة، بالحيل والدسائس من ناحية فكان طاقم «السراى» تعمل فيه الرشـا بنشاط عظيم يتمثل في التنصيبات، ومن ناحية أخرى لـم يكـن شيخ الاسلام يقصر في تكديس الثروة، ولكن القابقجي مـع هذا كل أكثرهما حيلا، اذ كـان القابقجي يقنـع بادارة شؤون «اليماق» الملتفـين حوله فقط، وما كان يطلب مطلقا، أي منصب في هيأة الوزارة، فكـان نفوذ القابقجي بارزا

أيضا في أهم التشكيلات الحكومية وأهم أعمالها. وهو على هذه الحال التي جعلت الجمهور يثني على تضحياته وينعطف نحوه، ويشيد بفرط حمية القابقجي ونبل قناعته، وما هو عليه، وكل من كان فى رجال الدولة مطلعا على اعمالها. كان القابقجي مصطفى يبدو له بقناعته مع ذكائه. فما كان يؤمل من أى شخص أن يكون مثله فى أفعاله، ولكن القائم مقام كان حريصا جدا ومسرفا مبذرا ودساسا منافقا، منطويا على روح متملقة وطبع خائن (سويلي) وكان حرصه حينما يبرز يصل الى درجة لا نهاية لها من الاسراف. غير أن القابقجي كان يتفوق عليه فى الامور، فكل من كان يواجه مشكلة تتعلق بالباب العالي كان يتداول فيها مع القابقجي مصطفى. فكان أولئك يعتمدون على وعود القابقجي الحرة (قابادابيجه) كما كان السفراء الأجانب يرجحون رئيس اليماق لمصطفى الرابع ويفضلون سلوك طريقة على المضي فى الطرق الشائكة والمحوقة بالدسائس (طولا مباجلي كوروشويده) مع القائم مقام وأركان الديوان.

وفي الحقيقة انه لم تكن هناك اهمية مطلقا لادارة الدولة العثمانية. فمن ناحية أن القابقجي والأشقياء في نظر السفراء كانوا كل شيء، فلم يكن أولئك يقصون في أن يقدروا أعمالهم الصادرة عنهم، فكان فيهم ضمان لمنافع حكومتهم، مستفدين من رجال الدولة الجهلاء، وحتى الجنرال «سبستياني» نجده قد أصبح صديقا للقابقجي مصطفى، فكان سستياني يتوجه الى قبقجي بكل اعجاب ويشيد بشجاعته الوطنية.

وبهذا كان «سبستياني» يوفق فى استرجاع نفوذه الذي كان له على الباب العالي، قبل سقوط سليم الثالث.

أما نفوذ القابقجي فى اصطنبول، حينما كان مهيمنا على سياسة الدولة ومتسلطا على مقدراتها، فقد كان قائما جدا على الوضعية الجديدة التي كانت للجيش في ثورة اسطنبول كما كان عصيان القابقجي مصطفى قد احدث تاثيرا عكسيا فى الجيش الذي كان يرابط على حدود الطونة، وما كاد مصطفى القابقجي يتوجه الى البوغاز، حتى صدرت الاوامر بسرعة الى الجيش فالاغا الانكشارى من المتحيزين الى السلطان مصطفى، بعزل «أغا بهلوان»، وكان مقصد الحكومة من ذلك منع «أغا بهلوان» من اعلان الثورة في الجيش.

ولكن ما كادت انباء العزل تشجيع في الجيش، حتى كان أغا بهلوان يشير الانكشارية، وسرعان ما ابتدأت الأحداث تتحول مجرياتها وتغير من أهمية الجيش، الذي عمل على جلوس السلطان مصطفى، ولكن التاثيرات السياسة التي أصبحت مسلطة على الجيش العثماني جعلت وضعه مضرا جدا، بالنظر الى نقطة الامن الخارجي للدولة، فقد أصبحت هناك فرقتان في الجيش : الانكشارية والمتحيزون الى النظام الجديد، فهاتان الفرقتان كانتا، عادة، العدوين اللدودين، بعضهما لبعض، فالجيش العثماني الذى كان تابعا لرئيس واحد وملك واحد وفي آن واحد، أصبح الآن آلة للاطماع الفردية والآمال السياسية، فصار أداة في يد الطامحين لان يكونوا أصحاب النفوذ في أصطنبول، أو ليستولوا على منافع الدولة ومنابعها، ويتحكموا في مقدرات الامة، فهؤلاء كانوا يجعلون الجيش تحت أيديهم، واغوات الانكشارية والضباط غافلون عنهم، بل كانوا اما مهددين للحكومة أو مسقطين لها. بعد ما كان الجيش يعلي اسم الدولة العثمانية، حينما كان الجيش عبارة عن حماية حوزة الوطن، حريصا على التربية العسكرية والتعليم، أصبح الآن منوطا بالوظائف السياسية، فلم يبق للجيش نظام أو انضباط، كان بمقتضاهما يرفع من شان الدولة العثمانية، في عهد الملوك ذوى العزائم الثابتة، فهو الآن يلوث شرف الامة وكرامتها وينشق على نفسه تبعا للتيارات السياسية المجردة، وبذلك كان أمام جيوش الاعداء يوخذ من هزيمة الى هزيمة.

ان ارتباط الجيش بالسياسة برهن على سوء تأثيره في عصيان سنة 1222، فعزل في ثورة اصطنبول اهم اركان الجيش وبالجملة فان بهلوان اغا، من المتحيزين الى السلطان مصطفى، ما كان يتمتع بشهرة ولكنه كتب للقابقجي باصطنبول، وكان يشير الانكشارية وهم يجابهون العدو، لأجل أن يمهد لنفسه الموضع الذي يحل فيه، بعزل «السردار» اكرم، فكان يهجم على مقر «القومندان» الرئيس للانكشارية، على حين وحسب تصويت الانكشارية، كان جلبي باشا قد نصب سردار، ولكن بعد هذه المساومات الاليمة، كان تغلب الانكشارية يطغى مع الايام، وأصبح كثير منهم يحلو له أن يتلف الرجال الذين كان لهم شان في الجيش، وبذلك كانت كلمة «العلمدار» مصطفى، من أعيان البلقان وأشدهم نفوذا، سببا لحصول ركود في الاوساط.

والحقيقة أن نفوذ العلمدار كان عظيما جدا، وفي هذا الدور بالذات كان نفوذ أعيان البلقان قد وصل الى الغاية على يده، فكانت «مقدونيا» في ادارة اسماعيل بك سيروزي، وكان قسم من «ألبانيا» تحت ادارة «تبه دلنلين»، وكان العلمدار أكثر هؤلاء البكوات سطوة وجاها. غير أن اسناد السردارية الى جلبي مصطفى، كان صدر العلمدار يضيق به، وفي ذلك الحال كان قد انسحب آخذا الجيش في معيته الى «دورسجق»، فكان العلمدار حتى ذلك التاريخ يتوفر على ذخيرة للجيش، وقد أصبح الآن تموين الجيش من المشاكل العويصة، وكان ذلك سيصلح وضعية الروس المحاربين.

وهكذا كان من نتائج عصيان القابقجي أن أصبح الجيش في وضعية اليمة، بعد ما كان الجيش الروسي وقت العصيان معرضا لتهلكة عظمى اذ كان نبليون قد استولى على «بولنيا»، وصار يهدد روسيا، وما كان الروس يستطيعون أن يحافظوا على الاراضي الواسعة الارجاء التي احتلوها، على حين كانت قوة الجيش العثماني في نمو مطرد يزداد من آن لآخر وكانت خططه المحكمة تزج بالروس في وضعية شائكة، وبموجب هذا الترتيب فان الجيش كان سيجتمع في «شمني»، ومن هناك كان سيعبر الطونة الى «قلاص» وكان اسماعيل بعد ذلك سيستولي على ما وراء «سيرمت»، على حين كان العلمدار باشا، سيتعرض للروس من جهة «بكرس» والجبهة وكان سيبدأ بهذه الحركة في أواسط مايه، وما كاد الجنرال «مكلسون» يتخبر بأن الجيش العثماني اجتمع في «شمني» حتى أدرك المقصد، واذا بالروس كان عليهم أن يخرجوا من «أفلاق» حيث ان المرفق الذي كانت الطونة تشكله سيجعل مؤخرات الجيش الروسي في قبضة التهديد، وعلى ذلك كان «ميكلسون» سيتخلى عن «بكرس» ويترك مفرزة صغيرة، لتترصد حركات العلمدار.

وبهذه الصورة كانت «أفلاق» ستدخل في حوزة العثمانيين، وكذلك كان الشأن في «بغدان»، فان الروس ما كانوا يستطيعون حيلة، غير الانسحاب من خلف «دينستر» لتصدى العثمانيين لهم.

غير أن عصيان القابقجي جعل هذه الوضعية، التي كانت مساعدة للجيش، تنتكس رأسا على عقب، فأصبح أركان الجيش لا يأمنون على مراكزهم، بل كانوا يقعون في غائلة الخوف على حياتهم، من ثورات الانكشارية، وكان الاسطول يقهر أمام «بورجه أطه» وينكص عن المعركة، وقد واجه أقواما

يديرونه في جهل بفنون الحرب وتحت قيادة ضباط تنقصهم الخبرة والتجربة في البحرية. على حين كان نابليون قد عقد مع الروس هدنة «تلست» فكان العثمانيون كنتيجة لهذه المعاهدة قد أجبروا على المتاركة.

وهكذا فان عصيان القابقجي كان قد شكل أخطر وسيلة نالت العلاقة العثمانية مع نابليون بضربة قاصية، وان كان في الواقع ان سليم الثالث لم يكن على اتفاق قاطع مع نابليون، لان هذا كمعاصريه كان يدرك ان الدولة العثمانية كانت قد اشرفت على حافة الانقراض، لدرجة أنها ما كانت قادرة على أن تحول حتى دون تجاوز الروس لتخومها، وان كان نابليون كان يبدو كمحافظ على الدولة العثمانية، صورة ظاهرية، وهو في الواقع لا ينظر الا من زاوية منافعه الخاصة، فكان نبليون كلما وجد نفسه قد ازمته الحرب مع روسيا وانجلترا يرجع توا الى موضوع مسالة الدولة العثمانية، وما كان يريد ان يسلم الميدان ليقتسم خصومه، الذين كانوا فيه على وضع ملائم، تركيا فيما بينهم، ويختصون بها دونه، فلهذا كان كل خصم لنابلين، آنذاك، يتمثل له في انجلترا، فهي الهدف الذي جعله يحاول أن يتحد مع روسيا ضد انجلترا، وفي نفس الوقت لم يكن يرغب في ان يقطع علاقته بانجلترا، فكان نابليون لاجل ان يحقق مقصده، يلحم العثمانيين مع الروس، باغراء سفيره «سبستياني». وعلى ذلك أرسل رسائل ودية الى صديقه سليم الثالث واقنع رجال الدولة العثمانية بهذه السياسة الماطلة، فكانت المنفعة لنابليون راجحة على الصداقة التي كان يدعيها، وكان كل شيء في السياسة يهيمن على الاخلاق والشعور، ويجعل الكلام فيهما ضعيفا خافتا جدا فلم تكن له في الواقع صداقة أصلا مع سليم الثالث لدرجة انه ما كان يعرفه شخصيا. ولذلك ما تاثر تأثرا حقا من المصيبة التي نزلت به، ولكنه آنذاك، كان سيواتيه جدا، ان يتوسل بخلع السلطان سليم الثالث، فيعلن على صورة منطق سياسي، كون الوعد الذي وعد به العثمانيين اصبح بهذه الصورة باطلا، لا يحقق (68).

وعلى ذلك نجد نابليون قد التقى مع القيصر الكسندر الأول في «تلسيت» ليبرم الاتفاق الذى لم يكن مع روسيا ضد انجلترا، بل كان نابليون يريد أن يجعل روسيا منقادة اليه، وان يبرم معها حلفا وديا. وكان بالضبط في تلك الاثناء قد علم بعصيان القابقجي من سفيره «بفيينا»، فظن أن الثورة انقلاب داخلي، ولكنه تأثر جدا حينما علم بحقيقة الامر، اذ بينما

كان يجري العرض الرسمي للجيش مع القيصر في «تلست» تسلم تلغرافا من استنبول بذلك، فقال لصديقه في الحال، ملتفتا نحوه «ماهي الحجة القاطعة على أن امبراطورية هؤلاء الاتراك لن تعيش» (69).

وفي ذلك المساء كان يتباحث مع «الكسندر» حول اسطنبول، وكان قد وفق بمعاهدة «تلست» في جذب القيصر اليه بأدواره التي قام بها وكلماته المغرية. وبينما كان الكسندر يعقد معه هذه المعاهدة (8 تموز 1807) كان يتمثل امام نظره كل مملكة تركيا وبها «آياصوفيا»، أما نابليون فانه ماكان يتصور شيئا غير سحق انجلترا.

وبموجب معاهدة «تلست» (المادة 225) فان فيالق الروس كانت ستنسحب من «أفلاق» وبغدان حينما تبرم معاهدة صلح بين الباب العالي وروسيا وان هذه الاقاليم لن تحتل بها، وكان فى مادتين سريتين على انفراد من تلك المعاهدة ما يقضى باعطاء قطار «للروس والتسليم باعطاء» الجزائر «السبع كلها للفرنسيين.

وعلى حين كان نابليون يعقد هذه المعاهدة، كان من ناحية اخرى يريد ان يظهر بمظهر الاعتذار تجاه تركيا ويقول : «ان الذي عملوه مع سليم الثالث قد فت فى عضدى جدا» ثم كان يكتب لسبستياني قائلا : اشعروهم أنى تأثرت جدا من ارجاع مدفعيتي ومن عدم اخبار سفيرى بالجلوس (لمصطفى)، ومع هذا فغريب جدا كون السلطان مصطفى لم يكتب الي بشيء مطلقا، والحالة هذه أني كنت الحامي للمملكة، فلولا أني كنت الحامي لها، لكان الاتراك يتقابلون مع الروس وهم فى شدة ومحنة.

وما كانت كلمات نبليون هذه تحدث اى تاثير وسط أركان الهيأة العثمانية، بعد ما كانت الرسائل التي كتبها نابلين الى سليم الثالث يبحث فيها عن «بسرابيا» واعادة القوم اليه، فكان سليم الثالث ينخدع لطيبة قلبه بهذه «الاغفالات» والتمنيات ويعلن الحرب على روسيا، ولكن نابليون هاهو الان قد حول صفحة وجهه عن العثمانيين، وأحدث بذلك فى كل شخص الشعور بكره الفرنسيين فعم بغضهم العثمانيين فى هذه المرة.

نعم : فقد أصبحوا ضحية اخفاقهم فى السياسة، وهذا كان طبيعيا جدا، لان حكومة يسيرها مثل كوسه موسى والقابقجي مصطفى تقابلها

افكـار الكسندر الاول باطماعـه، ودهـاء نابليـون و طـالـيران مـا كـانت لتبدو اكثـر حكمة من ذلك. وكـان السلطـان مصطفى متحيرا فيما عسى أن يفعـل، فكـان يداخـل سبستياني ويقول :

«كـل ما يريد حضرة الامبراطور من هـذه الدولة يعمـل، فنحـن يقينـا طـوع يـديـه» (70).

فكان هذا الحفيد العاجـز لسليمان القـانوني، يلجـأ الآن الى ظـل امان الفرنسيـين وكـانت أحكـام معاهدة «تلست» يعمـل بها لا محالـة وتقبـل.

وكانت في هذه الاثنـاء حكومـة انجلترا تدرس عن كثب علاقـات فرنسا مـع الباب العالي، وما كـان «أرطور بازه» يبعث بالسفارة الى «جناق قلعـة» حتى ابتدأ خوف سبستياني يتضاعف، وكـان «أرتوبـازه» قد وضع أركـان القصر في يديه، وصار يداخـل الباب العالي في المذاكرة، ولكن بسبب النفوذ الذي استطاع احرازه «سبستياني» والكسب الـذي نالـه في ظـل القابقجي مصطفى، كـان يرغب في أن تحاط المذاكرة بالكتمـان، ولكـنّ المذاكـرة كانت قـد أفشيت بواسطة «علقو بك» في هـذه الاثنـاء، وهـو ترجمـان الديـوان «اسكندر صوجو» وبذلك عكـر الاحوال كلهـا، ثـم أعـدم «غلقو بك» فكـان اعـدامه يستثـير سبستياني، وفي الحال كـان يفهم المسألة للقابقجي مصطفى مريدا أن يركس طيار باشا القائم مقام في ذلك الوقت.

وعلى هذا كـان رجال الدولة العثمانية ينقسمون الى فـرقتـين، شيـخ الاسلام عطـا أفندي والقابقجي مصطفى أغـا فيشكلان فرقـة، وطيار بـاشـا وأركـان السراي، كانوا يشكلون فرقـة اخرى (71)، وكان سبستياني يـرى العمل أفيد مـع القابقجي مصطفى. فكـان لمـا يقـع مشكـل في أمور الدولـة الداخلية يتصل به، مثلا توفي والي بغـداد، فأريد أن يعـين مكانه ضياء يوسف والي «أرضروم» فكـان سبستياني يعترض في الحال، ويوصي بارسال شخص يكون معتمدا عند فرنسا، نظرا لان عربستان وخليـج البصرة مجاوران لايران وعليه فكـان يطلب أن ينصب سليمان باشا واليا لبغـداد، ولمـا رأى أن طلبه لا يسعف كـان يتذرع بأقـل وسيلـة، ويجمع أمـره ويتهيأ لقطـع العـلاقـة الدبلوماسية، ومـا رأى القابقجي مصطفى ذلك، وأدرك أن قطـع العـلاقـة بـين الدولة العثمانية وبـين فرنسا سينتج عنهـا خطر عظيم، وأن سفـير فرنسا قـد اغضب بسبب القائـم مقـام الخائن، وأن فتح أبـواب الحرب مـع فرنسا والجيش رابض على حدود الطونـه سيكون مصيبة كبرى، حتى كـان

يذهب الى الباب العالي، ويجار صائحا بما تقدم من الاخطار، فكان رجال الحكومة المتحاشون لمزجرة القابقجي يسلمون في الحال لسفير نابليون الذى كان ينال كل رغباته، وكان الباب العالي قد فهم ماهية سبستياني، الذى كان يبحث عن اتفه الاسباب ليخضع الباب العالي لنفوذه، فلما رأى الاوانى المرصعة والاقراط المجوهرة، كان يلين في الحال (72).

فالسفير الذى كان يحمي حتى الطغاة الاشقياء ليكونوا اتباعا لفرنسا، ابتدأ في اضعاف نفوذ الدولة وكان سبستياني قد فهم هذا حق الفهم، ففي المكتوب الذى كتبه الى طليران، كان يقول :

«منذ أن أتيت الى اصطنبول لم يقع لي ان كنت في وضعية مشكلة الى هذه الدرجة، وما وجدت في حالة اليمة، كما هي الآن فان كنت أغش هذه الحكومة، فانه من الواضح أبي أردت العيش» (73).

وبينما كانت الاحوال السياسية للدولة في هذا المركز الحرج، كانت هناك في وسط رجال الدولة فكرتان رائجتان باسطنبول، فاركان القصر كانوا راغبين في اعدام سليم الثالث، وفي «رسجتي» كان المتحيزون لسليم الثالث المجتمعون على رأس العلمدار، وهم يرغبون في خلع مصطفى الرابع.

ان العاقبة لثورة 1222 كانت اليمة جدا، وكافية لتعوق الامة وتؤخرها سنين وهي في طريق الانحطاط، فكانت تركيا اذ ذاك غارقة في الجهالة، ورجال سياستها قد خيم عليهم الضياع جميعا، بسبب كونهم غير واقفين على سياسة أوربا، وروسيا كانت قد اتخذت لها هدفا في تقسيم تركيا منذ ذلك الحين، ولكن النمسا كانت تحول بين هذه الحركة لحكومة روسيا، وكانت معاهدة «قاينارجه» (1188) هـ قد سببت سكونا في هذا التشبث الفجيع، بيد أن نظرة «قاترينا» الى رومية كانت قد شكلت تهلكة محققة لتركيا، على حين كان انقلاب فرنسا هذه المرة قد أصاب طمع الغرب في تركيا، التي كانت لها فرصة تنتهزها لتستجمع شتاتها بهذه المناسبة، وكانت قد أرادت بالاستفادة من هذه الفرصة أن تقوى تشكيلاتها، ولكنها ما كانت قد أدرجت تشبثاتها في حيز التطبيق، وبصورة تدريجية، مستندة على أسس من المنطق والتقاليد المعنعنة، لقد كانت حركة سليم الثالث المفرطة، قد مهدت لظهور عصيان سنة 1222 في النهاية، لان عصيان القابقجي مصطفى عاش بالجهل والتعصب، وكان حركة عكسية طبيعية للتجديد الذي طبق

باقـراط على محيط لم يتبدل محتواه مطلقـا، في روحـه وتفكـيره. اذ لاجـل أن يكون هـذا التجديد ممكنا له تأثـيره المستمر، كـان لازما أن يتـلائم مـع المحيط الـذي أريـد تطبيقه فيـه.

وبذلك فان حشد القابقجي للقوات المظـاهرة، كانت له دلالـة على أن القوم الى ذلك الحـين ما كـانوا قد استطاعوا أن يستطيبوا هـذا التجديـد الصارخ، أما سليم الثالث فانه ما كـان ياخذ بنظر الاعتبـار، حـالـة الامـة الفكريـة، التي كانت ستعد ذلك مخالفا للدين، في نظر الاهالي الجهـال، فكان سيجلب مـع هذه الاصلاحات حسدا وعداوة، فضلا عن كـونه كـان مسامحا في طبعـه.

لقد كانت هناك وسيلة تمكن من اظهار اجراءات سليم الثـالث وجعلهـا سهلة وممكنة التحقيق : عـزم متـين، وشدة متطرفة، ولكن سليم الثالث لـم تكن هذه الصفات موجودة فيه، فكـان السلطـان سليم موجبا لطغيان القـوم، فعلى حـين كـان يتشبث بأشياء نافعـة وجديدة ستشدها شرايـين المنفعـة كـان في حاجة ماسة لعزم ثابت يستعمله في اخماد هـذا الطغيـان بالشـدة التي اختص بها أجداده. وعلى هـذا الفـراغ، كـان عصيان القابقجي قد نجح بتهيىء السياسة العثمانية لظروفه، تلك السياسـة التي لم يكن «الكوبروليون» يسيرونها بسواعدهم القوية ورؤسهم المتينـة، فسقطت في يد مصطفى القابقجي.

فتركيا بهؤلاء الرجـال، وبهذا التذبذب، اصبحت ممنوعة من التقـدم، وبقاؤها كان على حافة الفناء فلم يظهر على مسرح سياسة الدولة العثمانيـة رجـل يتمتع بشخصية ذكيـة حـادة، يستطيـع أن يتقـدم بالرجـال تقـدما سريعـا ثابتا نحو عالم المدنية والانسانية فيسلك تلك السبـل التي سلكتهـا تركيا في ماضيهـا الاغـر فانتهت الى ذروة الشرف، بـل كـان الباب العالي، الذي لفت أنظـار هؤلاء رجال أوربا التي ظلت ذليلة أمامها أزمـانا، أمـا الآن فقـد أخـذت حالة جماعة الاشقياء بيـد العـاصي (74) القـابقجـي مصطفى السفيله ان هؤلاء «التورديـين» في اصطنبول كانوا يخلون بكـل أنواع الموازنة داخـل الدولة وخارجها، ويجعلونها رأسا على عقب، ولكـن السبب في كـل هذه المصائب كـان بانزواء السلطـان مصطفى على حـين كـان «التورديون» قـد استولوا على السلطنة من جميع نواحيها، وبقيت المملكة في فتور السلطان الذي كـان في امكانه، دائما، أن يرفض القابقجي وأعوانـه، فيخلص الـدولة والامة من تغلب الاشقياء، ولكن الحرص على السلطنة كـان ينسيه كل أنـواع التدابـير الواجب اتخاذهـا، وبذلك كـان تحكم القابقجي قـد جعـل البـاب

العالي ملعبة صبيانية، وصارت مهام الحكومة تسلم الى أيدي العاجزين الذين لم يتمتعوا بأية صفة لأمثالهم، فكانت السفالة قد حطمت الامة، وكانت الضائقة المالية مما تزيد في هذه المشكلة العويصة، فتقلص نفوذ السلطنة عن كل مكان، وصار خراجها لا يجمع لها، لدرجة انه جمع من الأموال 60.000 أقجه للخزينة، وكانت من أموال رجال سليم الثالث، غير أن القابقجي وأعوانه قد انحشروا تحت ذلك وخرجوا فوقه (فسلبت بواسطتهم) حتى ان 2.000 أقجه كان السلطان سليم قد ادخرها للاحتياط، مع «يالديز التون» (75) كانت كافتها ترد على الداخلين في عصابة الاشقياء.

واخيرا فان الدولة أصبحت تعاني ضائقة مالية خانقة، فقررت أن تقترض من حاكم «فاس» 20.000 كيسه أقجه (76).

وكان كثير من الأهالي يبحث بكمال الاشتياق عن العصر القديم متأثرا من الاحتياج والضرورة (77)، وكان الأشقياء في ذلك الظرف يثورون، ولم يكن أحد في دولة السلطان مصطفى يهتم بالأمر، فكانوا يفهمون كون عجز السلطان مصطفى وطمعه سببا لكل هذه المصائب، وكان الذين ملوا حكم القابقجي يذكرون بالنفرة اسم الملك (78)، على حين كانت منافرة تقع بين طوبال عطا والقائم مقام طيار باشا، وفي حادثة جامع الفاتح، كان نفوذ طوبال عطا قد تحطم تماما، وكان التجاء العلماء الى جامع الفاتح بسبب فواحش الغوغاء، ثم المقابلة للانكشارية في المدرسة، وقذف جامع الفاتح بالرصاص، كل هذا كان يجعل مركز طوبال عطا متزلزلا جدا جدا ولكن طوبال عطا كان يخلص نفسه من هذا السقوط، في ظل القابقجي مصطفى، وحتى وجود طيار باشا في منصب القائم مقام انتهى بعزله من القائم مقامية، فكان هذا التوفيق يقوده الى الامام، وقد كان بقاؤه السبب في عصيان لاسرة «جبار زاده».

وبالجملة فان نجاح طوبال عطا هذا كان لامعا، وكان السلطان مصطفى الذي يشغل العرش العثماني والسردار اكرم جلبي مصطفى وقائم مقام اصطنبول الجديد حاجي مصطفى ورئيس الاشقياء القابقجي مصطفى، كل ذلك كان ينذر بان السلطنة كانت ذاهبة في سقوطها الى الابد، وهي مكيفة بهؤلاء «المصطفين». ولكنه لم يكن مطلعا على مساعي «العلمدار» وعمله الفدائي مع جماعته في سبيل وضع حد لسلطنة هؤلاء هياة «التورديين»، فقد كانوا تكتلوا في الاطراف، أثناء ذلك، بروسجق.

والحقيقة أن «روسجق» كانت مليئة بالمتحيزين للسلطان سليم الثالث، وحتى القائم مقام المعزول طيار باشا كان قد ذهب الى تلك الناحية، وكان الرجال المجتمعون في «رسجق» من الخواص، أشخاصا يتميزون بالعلم والمعرفة، فكان من الطبيعي أن هذه القوة ستتغلب على أركان عصابة القابقجي مصطفى التي لم يكن لها علم بأحوال العالم، والتي كانت مصابة بمرض الحرص على المنافع الخاصة وجاهلة، فكان أهم المخلصين للوطن المجتمعون في «روسجق»، وعلى رأسهم السادة : رفيق، بهيج، غالب وتحسين، فهؤلاء الاربعة الاشخاص كانوا يقومون بكل انواع التدابير اللازمة لحضور العالمدار الى اسطنبول، وليدفعوا سلطنة «التورديين» (الى نهايتها، فكان طيار باشا يرسل المعلومات التي تدور حوله، ويصور الاحوال الروحية لاركان القصر (79) فاكتسب مسعى العلمدار نجاحه وخاصة من الصدر الاعظم جلبي مصطفى باشا الذي كان مركزه قد تضعضع مع رجال الباب العالي، فكان يقدم ما يبرهن على موافقته لاجلاس السلطان سليم واركاس القابقجي.

وكان العلمدار يعمل حسب ارشاد بهيج أفندي وسائر الرجال الذين كانوا مع طيار باشا ولم يكن العلمدار شخصيا ذا دهاء وكان قد نال خيرا عظيما من السلطان سليم، غير أن الحوادث الاخيرة، وخاصة صدارة جلبي باشا، كانت قد احرجت صدره جدا وأثارت كوامن البغضاء في قلبه وصيرته عدوا للسلطان مصطفى ورجاله، وكان بهيج أفندي ورفقاؤه قد ادركوا الحالة النفسية للعلمدار وبذلك صاروا يفكرون في الاستفادة من العلمدار، ليركسوا القابقجي وأعوانه، فوفقوا في هذا (80).

في هذه الاثناء، كان جلبي مصطفى ينسحب الى «أدرنة»، عقب معاهدة «تلست» فأرسل بهيج افندي الى «أدرنة» العلمدار لاجل الاتفاق مع السردار اكرم. كان بهيج أفندي قد تخرج في مدرسة «سودليجه» وكان شخصا حميا على ناصية من العرفان والذكاء وكان يستعمل هذه الموهبة تماما في سعيه مع سائر رفقائه، وحينما أتى الى اصطنبول كان أركان السراي يلتهبون ويجيشون.

ومهما يكن فان بهيج افندي، كان قد وفق حتى استطاع الدخول الى الحضرة الملكية ورج ذهن السلطان مصطفى الذي كان قد مل سلطان «التورديين» وكان ايضا قد حصل على اذن «همايوني» بالحركة حسب الاقتضاء، وبذلك لم تبق أي شبهة في نجاح المسعى الذي يقوم به فدائيو

«روسجق»، وفي «أدرنـة» كـان السردار اكـرم جلبـي والعلمـدار مصطفى باشا قد اتفقـا بينهما فقررو ان يركسوا القابقجي مصطفى الذى شارك السلطان مصطفى سلطنته باصطنبول، وعقد مجلس فى «أدرنـة» حسب ترتيبات فدائيي «روسجق» وفى هذا المجلس كـان العلمدار باشا ورفقاؤه يجدون فى اتخـاذ تعليمات توجه الى السردار اكـرم.

وبالجملة فانهم قالوا :

ان نتائج المتاركـة مع الروس غـير معروفـة، والاقامة في «أدرنـة» تستلزم استهلاك الامـوال بدون فائدة، لهـذا اذا ذهبنـا الى اصطنبول، دفعة واحـدة، فانه فى ذلك يكـون خـير عميم، واذا تساهلنـا فما اعظم التضحيـة، ثـم ان الزحف من اصطنبول يمكن من الحصول على الارزاق و «الجبخانة».

وعلى هذا قرروا الحركـة، وقال العلمدار آنذاك :

واذا كـان الامر كذلك فلاذهب معك (81) لارى طلعـة الملك، ولامرغ وجهي بالتـراب الملكـي.

وقد استصوبت رغبة العلمدار هـذه في الحال، غـير أن «رمزى» افنـدى كـان يرى لزوم تطبيق التدابـير المدبرة، بادىء ذى بـدء فكـان ينصح بارسال فرقـة صغـيرة الى اصطنبول قبـل حركـة الجيش، وبقتـل الـرئيس الاول للاشقيـاء، فاعتبر رأى رامز افندى مناسبا جـدا، وكـان فى الحقيقـة، بعـد قضاء المتـآمرين على مصطفى القابقجي تامينا لنجاحهم المحقق فى اصطنبول، حيث كـان الشعب مجلوبا الى الجانب الذى سيؤمن مصالحه أساسا، وكـان على الفور يخضع للقوات العاصية، كلما كـان عصيان، وكانوا دائما يفكرون فى الاستفـادة من هؤلاء العصابات والاشقياء الذيـن يستولون على الحكـم، وسرعان ما كـانوا يلتحقون بجماعاتهم، فيمزقون الذوات التى كـانوا يمجدونها بتملق وتبصبص قبيل ساعات معدودات، فكـان سقـوط الاخـلاق فى الامـة والمـامورين، يضمن نجاح كـل عصيان على الفـور، ومن هذا السبب فـان ازاحـة القابقجي، كانت بسهولة أحدث دهشة فى الاوساط التى لم تكن تتوقع ذلك، وحتى الذين كـانوا يداهنون القابقجي بدافـع المنفعة، كـانوا سينتقلون ضده وشيكـا، أمـا المتحيزون له الحقيقيون، فما كانوا سيجدون حيلـة غـير التذلـل والارتيـاع.

والنهاية ان العلمدار ورفقـاؤه كـانوا قـد عهدت اليهم هذه المهمة، وكـان حاجي علي أغـا من أعيـان «بيكار (82) حصار» قد تحرك مـع عدد كـاف من

الفرسان، قبل بضعة أيام من تحرك جيش العلمدار، وفي ليلة حادثة من (يليه)، بعد ان سار 36 ساعة كاملة، كان هذا الجيش قد انتهى الى (روم ايلي فناري)، وكانت اصطنبول في تلك الليلة غارقة في احلامها، ولم يكن في أدرنة لاحد خبر عن هذه الترتيبات المحكمة، والتي اتخذت لوضع حد لهؤلاء «التورديين» ولاقامة دولة على الكافاءات.

أما القابقجي وأتباعه فقد كانوا يغطون في نومهم اللذيذ، وقد ضمنوا لانفسهم سعاداتها، وما أسفر صباحهم حتى كان حاجي علي يحاصر فناء القابقجي، ويتجه ومعه أربعة أنفار نحو الباب فيدقه، بكمال الشدة، قائلا :

«يوجد أمر يتعلق بك»، وسرعان ما كان يدخل الى الداخل، على حين كان خدم القابقجي ورجاله يقيدون ثم يسلمون الى الفرسان الذين كانوا في الخارج، ثم لما علم أن القابقجي ما زال على سريره نائما، طار الى حجرته فوجد القابقجي في لباس النوم، تحيط به النساء وكان القابقجي قد أفاق على هذه الضجة، فلما شاهد الحالة المهيبة، تحير ماذا يصنع، وصاح قائلا :

ما ذا تريدون ؟ أنا ماذا عملت ؟ وبأمر من تدخلون الى حرمي والى داري ؟ (83).

ولكن عسكر حاجي علي، ما كانوا ينصتون الى هذا الكلام، بل سارعوا الى تمزيق القابقجي بخناجيرهم، ثم احتزوا رأسه، وبعثوا به الى العلمدار، على حين كان جيش العلمدار قد انتهى الى «جورلو».

وهكذا في الصباح الباكر من شهر تموز اللطيف، وقد اسفر على اشجار ساحل الاناضول، كان ياتي افق وردى مضيء، واليماق قد علموا باعدام رؤسائهم، فهم في حيرة يسائل بعضهم بعضا، ويتقدم منهم من يطير الى اصطنبول ليخبر الباب العالي.

لقد كان اعدام القابقجي محيرا لاهالي اصطنبول، وكان بعض اركان الدولة يقول : ان هذه الحركة شقاوة وشر، وهم ناسون للجراحات التي فتحوها في صدر الوطن، بجناياتهم وغاراتهم المبيرة.

أما حركة جيش العلمدار بالخصوص، فقد أوقعت المتحيزين للقابقجي في ذعر عظيم جدا، وكان هؤلاء المتاثرون من قتل مصطفى القابقجي، والحامون له الوحيدون، يتصورون المصيبة التي ستحل بهم، لا محالة، فهم يكتبون عريضتهم الى السردار أكرم، يسألون قائلين :

«كيف يقع هذا العمل المستحيل ؟ فأنتم هل لديكم خبر عن هذا ؟ (84).

التعليقات

(1) كنت قد نشرت قسطا من هذه الترجمة في مجلة «الأنيس» بتاريخ مارس وما بعده من سنة 1955.

(2) كان ذلك بصفة خاصة أيام المولى محمد بن عبد الله ثم أيام ابنه المولى سليمان، وهو المقصود في هذه القصة، كما سنرى.

(3) لم تذكر هذه الشخصية في أي مصدر عربي، الا ما كتبه الامير شكيب أرسلان في ذيله على ابن خلدون.

(4) يردد ابن خلدون هذه القصية، ولا ندرى هل هي له أم لغيره.

(5) متنوع في بابه تنوعا عظيما.

(6) الدانوب.

(7) لقد أشاد به وبأعماله الامير شكيب أرسلان كثيرا، وهو الوحيد من كتاب العربية بذلك.

(8) خصوصا لما استولوا على العاصمة الشرقية لهم «القسطنطينية».

(9) يريدون بها التمرد.

(10) كلمة كانت وما تزال في الشرق تقال عند الاستحسان والاعجاب بعمل أغيره باهر.

(11) حيوان روسي.

(12) نعيما ج 4 ص 245، أحمد رفيق : الوجوه التاريخية.

(13) رتبة تعطى للقاضي مرتبا في الجيش.

(14) حي من أحياء اصطنبول.

(15) تاريخ بشرج 3 ص 13.

(16) لسليمان تاريخ جودت، الصفحات : 196، 319، 359.

(17) كوبرولي، بالباء الاوربية المثلثة النقط، أسرة تركية ظهر منها رجال كان لهم شان عظيم في الخلافة العثمانية، كحسين باشا وفاضل احمد ومحمد باشا ومصطفى باشا، مثلوا أدوارهم في القرن السابع عشر الميلادي خير تمثيل فكانت لهم اصلاحات في الداخل وأعمال عظيمة في الخارج، مهادنة وحروبا مظفرة.

(18) وندالي الامركي ومسيحة 22 و 85.

(19) اصل كلمة الانكشاري، يني = جديد، + شاريا أى الشارة الجديدة، يعني أصحابها، حيث كانوا أول الامر جيشا نظم جديدا، وربي على تربية عسكرية منذ الصغر، والكاف هنا تنطق نونا كما فى دكيز.

(20) أوجست برت، مصور البسفور ص 320 ـ 321.

(21) رعى الله جناب المسكن المتناهي لطافة

انه مثل جنة الفردوس لا يترك في القلب حزنا

وهذا الشطر الاخير ليس فارسيا فى تركيبه بل تركيا.

(22) الغرفة التى وضعت بها شعرة من لحية النبي عليه الصلاة والسلام، كما يزعمون أو يعتقدون.

(23) الميزان الآخذ بالقلوب هو الحياة الأبدية وعين الشفاء.

(24) تاريخ عطا ج 3 ص 278.

(25) نوع من الموسيقى العربية عرف قديما وتردد ذكره فى كتاب «الاغاني».

(26) كاستلان : عادات العثمانيين ج 3 ص 237.

(27) الأوامر السلطانية.

(28) دار المدفعية.

(29) بحارة السفن.

(30) المعسكرات الشتوية، والكلمة فى أصلها مولفة من «قاش» أى الشتاء، و «لق» للمكان، لان الجيش فى غير الشتاء كان يقيم بالخيام.

(31) القاذفين بمدافع الهاون، وهي مدافع قصيرة ذات أفواه واسعة جدا، تكتب هكذا «خمبرة»، وتنطق الخاء هاء، كما فى خانم، و «قومباره».

(32) كلمة بلوك او بولوك، معناها فرقة، وأما كلمة «آلاى» فمعناها فوج، وكانت كلمة أمير آلاى، معروفة فى مصر قريبا.

(33) صور الامير شكيب ارسلان هذه الوضعية الاليمة فى الملحق الذى جعله للجزء الاول من تاريخ ابن خلدون المطبوع سنة 1936 بمصر.

(34) يستعمل الاتراك كلمة تهلكة، فيما يستعمل فيه الآن كلمة «خطر»، وهو استعمال جيد، بعيد عن الاشتراك الموجود فى الخطر.

(35) سياسة نابليون فى الشرق ص 60.

(36) انظر تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ج 3 الصفحات 162 - 166.

(37) سياسة نابليون في الشرق ص 69 ومخابرات نابليون وتاريخ جودت ج 8.

(38) استفاد من هذا الحماس الجنرال سبستياني والفرنسيس وانضم اليهم سفير اسبانيا، ملحق الامير شكيب ص 279.

(39) سياسة نابليون فى الشرق ص 36.

(40) انظر ملحق الامير شكيب.

(41) السياسة الشرقية لنابليون ص 103.

(42) جزيرة حذاء الدردنيل تابعة لتركيا مع جزيرة اخرى تدعى أمبلوس وسماتراس، ولهاتين الجزيرتين أهمية عظمى فى الدفاع عن الدردنيل.

(43) ذات يوم عقد مجلس خاص فى قصر «توب قبو» الهمايونى، وكان انعقاده بصفة سرية، وكان قائم مقام باشا غير موجود فى هذا المجلس «مجلس خاص الخاص»، وبعد برهة كان المجلس وكيفية انعقاده وابحث فيه، كل ذلك ينشر فى جريدة طبعت بباريس،،، تاريخ جودت المجلد 8 الصحيفة 143.

(44) جوشيرو «اضطرابات الآستانة» ج ص 108.

(45) عنصر بحارى يعيش فى منطقة «طرابزون» وتكتب الكلمة بالطاء هكذا «لاظ» كما هو فى «لاظ أوغلي» المقام تمثاله بالقاهرة.

(46) هم قدماء رجال المدفعية.

(47) لم يكن للانكشارية مشهرات معينة، كما كانت لجيش «النظام الجديد».

(48) تاريخ جودت ج 8 ص 155.

(49) سوق تباع به الطيور (قوش محلي) او اللحوم (آت = لحم) ميدان اللحم (على الطريقة التركية ـ تقديم المضاف اليه على المضاف).

(50) تاريخ جودت ج 8 ص 159.

(51) كانت سياسة اسبانيا تدور فى فلك فرنسا، الى ان احتل نابليون بلادها واقام اخاه ملكا عليها.

(52) جوشيرو «انقلابات الآستانة» ج 2 ص 114.

(53) اوجاقلو كندولرين، من انصار النظام الانكشارى.

(54) السباكين في الطوبخانه (دار المدفعية).

(55) ضباطهم.

(56) نتائج الوقوعات ج 4 ص 49.

(57) جوشيرو : انقلابات الآستانة ج 2 ص 122.

(58) تاريخ جودت ج 8 ص 173 وتاريخ عطا ج 3 ص 44.

(59) صوغوق جشمه، وقد استعملنا كلمة «السبيل» بالمدلول العرفي عندنا.

(60) جوشيرو «انقلابات الآستانة» ج 2 ص 106 وتاريخ عطا ج 3 ص 50.

(61) جانم = روحي، وهي فارسية الاصل، تستعمل مجازا فى الحبيب والصديق، كما في قول حافظ :

نصيحت كوش كن جانا (استمع الى النصيحة ايها الصديق)

(62) تاريخ جودت ج 8 ص 179.

(63) تاريخ عطا ج 3 ص 51.

(64) تاريخ جودت ج 8 ص 185.

(65) السياسة الشرقية لنابليون ص 391.

(66) جوشيرو «انقلابات الآستانة» ج 2 ص 146 وتريخ جودت 8 ص 197.

(67) من هذا يبدو ان هذا الانقلاب كانت تعمل فيه أصابع الروس (المعرب).

(68) دوريو «السياسة الشرقية لنابليون» ص 99.

(69) وندال نابليون واسكندر ج 1 ص 73.

(70) خطاب سبستياني الى طليران 23 غشت.

(71) انقلاب الآستانة ج 2 ص 158.

(72) تاريخ جودت ج 9 ص 143.

(73) خطاب سبستياني لطليران 18 تموز (يليه).

(74) بالاصل «توره دى» وهي من مصدر «توره مك» وفي اللهجات الاصطنبولية، هكذا «تورو دى» (المعرب).

(75) عملة بندقية.

(76) يبدو أن ذلك كان أيام المولى سليمان، الذى عرف بمساعيه الحميدة نحو حكام الترك بالجزائر، كما كان المغرب لعهده يتمتع عامة بالرخاء، وخزينة الدولة بالغنى، ولو أن الفتن نجمت على يد البربر وغيرهم، فزعزعت دعائم الاستقرار، واصبح الملك يخشى وقوع الفتن وتعميم الحروب في البلاد، ويبدو ان هذا ما جعله يرفض الاعتراف بأخي نابليون ملكا على اسبانيا، مقابل ارجاع سبتة ومليلية لحظيرة المغرب، وياللأسف الشديد.

(77) بعد خلع السلطان سليم، انتشر الظلم والذعر في كل مكان، بشكل لم يسبق له مثيل، فكان الذين عاصروا عهد سليم يبحثون عن محاسن عصره بالشموع (المؤلف).

(تاريخ جودت ج 8 ص 280.

(79) تاريخ جودت ج 8 ص 194 وانقلابات الآستانة ج 2 ص 164.

(80) تاريخ جودت ج 8 ص 271 ــ 296.

(81) يخاطر السردار، ويعني بالملك سليم الثالث الذي كان هؤلاء يريدون ارجاعه الى عرشه، كما رأينا، وان كان السلطان مصطفى قد اطلع على الحركة سابقا، فنالت منه القبول والاحسان، ولا شك أنه أفهم استمراره على كرسي السلطنة اذ كان كما تقدم حريصا على صولجانه، فلما أدرك الحقيقة اغتال سليما، بالطريقة التي سنذكرها (المغرب).

(82) تنطق الكاف هنا نونا، كما تنطق عندهم في «بك باشي» مثلا.

(83) انقلابات الآستانة ج 22.

(84) هكذا ينهي الاتراك قصصهم، ويتركون القارىء متسائلا عن النهاية فيها،

لما علم السلطان مصطفى بما قرر هؤلاء القوم وشرعوا في تنفيذه، عزل من منصبه شيخ الاسلام واعوانه، ترضية للقائمين، ولكن هؤلاء كانوا يقصدون عزل مصطفى وارجاع سليم، فهاجموا القصر، فارسل مصطفى الى العلمدار يتمهله حتى يخرج اليه سليم الذى كان في حبسه، على حين كان قد امر رجاله بقتله، فهجموا على سليم الذي دافع عن نفسه وصرع منهم جماعة، ولكنهم في النهاية تمكنوا من قتله، فدخل العلمدار القصر، حيث وجد سليم متصرجا فى دمه، ثم خلع مصطفى، وأجلس محمود الثاني، ابن عم سليم، عبد الحميد الاول، يوم 28 تموز المذكور لسنة 1808، ونابليون آنذاك يدعى سيد أوربا، وقد عزل انجلترا عن حلفائها، وجعل اخاه ملكا على اسبانيا، وصهره على نابولي، ولكن هذه السنة انتهت ببدء انهياره المتتابع الى ان وقع فى يد الانجليز اثر هزيمة «واترلو» 18 يتيه سنة 1815.

وكما كان عصر نابليون حافلا بالاحداث، كان كذلك عهد سليم الثالث، فقد تولى السلطنة، وهي في محنتها القاسية فواجه المصائب والفساد، وكان مومنا بالتجديد، فعانى في سبيله ما لا يطاق من المشاق، على حين كان رحيما برا بأمته، فساعد المدينين باداء ثلاثين في المائة من خزينة الدولة، فلم ترع له هذه اليد البيضاء، على حين كانت الهزمات تترى، فقبطان البحر حسن باشا، ينكسر في وقعة قوشنائي سنة 1789، ثم كانت بلاد افلاق ومعولد افيا وبلاد السرب، تقع في يد الاعداء، وكان الروس يحاصرون اهم قلاع العثمانيين «اسماعيل قلعه سي» على الطونه، واقتحموها ودبحوا جميع المسلمين فيها، صغارا وشيوخا، وانهزم ايضا السر عسكر يوسف باشا في وقعة «ماتشين» وأقحمت انجلترا وبروسيا انفسهما في الصلح، سنة 1792، وعقدت «معاهدة «ياش» استولت الروسيا بموجبها على «القوم» وشبه جزيرة طامان وقسم من قوبان وآخر من «بسارابيا» وعلى مدينة «أوقزاقوف» وغيرها، وبعد ما قتل الشعب الثائر حسن باشا تولى نظارة البحرية كوتشوك حسين باشا (حسين الصغير) وكان ذا مقدرة فائقة، الا أن المنون وافته سنة 1803، بعد ما طهر البحر وحصن الاقلاع، وجاء بمهندسين من فرنسا والسويد وانشا الاساطيل، وثار باشا «ودين» من بلاد الملغار، فاضطرت السلطنة لترضيته بعد حرب فازدادت اطماع المسيحية في السلطنة العثمانية، فقررت فرنسا غزو مصر، وان افهمت تركيا انها لا تريد بذلك الا الطريق الى الهند والحد فوضى المالك، فانتهزت انجلترا فرصة هذا العز وتقربت الى السلطنة، فجعلتها تعلن الحرب على فرنسا، وتتحد معها ومع روسيا ضدها فجاء جيشها بقيادة مصطفى باشا، لمحاربة الفرنسيين الذين كانوا قد استولوا على مصر، فمزق هذا الجيش نابليون قبل ان يعكس بمركزه، غير أن الاسطول الانجليزي تمكن من احراق الاسطول الفرنسي في موقعة أبي قير، ثم تقدم نابليون الى سوريا، ولكنه اخفى عند اسوار عكة، التي كان يدافع عنها احمد باشا الجزار البوسنوي والاميرال سيدني سميث الانجليزي، فعاد الى مصر ثم فرنسا، وعصى الانكشارية في بلغراد وثار السربيون والمكدوتيون، وأعلن علي باشا تنبلي استقلاله باقليم «يانيا» وغزا الوهابيون الحجاز، ثم تحولت السياسة نحو فرنسا كما راينا انظر ملحق الامير شكيب أرسلان.

سكـوت البـرغـواطي، ملك سبتـة

بقلـم

خواكيس فـالفي بـيرميخـو

ترجمـة عبد اللطيف الخطيب

كان القرن الحادي عشر فتـرة غامضـة للغـايـة، الا أنهـا كـانت على غموضها فترة هامـة للغايـة أيضا، بحيث نكـاد نقول بأنهـا كـانت فاصلـة بالنسبة الى مصـير اسبانيـا الاسلاميـة. وقد استرعي انتباهي في هـذه الفترة ما كـان لمدينة سبتة الصغـيرة من النفوذ والتأثـير في سياسة ممالك الطوائف. الا ان موقعها الاستراتيجي كفيـل بشرح ذلك؛ فهي بوجودهـا على ضفـاف بوغـاز جبل طـارق واشرافها على شبه الجزيرة ما كـان في مستطاعها أن تظل بمعزل عمـا كـان يجـري في الاندلس، اذ كـانت أول الامـر مـركـز اشعـاع للثقافـة الاموية نحو شمال افريقيا، ثـم اصبحت فيما بعد ذلك، نقطة انطلاق الروح الافريقية التي ستتسرب الى شبه الجزيرة.

واني أرى ان دراسة تاريخ هـذه المدينة خـلال العصور الوسطى كلهـا موضوع ذو أهمية كبرى، ولذلك أفردته بدراساتي وأبحاثي الاولى التي كانت نتيجتها وضع أطروحتي للدكتوراه بعنـوان «**مساهمـة في تاريخ سبتـة خـلال العصور الوسطى الى احتـلال المـرابطـين لهـا**» الا أنـه قـد تم العثور على معلومات جديدة أثنـاء الوقت الذي كنت فيه بصدد اعداد ذلك البحث، فكـان ذلك مما حملني على التفكير في مواصلة هذه البحوث التي قد يكون من شأنها أن تساهم في توضيح بعض المواضيع في تاريخ اسبانيـا الاسلامية.

وقصدي الان هو أن أورد في هـذا المقـال بعض الفقرات التي لم يسبق نشرهـا من كتاب «الذخـيرة» لابن بسام ومـن كتاب «ترتيب المدارك» للقاضي عيـاض، واني أثبت تلك الفقرات مرفوقـة بترجمتها وببعض الملحوظـات التي عـن لي أنـه من الضروري ان أشـير اليها.

وقد حرصت على ان اوجز بقدر المستطاع كافة الاحداث التاريخية لهذا العصر، حتى اضع الواقع والاخبار التي تهمنا في الاطار المناسب لها؛ واعني بذلك النصوص التي لم يسبق نشرها من المؤلفين المذكورين، والتي أقدمها عند الخاتمة في **ملحقات** ثلاثة.

سبتة الحمودية

لقد أراد سليمان المستعين عند ما ولي الخلافة للمرة الثانية بقرطبة (26 شوال سنة 403 الموافق لتاسع ماي 1013) (1) اثر الفتن والاضطرابات التي تميز بها عهد محمد المهدي وملك هشام الثاني أن يكافيء الخدمات الجليلة التي قدمها اليه خلفاؤه البرابرة فأسند اليهم حكم بعض المقاطعات . وقد كان علي بن حمود وأخوه القاسم أميرين ادريسيين ورئيسين للقوات الافريقية المرابطة عند «سيكوندة»، فخصهما الخليفة بالتبريز والانعام، اذ عين عليا حاكما لسبتة و ولى القاسم على الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا؛ وقد جاء هذان التعيينان مفاجئين للامراء الآخرين، لان الناس كانوا يعلمون علم اليقين ان الاخوين كانا يطمعان في الخلافة، وان عليا كان يزعم انه عين خليفة من قبل هشام الثاني قبل موته. وربما كان هذا الامر سببا في حمل سليمان المستعين على ان يقرر ابعادهما عن العاصمة حتى يكون في مأمن من دسائسهما (2).

ولما وصل على بن حمود الى سبتة ليتقلد منصبه كان أمر هذه المدينة بيد القاضي أبي بكر محمد بن عيسى بن زويع والفقيه ابن يربوع. وقد أورد القاضي عياض ترجمة ابن زويع في «كتاب ترتيب المدارك»، مقتفيا في بعض ذلك أثر ابن حيان؛ فنحن نعلم من الاخبار التي أثبتها ان ابا بكر ابن زويع قد ولد بالبصرة (3) و ولي منصب صاحب الشرطة العليا، كما كان قاضيا بسبتة وأصيلا و **المغرب**؛ وقد سافر الى الشرق حتى بلغ العراق حيث تعلم على كبار أساتذة هذا القطر، ثم عاد الى قرطبة حيث اصبح صديقا خاصا لابن ذاكوان قاضي الجماعة بها (4). ويظهر ان ابن زويع كان ناظرا على الاملاك الحبسية باشبيلية، اذ حدث ذات مرة ان طلب منه ابن ذاكوان أن يقرضه من أموالها، فتبين أنه كان يتاجر بها حتى استغنى؛ وقد نصح ابن ذاكوان المظفر بن المنصور فعينه قاضيا على سبتة. وقد صدر هذا التعيين بعد شهر رمضان لسنة 392 أغسطس 1002) (5) التي تقلد فيها زمام السلطة.

وكان ابن زوبع ذا اقتدار كبير في النهوض بمهام منصبه؛ الا أن نجمه أفل لما وصل علي بن حمود الى سبتة، فاتهمه بتحريض السكان عليه وأمر بقتله سنة 404 (1014)؛ (5) ولقي الفقيه ابن يربوع نفس هذا المصير أيضا.

وبعد موت ابن زوبع نادى علي بن حمود بنفسه ملكا مستقلا؛ وكان عمره آنذاك يقارب الخمسين، وكان طويل القامة رشيق البنية ذكيا نشيطا جدا ويتكلم العربية بلكنة بربرية قوية؛ وعلينا ان لا ننس ان هؤلاء الحموديين كانوا ينحدرون من غمارة، القبيلة القريبة من سبتة، والتي لم تتأثر بالعرب الا قليلا (6).

وقد استعان بالبربر الصنهاجيين المستقرين بغرناطة وبالفتى خيران الذي كان يحكم المرية فهزم الخليفة المستعين واسره بأحواز قرطبة يوم 22 محرم 407 (فاتح يوليوز سنة1016). فلما كان الغد أمر بقتل الخليفة، المعزول، ثم جرى تتويجه وتلقب بالناصر لدين الله؛ ولم يعارض احد في تتويج علي بن حمود الذي احسن حكم مملكته في الشهور الاولى، اذ أخذ ينزل العقاب الشديد بالجناة والمجرمين الذين كانوا الى ذلك الوقت في امن من العقاب، كما عاقب أفراد القوات البربرية على شططهم وسوء تصرفهم (7).

وقد عين ابنه يحيى الذي كان يبلغ سبعا وثلاثين سنة (8) وليا للعهد وجعل مقره بسبتة؛ ومن المهم جدا ان نثبت هذه القضية ونشير اليها، لان مدينة سبتة أصبحت ابتداء من ذلك التعيين، ورغما عن الخطوب التي مرت بها الاسرة الحاكمة، مقرا دائما للامراء من ولاة العهد كما يمكن لنا أن نتأكد من ذلك أيضا بالنقود التي ضربها الحموديون والتي لا تزال محفوظة الى الآن (9).

وعندما انصرمت ثلاثة وعشرون شهرا على خلافته وكان يستعد للذهاب الى مواجهة المرتضى (10) الاموي الذي كان يطمع في الخلافة، اغتيل علي بن حمود لما كان في حمام قصره يوم فاتح ذي القعدة 408 (22 مارس 1018) (11).

اما البرابرة فقد عينوا خليفة أخاه القاسم الذي كان آنذاك حاكما لمدينة اشبيلية، مخالفين بعملهم ما كان من الحق ليحيى بن علي الذي كان آنذاك موجودا بسبتة. وقد حكم القاسم ثلاث سنوات دون ان يحدث في

مملكته حدث هام، ولو ان يحيى لم يفتأ يتآمر به متعاونا مع الفتى خيران والفتى زهير، صاحبي المرية وجيان و العدوين اللدودين للبرابرة (12).

وعندما راى يحيى بن علي نفسه متوفرا على قوات كافية لخلع عمه نزل بمالقة، ثم توجه في الحال الى قرطبة التي فر منها القاسم بن حمود يوم 22 ربيع الثاني لسنة 412 (5 أغسطس 1021) عندما تخلى عنه البرابرة؛ وبعد تسعة أيام جرى تتويج يحيى بن علي، فاتخذ لنفسه لقب المعتلي (13).

وقد عين وليا لعهده أخاه ادريس، فانتقل من مالقة الى سبتة التي ترك الخليفة الجديد المولى «سكوت» (14) والمولى «رزق الله» حاكمين لها (15).

ومكث ادريس بن علي خمسة عشر عاما بسبتة، الا ان الخبر الوحيد الذي نعلمه عن اقامته بها هو الذي تضمنته الحكاية الواردة في ترجمة قاضي المدينة نفسها، يوسف بن حمود، والتي يمكن الرجوع اليها في ملحقنا الثاني (16). ويظهر ان العلاقات بين ولي العهد والقاضي لم تكن ودية أبدا، فقد أمر ادريس بعزل القاضي الذي كان شخصا معروفا باستقامته قبيل خلافته لاخيه الذي توفي ببلدة «قرمونة»، يوم سابع محرم 427 (12 نونبر 1035) (17).

أما الحاكمان اللذان تركهما يحيى بن علي على سبتة فقد كان «سكوت ابن محمد البرغواطي أقواهما شخصية؛ فقد كان أحد الاسرى الذين وقعوا في قبضة الجيش الذي أرسل لمعاقبة البرغواطيين (18)، ولعل هذا وقع ابان الحملة التي قادها حاكم المنصور الوادع سنة 389 (999) (19). ولعل سن سكوت لم يكن آنذاك يتجاوز السابعة أو الثامنة (20)، وقد اشتراه أحد الحدادين أول مرة (21)، ثم اشتراه علي بن حمود عندما كان حاكما لسبتة باسم سليمان المستعين، وقد أعتقه فيما بعد جزاء له على خدماته الطيبة وشجاعته الفائقة، ثم شغل مناصب هامة بمدينة سبتة قبل ان يعينه يحيى بن علي حاكما لها كما يروي ذلك ابن حيان (22).

وقد كان «سكوت» و «رزق الله» على وفاق تام في القيام بشؤون سبتة واقليمها ابان خلافة ادريس الاول al-Muta'ayyad ويحيى الثاني ابن ادريس و الحسن المستنصر و ادريس الثاني الوالي 23. وعندما عزل هذا الاخير على يد محمد المهدي بمالقة في شهر رجب سنة 438 (يناير 1047) اضطر الى الهجرة الى سبتة حيث ترك ولده و ولي عهده الامير

محمد في رعاية الحاكمين البرغواطيين. وقد قام هذان الحاكمان بتكريم الخليفة واحسان وفادته ولو أنه كان في الواقع أسيرا عندهما، لانهما لم يكونا يسمحان لاحد من الناس بزيارته؛ الا ان بعض الاعيان من البرابرة قد تمكنوا من مقابلته و طلبوا منه مساعدته للتخلص من الحاكمين اللذين كانا يرهقان الشعب بطغيانهما. اما ادريس الساذج فلم يكتف برفض الطلب، بل أحاط الحاكمين علما بتلك المؤامرة. وقد أمر «سكوت» و «رزق الله» بنفي جميع المتآمرين، كما أمرا بطرد ادريس الثاني الذي التجأ الى قصر أبي نور بن أبي قرة الافراني، صاحب رندة؛ الا أنهم احتفظوا بالامير محمد (24) وظلوا يعتبرون ادريس الثاني خليفة شرعيا لهم (25).

ولم يكن للملوك الحموديين الاخيرين الا اتصال قليل بمدينة سبتة؛ فنحن لن نذكر الا اعتقال الحسن السامي، أخي محمد المهدي، وقتله بأمر من «سكوت» 26 (438 – 446 = 1047 – 1055).

وفي سنة 446 (1054 – 1055) قام المعتضد بن عباد، ملك اشبيلية، بمحاصرة الجزيرة الخضراء برا وبحرا، فطلب ملكها القاسم بن محمد من «سكوت» ان يعينه فلم يفعل؛ وعندما وقعت المدينة في قبضة الاشبيليين ذهب ملكها الى سبتة يبحث عن ملجأ بها، فرده «سكوت» ردا التجأ اثره بمدينة المرية حيث مات (27).

سكوت، ملك سبتة

وفي سنة 453 (1061) أمر سكوت البرغواطي بقتل رزق الله وقطع ما كان له من العلاقات والصلات مع جميع الحموديين ونادى بنفسه ملكا مستقلا. وقد اتخذ لقبا خليفيا مزدوجا لم يكن مالوفا وهو «المنصور» و «المعان» (28)، وضرب نقودا باسم الخليفة العباسي القائم بالله عبد الله (1031 – 1075)، أثبت على وجهها الاول الاسماء الثلاثة «المنصور والمعان وسكوت» وعلى وجهها الثاني اسماء «الحاجب، بهاء الدولة، العز» ولده و ولي عهده.

وفي سنة 457 (1065) قامت الحرب بين اشبيلية وسبتة، اذ أمر المعتضد على ما يقول ابن حيان (30) بالقاء القبض على تاجر سبتي فانتقم له «سكوت» باصدار أمره باعتقال عدد من رجال التجارة الذين كانوا من رعايا ملك اشبيلية و بمصادرة أملاكهم أيضا. وقد طالت الحرب مدة مديدة جرت

خلالهـا معارك دامية في ميـاه البوغـاز، وخاصة عند ما قـام ابن عبـاد بتجهيز اسطول يكـاد يكون مشتملا على ثمانـين سفينة متوفرة على الذخـيرة والعتاد بقصد احتلال سبتة؛ وقـد دارت المعركـة الاولى فكـانت لصالح المعتضـد، الا ان الاسطول الاشبيلي اضطر الى الانسحاب بعد معـارك اخـرى فـأصبح البوغـاز تحت سيطرة «سكوت» الذي حصل على منافـع كثـيرة عند ما فرغ لاعمـال القـرصنة.

ولمـا قـام المعتضد بعد خمسة أعوام باحتلال مدينتي «رنـدة» و «آركوس» طرد البـرابرة منهـا فعبروا البوغـاز الى سبتة، غـير أنهم ردوا عنها بـأمـر «سكوت» فماتوا ضحية المجاعة التي حاقت بشمال افريقيا في ذلك التاريخ (31).

وكـان المرابطون (32) في هذه السنوات قـد احتلوا جنوب المغـرب كله وجعلوا يهددون فـاسا التي كـان يحكمهـا تميـم بـن المعنصر؛ أمـا صاحب مكناس وهو المهـدي بن يوسف **الكـزنـائي**، حليف يوسف بن تاشفـين، فقد أصابته الهزيمة فقتله تميـم وأرسل رأسه الى «سكوت». وفي هـذا ما يجعلنا نفترض ان ملك سبتة، وهـو الخليفـة المباشر للحموديـين كـان يعتبر نظريا على الاقـل، الخليفة الشرعي للمقـاطعات الاسبانية السابقة بافريقيـا؛ وبعد ذلك بقليل، جيش الامـير المرابطي سنة 1066 جيشا أرسله على قبائل غمارة التي كانت من رعية «سكوت»، غـير أنه انسحب عنها في الحـال. وفي ثـاني جمادى الثانية لسنة 462 (1070) احتل يوسف بن تاشفين مدينة فاس بصفـة نهائية بعد حصار استمر مـدة طويلة؛ وقد أخـذ ابتداء مـن هذا الوقت يتابع حملاته على الاراضي التابعـة لملك سبتة الذي كـان يحظى بالتاييد التـام من طرف أهالي غمارة البرابرة الاشداء. وبمناسبة تأسيس مراكش (33) على يـد الامـير أبي بكـر بن عمر في اليوم الثالث والعشرين مـن شهـر رجب لنفس السنة (8 مـاي 1070)، أرسل سكوت خطابـا الى المعتضد صاحب اشبيليـة يخبره فيه بـأن زحف المرابطـين العظيم قـد أخـذ يهدد مملكته، مشـيرا الى ان الامراء الاندلسيـين لا يمكنهم ان يظلوا بمعزل عما يجـري وراء البوغـاز. وقد اتخـذ ملك اشبيلية تدابـيره وأمـر حاكم الجزيـرة الخضراء بتحصـين جبل طـارق وبمراقبة السـاحـل مراقبة شديدة (34).

أما المصادر العربية فليست متفقة على تواريخ الاحداث التالية؛ فاذا كان مؤلف «القـرطـاس» يذكـر ان فتح «الدمنة» بناحية طنجة وجبـل علـودان على يد يوسف بن تاشفين قد تم سنة 465 (1072 — 1073)، فـان ابن بسام قـد أورد في «الذخـيرة» ان ذلك الفتح قـد جـرى عام 471 (1078 — 1079) (36).

وكان «الفونسو السادس» في هذا الوقت يهدد الملوك الاندلسيين تهديدا كبيرا، وخاصة منهم المعتمد صاحب اشبيلية الذي أرسل سفارة الى الامير المرابطي يستدعيه الى عبور البوغاز؛ ولعل هذا الوفد كان برئاسة الكاتب ابي بكر بن القصيرة الذى شرع منذ ذلك الوقت يتفاوض مع يوسف بن تاشفين باسم المعتمد ويبرم معه الاتفاقات. الا ان الامير المرابطي قد اقتصر على الجواب بأنه ليس فى مستطاعه ان يستجيب لطلبه ما لم يتمكن سلفا من احتلال سبتة وطنجة (37).

وعندما احتل يوسف بن تاشفين مدينة «الدمنة» بالغ فى تهديد طنجة التي كان أمر الدفاع عنها بيد يحيى ضياء الدولة، ولد سكوت، الذي جند كل القوات وخرج لمقابلة جيش المرابطين الذي كان صالح بن عمران اميرا عليه. ورغم ان «سكوت» كان يبلغ من العمر آنذاك تسعين سنة فقد غادر سبتة وهو مكتمل الاستعداد ليبيع عزيمته بأغلى الاثمان اذ قال «أقسم بالله أن لا يسمع السبتيون طبول اللمتونيين ما دمت حيا» (38).

وقد التقى الجمعان عند بوادي منى على أبواب طنجة يوم فاتح يوليوز 1079 فدارت معركة عنيفة (39) تغلب فيها الفرسان وركاب الجمال الصحراويون على أعالي سبتة بعد مقتل «سكوت» الذي أشاع الهزيمة وأدى الى تشتيت قواته؛ أما ولده يحيى فقد تمكن من الالتجاء بسبتة فى نفس اليوم الذي دخل فيه المرابطون مدينة طنجة (40).

الهجوم النصراني

وفي هذا الوقت كان «الفونسو السادس» يهاجم أراضي بطليوس وطليطلة، ويحتل في شهر شتنبر 1079 مدينة «قورية» الهامة وبلدة «توريطا دي كاثيريس» في السنة التي تليها. وبهذه المناسبة كتب أبو عبد الله بن أيمن، وزير المتوكل، ملك بطليوس، كتابا الى الامير المرابطي يطلب منه المعونة لمواجهة تهديدات ملك قشتالة. وقد ورد في ذلك الكتاب ان على حامله أن يخبره بالحالة في اسبانيا (41).

وفى سنة 1082 أرسل «الفونسو السادس» وفدا الى اشبيلية برئاسة اليهودي ابن شالب لتحصيل الجزية السنوية؛ الا ان اليهودي أساء الادب على المعتمد فغضب وقتله وأمر بتصليبه بعد ذلك؛ وقرر الملك القشتالي أن ينتقم فبعث جيشين اثنين كلف احدهما بتخريب أراضي باجة و «نيبيلة»، وترأس

بنفسه ثانيهما فهجم على «**الجرف**». وقد عسكر الجيشان النصرانيان في «تريانة»، قبالة قصر المعتمد، فأرسل «الفونسو السادس» كتابا يهدد فيه ملك اشبيلية الذي أجابه جوابا أشار فيه الى قرب تدخل المرابطين. وابتداء من هذا الوقت أخذ المعتمد يتصل بغيره من ملوك الطوائف ويطلب تأييد القضاة لتبرير قراره؛ وبعد ذلك كتب الى المتوكل صاحب بطليوس والى عبد اله صاحب غرناطة يطلب منهما ايفاد سفير لكل منهما للمشاركة في الوفد الذي يعتزم ارساله الى طنجة بقصد طلب تدخل يوسف بن تاشفين في الجهاد.

اما الوفد فقد كان مؤلفا من قضاة بطليوس وغرناطة وقرطبة، وهم اسحق بن **موكانة** وأبو جعفر بن **القلاعي** وعبيد الله بن أدهم، وقد كان ابو بكر بن زيدون، وزير المعتمد، رئيسا عليهم. أما يوسف بن تاشفين فكان في هذه الاثناء قد طلب من ملك سبتة أن يأذن للجيش المرابطي بعبور البوغاز؛ الا ان العز قد اعتذر، فأمر أمير مراكش باجتماع الفقهاء ليصدروا فتواهم ضد ملك سبتة؛ وقد فعل السفراء الاندلسيون نفس الشيء، وكان يوسف قد احسن حقا اقتبال أولئك السفراء (42).

فتح المرابطين لسبتة

وقام يوسف بن تاشفين سنة 475 (فاتح يونيه 1082 – 20 ماي 1083) بمحاصرة سبتة، كما أرسل الى اشبيلية وفدا برئاسة القاضي عبد المالك المصمودي وابن الحسن بقصد اشتراء الاسلحة والذخيرة، وربما للتعرف أيضا على حقيقة الحالة الناتجة عن زحف النصارى؛ الا ان الامير الاشبيلي قد استبقاهم وقتا طويلا فكان ذلك سببا في قلق أمير المرابطين (43).

وقام المعتمد في السنة التالية ببناء سفينة ذات حمولة كبرى فأرسلها الى طنجة في أغراض تجارية؛ فلما رأى يوسف بن تاشفين تلك السفينة أعجب بها اعجابا كبيرا وكتب اليه كتابا يطلب منه فيه أن يزود تلك السفينة بالعدة اللازمة ويرسلها على سبتة، وأنه كان في ذلك الوقت بصدد اعداد اسطول هام لهذه الغاية نفسها. ومن المهم جدا ان نشير الى هذا الامر لانه أول خبر نقف عليه فيما يرجع الى نشأة البحرية المرابطية (44).

وقد أصبح الحصار تاما في شهر صفر من سنة 476 (يونيه – يوليوز 1083) فخرج العز بن سكوت على رأس اسطوله فدارت المعركة الاولى لصالحه حيث تمكن من أسر احد المراكب الهامة من مراكب الاسطول المرابطي؛ وقد

انتشر الذعر في معسكر المعز بن يوسف بن تاشفين فجعلت القوات المارابطية تنسحب وتحرق بعض الخيام حتى لا تقع في قبضة السبتيين. الا ان الامير المرابطي تقدم حتى أصبح في طليعة قواته فاستنهض رجاله وأثار الحمية في نفوسهم حتى انهم تمكنوا من احتلال سبتة في ساعات معدودات، مستعينين على فتحها بعمل اسطولهم الفعال. وقد حاول العز أن يفر بحرا بعد أن فاته الاوان فاحتمى ببناية عمومية مع بعض مساعديه المخلصين (45)؛ الا أن دورية مرابطية اكتشفتهم فدار قتال مرير وحاول العز ان ينجو بنفسه لما تخلى عنه مساعدوه فسلم الى قائد حرسه جميع الحلي والاحجار الثمينة التي كان يحملها معه والتي كان من بينها خاتم يحيى بن علي (46)؛ ثم استسلم صباح الغد فسيق أمام المعز الذي قتله بسيفه (47).

سبتة في القرن الحادي عشر

اما الحالة التي كانت عليها مدينة سبتة لما استقل «سكوت» بها فيصفها لنا البكري المتوفى سنة 487 (1094) (48) والذي عاصر سكوت، والادريسي (49) المولود بسبتة حوالي سنة 1099.

اما البكري فيقول من بين ما يقول عن هذه المدينة انها كانت محوطة باسوار متينة للغاية بناها عبد الرحمن الثالث، وكان لها ربضان أحدهما الى الشرق في جبل الميناء الذي كان المنصور قد بدأ فيه بناء سور؛ أما الربض الثاني فكان الى الغرب ومفصولا عن المدينة بخندق يخترقه سور عليه تسعة ابراج؛ وكانت المدينة تسقى بماء يؤتى به من ساقية **«العويات»**.

أما المسجد الجامع فكان يتألف من صحن وخمسة أبهاء وصهريجين (50)، بينما كان سكان سبتة من عرب قبيلة «السدف» و من برابرة أصيلا والبصرة.

وقد أبرز الادريسي أهمية ميناء سبتة الذي يوجد في مأمن من مختلف أنواع الرياح، كما أبرز وفرة السمك بشواطئها، وخاصة صيد الطون؛ وكان يستخرج من هذه الشواطىء جوهر ذو جودة فائقة، فكان نحته وصقله يباشر في سوق خاصة فيصدر الى جميع الاقطار وخاصة الى غانة والسودان؛ أما أحواض بناء السفن لهذه المدينة فكانت في قصر المجاز أو القصر الصغير.

وربما كان البرغواطيون قد اتخذوا «بليونش» مكانا لاقامتهم في الصيف ولو أننا لا نتوفر على معلومات ثابتة بهذا الشأن؛ والذي يجعلنا نفترض ارتقاء «بليونش» الى هذه المكانة حتى أصبحت مكانا للمتعة والراحة هو ما قاله ابن حيان وأورده المقري (51) اذ قال :

«ومتنزهاتها أشهرها بليونش، تحتوي على مياه عيون، وأودية، وأبنية عظيمة، وفيها من جميع الاشجار والثمار».

وأما القاضي عياض الذي ولد بسبتة سنة 476 (1083)، أي بعد خمسة أعوام على موت «سكوت»، فقد خص بليونش بهذين البيتين :

بليونش جنة ولكن طريقها يقطع النياطا
كجنة الخلد لا يراها الا الذي جاوز الصراطا (52)

الشعراء والفقهاء

لقد سار سكوت وولده الحاجب على سيرة معظم ملوك الطوائف فقربا الشعراء والعلماء الذين برز من بينهم ابن مرانة وابن غازي الخطيب وابن عطاء الكاتب.

أما قيمة هؤلاء الشعراء الثلاثة فقد أبرزها قول المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية في مناسبة من المناسبات أتمنى لو كان بجانبي ثلاثة من رجال سبتة : ابن غازي الخطيب وابن عطاء الكاتب وابن مرانة الفرضي (53).

وقد أورد ابن دحية في «المطرب» (54)، ديوانه الشهير للشعراء العرب والاندلسيين أبياتا لابن غازي الخطيب وابن عطاء الكاتب؛ فقد قال أولهما في وصف ناقة :

حرف كمثل الصاد الا انها بعد السرى جاءت كحرف النون
كالبدر قدره الا له منازلا في الافق حتى عاد كالعرجون

قال :

والحرف. الناقة المسنة. وقال ابو زيد سعيد بن أوس اللغوى : هي النجيبة التى أنضتها الاسفار وانكر على من قال : هي المهزولة. وقال صاحب كتاب العين : هي الصلبة. شبهت بحرف الجبل. ثم قال شبهت بحرف السيف في مضايها.

وقـــال :

انشدني أيضا قال : انشدني أبي. قـال : انشدنـي الشيخ أبـو علـي الحسن بن علي بن الفضل الفقيه. قـال : انشدني خالك ابو بكر محمد بن علي المعـافري ـ المعروف بابن الجوزي ـ للكاتب ابي بكـر بن عطاء كاتب صاحب سبتة الحاجب بهـاء الدولة وكاتب أبيه قبله :

سأمنـع قلبـي أن يكـون لكم مثوى ... واستدفع البلوى واستصرف اللأوا
وما سرني بعـد الـرضـا اذ غدرتـم ... وغادرتكم بين الحشى هضبتني رضوى
وصـيرتـم العتبـى عتـابـا فكلمـا ... ابثكـم شجوى تزيـد وتني شجـوا
قضى الله ان أقصى واصفيكـم الهـوا ... وغـيرى يستدنى وان كـان لا يهوى
وما كـان ظني قبل ذا ان حـاسدي ... بمنهلكـم يـروى وانـي لا ا ر و ى
ومـا جلت البلـوى علـى وانمـا ... شماتـة اعـدائي اجـل مـن البلوى

وكان بسبتة من فحول الشعراء البرغواطيـين ابو محمد عبد الله ابن القابلة السبتي وعلي بـن عبد الغني الحصري القرواني (58).

واذا كـان سكوت قد اهتم باستقدام أعلام الشعراء الى قصره، فان اهتمامه بكبار فقهـاء عصره كـان اعظم؛ ومن هؤلاء أبـو **الاصبـاغ** بن سهل الجيـاني الذي درس بقرطبة وغرناطة وطليطلة، ثم انتقل الى سبتة حيث قام في مسجدها الجامع بتدريس الفقه للقضاة ابـن عيسى التميمي (59) وابي محمد بن منصور، قاضي الجماعـة، (60) وأبي اسحـق اللواتي وغيرهم (61)؛ اما ابن سهل فكان قاضيا بطنجة ومكناس، ثـم عـاد الى غرناطـة حيث مات سنـة 486 (1093) وعمره ثلاثة وسبعون عاما (62). وأهم مؤلفاتـه «كتاب الاعلام بنوازل الاحكام» أو «الاحكام الكبرى»؛ ولهـذا الكتـاب أهمية أساسية لمعرفـة الاعوام الاخـيرة لخلافـة قرطبة، نظرا لمـا جمعه المؤلف من الفتاوي الهامة (63).

ولنا شاهد على اهتمام «سقوت» بنشر الدراسات الدينية وتعميمها فيما قصه ابن عـذاري (64) حيث قال «تلقى أبو الوليد بن جهور صاحب قـرطبـة ذات يوم ثـلاث رسائل احداها لابن عباد صاحب اشبيلية واخـرى للمعتصـم صاحب المريـة والثالثة سقوت صاحب سبتـة. أمـا الاولان فقد طلبـا منـه ان يرسل اليهما مغنيـات، بينما طلب سقوت ان يبعث اليه مقرئـا للقـرآن؛ عند ذلك قال ابن جهور «ان الجاهل يطلب مقرئا للقرآن بينما العالمـان يطلبان التوافـه». وقد أرسل ملك قرطبة الى سقوت الفقيه عون الله بن نـوح الـذي لم نتمكن من الوقوف على حقيقة شخصيته.

المراجع

(1) انظر الصفحتين 18 و 19 من كتاب «جذوة المقتبس» للحميدي، المطبوع بالقاهرة، والصفحتين 43 و 44 من كتاب «المعجب» (لعبد الواحد المراكشي، طبعة القاهرة أيضا؛ وكذلك الصفحات 110 ـ 113 من كتاب «البيان المغرب» لابن عذاري في الجزء الثالث من طبعة «ليفي بروفنسال»، والصفحة 90 من الجزء التاسع حسب طبعة القاهرة من كتاب «الكامل في التاريخ» لابن الاثير، والصفحات 116 ـ 119 من كتاب «الاعمال» لابن الخطيب الذي طبعه «ليفي بروفنسال» في بيروت؛ وكذلك كتاب «الحموديون، سادة مالقة والجزيرة الخضراء» لصاحبه «سيكودي لوثينا»، المطبوع بمالقة سنة 1955 والمراجع التي أوردها هذا المؤلف أيضا.

(2) انظر أيضا «جذوة المقتبس» و «المعجب»، وكذلك الصفحة 26 من كتاب «الذخيرة» لابن بسام، المطبوع بالقاهرة والصفحة 114 من الجزء الثالث من كتاب «البيان المغرب»، وكذلك كتاب «الاعمال»، والصفحة 111 في الجزء التاسع من كتاب «الكامل».

(3) مدينة كانت موجودة بجنوب مدينة القصر الكبير واندثرت في أوائل القرن الهجري الثالث (القرن الميلادي التاسع)؛ وانظر كذلك الصفحات 217 ـ 238 من مجلة «هيسبريديس» الصادرة سنة 1955 والمتضمنة للبحث المعنون «البصرة، العاصمة الادريسية ومرساها».

(4) عين المنصور ابن ذاكوان سنة 392 (1002 ميلادية) فعزله ابنه المظفر طيلة تسعة أشهر من عام 397 (1007)، ثم أعيد الى منصبه حتى نفاه «**وديع**» عندما كان البرابرة يحاصرون قرطبة؛ انظر الصفحات 84 ـ 87 من كتاب «**المرقبة العليا**» **للنباهي** الذي طبعه «ليفي بروفنسال»، والصفحتين 210 ـ 211 من الجزء الاول من كتاب «المغرب» لابن سعيد؛ والصفحة 174 من كتاب «البغية للضبي؛ وكذلك كتاب «ترتيب المدارك» للقاضي عياض، وهو مخطوط لم ينشر بعد، يحتفظ به «المجمع الملكي للتاريخ» (الجزء السابع).

(5) انظر الصفحتين 562 ـ 563 في الجزء الثاني من كتاب «الصلة» لابن بشكوال، المطبوع في القاهرة، حيث يثبت السنتين 401 ـ 402؛ وكذلك الصفحة 115 في الجزء الثالث من كتاب «البيان»؛ والصفحة 121 من كتاب «الاعمال» حيث يرد التاريخ الحقيقي المضبوط وكتاب «ترتيب المدارك» الذي نورد نصه في ملحقنا الاول مرفوقا بترجمته؛ وانظر أيضا الصفحة 475 في الجزء الاول من الترجمة الاسبانية لكتاب «تاريخ اسبانيا الاسلامية» لصاحبه «ليفي بروفنسال».

(6) انظر الصفحة 120 في الجزء الثالث من كتاب «البيان».

(7) راجع الصفحات 20 ـ 22 من كتاب «جذورة المقتبس» والصفحات 78 ـ 83 من كتاب «الذخيرة والصفحات 44 ـ 50 من كتاب «المعجب» والصفحات 119 ـ 124 من كتاب «البيان»، والصفحات 121 ـ 129 من «كتاب الاعمال»، والصفحات 111 ـ 113 من الجزء التاسع من كتاب «الكامل»؛ وكذلك الصفحة 194 في الجزء الثاني من كتاب «المغرب».

(8) الارجح أن يكون قد ولد حوالي سنة 370، لانه عند ما خلع عمه عام 412 كان يبلغ من العمر 42 سنة؛ انظر الصفحة 121 من الجزء الثالث من كتاب «البيان».

(9) انظر الصفحات 109 والتاليات لها فيما كتبه «بريبطو فيفيس» عن «ملوك الطوائف» عام 1926 ونشره بمدريد؛ وكذلك ما كتبه «كوديرا» في الصفحات 113 والتاليات لها ونشره بمدريد سنة 1879 عن «النقود العربية الاسبانية».

(10) انظر الصفحات 125 والتاليات لها في الجزء الثالث من كتاب «البيان»، وكذلك الصفحتين 130 و 131 من «كتاب الاعمال».

(11) دفن علي بن حمود وكذلك ولده ادريس بمدينة سبتة؛ فقد كان للحموديين مقبرة بها. انظر الصفحتين 130 و 289 في الجزء الثالث من كتاب «البيان»، وكذلك الصفحة 48 من الطبعة الثانية الصادرة سنة 1957 من كتاب «مالقة الاسلامية» لصاحبه «غيين روبليس»؛ وانظر كذلك عن هذه المعلومات الصفحات 122 والتالية لها في الجزء الثالث من كتاب «البيان والصفحة 28 والصفحات التالية لها أيضا من كتاب «الذخيرة» والصفحة 129 والتاليات لها من «كتاب الاعمال»، والصفحة 50 والتاليات لها من كتاب «المعجب»، والصفحة 112 في الجزء التاسع من كتاب «الكامل».

(12) انظر الصفحات 124 ـ 127 من كتاب «البيان» والصفحتين 130 و 131 من «كتاب الاعمال» والصفحة 112 في الجزء التاسع من كتاب «الكامل» والصفحات 50 ـ 52 من كتاب «المعجب».

(13) انظر بالاضافة الى المراجع الواردة في التقييد السابق كتاب «الجذوة» في صفحتيه 22 ـ 23؛ والصفحة 154 من الجزء الثاني من كتاب «تاريخ البربر» لابن خلدون (ترجمة سلان) والصفحة 407 من كتاب «نفح الطيب» للمقري في الجزء الاول من طبعة القاهرة.

(14) ورد هذا الاسم مكتوبا على عدة أشكال منها «سكوت» و «سكات» سواجات وأشهرها هو الاسم الاول «سكوت».

(15) يسميه ابن بسام «أبا **الاعطاف**»؛ أما باقي المؤرخين فيسمونه «رزق الله». انظر فيما يرجع الى هذين الاسمين النص الوارد من كتاب «الذخيرة» في الملحق الثالث.

(16) انظر ما ورد في الصفحتين 473 و 474 من كتاب «البغية» للضبي حول هذا القاضي السبتي، حيث يثبت تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته، 357 ـ 428 (967 ـ 1036) والصفحة 645 في الجزء الثاني من كتاب «الصلة» لابن بشكوال.

(17) انظر الصفحات 24 ـ 26 من كتاب «جذوة المقتبس»، والصفحات 34 ـ 40 من كتاب «الذخيرة»، والصفحات 54 ـ 57 من كتاب «المعجب»، والصفحتين 135 و 145 في الجزء الثالث من كتاب «البيان»، والصفحات 134 و 136 من «كتاب الاعمال»، والصفحة 114 في التاسع من كتاب «الكامل».

(18) انظر حول هؤلاء الكفار البرابرة المقال الذي نشره «لوطورنو» في الطبعة الجديدة من «موسوعة» (الصفحتين 1075 ـ 1076 من الجزء الاول).

(19) انظر «انظر مفاخر البربر» الذي طبعه «ليفي بروفنسال» بالرباط سنة 1934 (الصفحات 35 ـ 37)؛ وكذلك الصفحات 248 ـ 250 من الجزء الثاني من كتاب «تاريخ البربر»؛ والصفحة 353 من الجزء الاول من كتاب «البيان».

(20) مات سنة 471 (1079 ميلادية) وهو يقارب التسعين؛ انظر «روض القرطاس» (الصفحة 92 من طبعة المستشرق «طورنبرغ»).

(21) انظر الصفحتين 28 و 29 من كتاب «الاستقصا» لصاحبه الناصري السلاوي (الجزء الثاني في طبعة الدار البيضاء سنة 1954. ولقد تفضل الدكتور محمود مكي نائب مدير معهد الدراسات الاسلامية بمدريد عند ما كنت مشرفا على انهاء هذا البحث فمكنني من مخطوط جديد من كتاب «مفاخر البربر» فاستطعت التحقيق عنه بسرعة؛ فقد ورد فيه «أن سكوت كان عبدا لحداد اشتراه من سبي برغواطة، ثم دخل في ملك علي بن حمود الادريسي الفاطمي».

(22) انظر الملحق الثالث.

(23) انظر الصفحة 32 والصفحات التي تليها من كتاب «جذوة المقتبس» فيما يرجع الى هؤلاء الخلفاء الحموديين؛ وانظر كذلك الصفحتين 65 و 66 من كتاب «المعجب»، والصفحة 217 والصفحات التي تليها من الجزء الثالث من كتاب «البيان» والصفحة 141 والصفحات التي تليها من كتاب الاعمال.

(24) يقول الضبي في الصفحة التاسعة والعشرين من كتاب «البغية» ان محمد المهدي قد سجن الامير محمدا وأوهم الناس بأنه موجود بمالقة، وبعد بضعة أعوام اعتلى هذا الامير العرش متخذا لقب «المستعلي» الى أن خلعه باديس غرناطة في التاسع والعشرين من شهر ربيع الثاني لسنة 448 (17 يوليوز 1056). وبعد ثمانية أعوام نادى به أهل مليلية خليفة،

وقـد مات بهذه المدينة سنة 460 (1067 و 1068). انظر الصفحة الحاديـة والتسعـين من كتاب «**المرقبة** العليا» والصفحة 411 من الجزء الاول من كتاب «نفح الطيب» المطبوع بالقاهرة سنة 1949.

(25) لم يـرد خبر عـن اقامـة ادريس بسبتـة الا في كتـاب «المعجب» وحـده، وذلك في الصفحة السابعة والستـين.

(26) انظر الصفحة 32 من كتاب «جـذوة المقتبس» والصفحتين 67 و 68 من كتاب «المعجب» والصفحتين 26 و 30 من كتاب «البغية»، وكذلك الصفحة 218 من الجـزء الثالث من كتـاب «البيـان» والصفحـة 142 مـن كتاب الاعمـال.

(27) انظر الصفحات 213 و 231 و 242 مـن الجـزء الثـالث من كتـاب «البيـان» والصفحة 249 من الجـزء الاول من كتاب «بنو عباد» لصاحبه «دوزي».

(28) انظر الصفحة 250 من الجزء الثالث من كتـاب «البيان» والملحـق الثـالث أيضا.

(29) انظر الصفحـة 117 مـن كتـاب «ملـوك الطـوائف» لصـاحبـه «بـريبطـو فيقيس»، حيث يصف أربعـة نقـود ضـربت خـلال 464 ــ 467 (1071 ــ 1075)، وكذلك نقد آخـر لا تاريخ له ويختلف الاسمان الواردان فيه، اذ يذكـر «الحاجب ضياء الدولة سكـوت» في الوجـه الاول ويذكـر «ضيـاء الدولة العـز» في الوجـه الثاني.

(30) انظر الملحـق الثالث.

(31) انظر الصفحـة 210 مـن الجـزء الثـاني مـن كتـاب «بنو عباد» والصفحة 273 من الجزء الثالث من كتاب «البيان».

(32) انظر الصفحة 297 والصفحات التي تليهـا في ترجمـة «بوميـير» لكتاب «روض القرطاس»، والصفحـة 67 والصفحـات التي تليها مـن كتـاب «تاريخ البربر» والصفحة 258 والصفحات التالية لها في الجزء التاسع من كتاب «الكـامل»، والصفحة 26 والصفحات التالية لها في ترجمـة «عويسي» لكتـاب «الحلـل الموشية». أما فيما بين المؤلفـات التي نشرت حديثـا عـن المرابطـين فانظر تاليف «خ. بوش فيـلا» بعنوان «المرابطون» المنشور بتطوان سنة 1956 وكتاب «قيام دولـة المرابطـين» لصاحبه حسن أحمد محمود، المنشور بالقاهرة سنـة 1957.

(33) انظر كتاب «تاسيس مراكش» لصاحبه «ليفي بروفنسال»، وكذلك الصفحـات 117 ــ 120 من كتاب «خليط من التاريخ والآثـار في الغرب الاسلامي» لصاحبه «جورج مـارسي» المطبوع سنة 1957 بمدينة الجزائر.

(34) انظر الصفحة 251 من الجزء الاول من كتاب «بنو عباد» وكتاب «الذخيرة» حسب مخطوط بغداد، والصفحة 196 والصفحات التالية لها في كتاب «روض القرطاس» والصفحة 26 في الجزء الثاني من كتاب «الاستقصاء» لاحمد الناصري السلاوي.

(35) مجموعة بنايات كتامية بين أصيلة وطنجة؛ انظر الجزء السابع من كتاب ترتيب المدارك للقاضي عياض.

(36) انظر الصفحة 202 والصفحات التالية في مخطوط بغداد من كتاب «الذخيرة»، وملحقنا الثالث أيضا. راجع كذلك الصفحة 199 من كتاب «روض القرطاس» والصفحة السابعة والعشرين من الجزء الثاني من كتاب «الاستقصا».

(37) يرد تاريخ هذه السفارة الاشبيلية الاولى في الصفحة 200 من «روض القرطاس» مؤرخا بسنة 467 (27 أغسطس 1074). أما عن ابن القصيرة الذي كان في خدمة يوسف بن تاشفين وتوفي سنة 508 (7 يونيه 1114) فانظر مخطوط بغداد من كتاب «الذخيرة» والصفحة 350 في الجزء الاول من كتاب «المغرب» والصفحات «104 ــ 106 من كتاب «قلائد العقيان» للفتح بن خاقان، والصفحة 539 في الجزء الثاني من كتاب «الصلة» لابن بشكوال، والصفحة 164 من كتاب «المعجب» للمراكشي، والصفحة التاسعة والعشرين من الجزء الثاني من كتاب الاستقصا.

(38) انظر الصفحة الثانية والتسعين من كتاب «روض القرطاس» طبع المستشرق «طورنبورغ».

(39) ورد في مخطوط بغداد لكتاب «الذخيرة» أن هذه المعركة قد دارت يوم الكسوف الكلي لسنة احدى وسبعين وأربعمائة؛ وقد تمكنت بفضل المرصد الفلكي لمدريد من تحديد تاريخها فكان اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجة 471. انظر ملحقنا الثالث.

(40) انظر ملحقنا الثالث والصفحتين 200 و 201 من «روض القرطاس» والصفحتين 28 و 29 من الجزء الثاني من كتاب «الاستقصا».

(41) انظر الصفحتين 201 و 202 في مخطوط بغداد من كتاب «الذخيرة»؛ وقد ورد نص هذه الرسالة في الصفحات 48 ــ 50 من كتاب «الحلل الموشية»، الا ان مترجمها، «هويسي ميراندا»، يعتبر نص تلك الرسالة مزورا غير صحيح، وقد عاصر ابن بسام هذه الحوادث اذ مات عام 1147؛ وايراده لتلك الرسالة يؤكد لنا صحة هذه الوثيقة. وقد تعرض الاستاذ «مينينديث بيدال» في الصفحتين 265 و 763 من الطبعة الخامسة لكتابه «اسبانيا السيد» لها، مستندا على الدوام الى «ثوريطا دي لوس كانيس»؛ غير انه يظهر لنا من حيث المنطق بأن الهجوم الذي شنه «ألفونسو السادس» على ملك بطليوس قد سلك فيه الطريق الذاهبة من «طلبيرة» الى «غواد الوبي» الى «ثوريطا»

الى «ماردة» فبطليوس. ولما رأى الملك المتوكل الخطر المهدد لمملكته استنجد بيوسف بن تاشفين؛ وما كنا لنجد شرحا لهذا الموقف لو كان الامر متعلقا بتوريطا دي لوس كانيس» في وادي الحجارة.

(42) انظر الصفحات 84 ـ 87 من كتاب «الروض المعطار» للحميري؛ وقد ورد في الصفحتين 55 و 56 من الترجمة المذكورة لكتاب «الحلل الموشية» أن هذه الوقائع قد جرت سنة 477 (10 ماي 1084 ـ 28 أبريل 1085). انظر كذلك الصفحتين 299 و 300 من كتاب «اسبانيا السيدة» لمؤلفه «مينينديث بيدال»، والصفحة السابعة والثلاثين في الجزء الثاني من كتاب «الاستقصاء».

(43) انظر مذكرات الملك زيري عبد الله في الصفحات 72 ـ 74 من الجزء الرابع من مجلة «الاندلس»، والصفحة الخامسة والخمسين من كتاب «الحلل الموشية».

(44) آثرنا السير طبق ما ورد الفقرة التي لم تنشر من كتاب ابن بسام .

(45) جاءت في «الذخيرة» بهذا الصدد كتابة تحمل على بعض الشك؛ وقد قرأناها «دار التنوير» التي يمكن أن تشير الى منارة.

(46) يؤكد لنا هذا الخبر ما ذهبنا اليه من القول بان البرغواطيين كانوا يعتبرون أنفسهم ورثة للحموديين.

(47) انظر «تاريخ البربر» الذي يثبت ان هذه الوقائع قد جرت في شهر ربيع الثاني من السنة نفسها (أغسطس ـ شتنبر 1083)؛ أما «روض القرطاس» فيشير في الصفحة 203 حسب ترجمة «بوميير» الى أن تلك الوقائع قد حدثت في شهر ربيع الثاني، ولكن من 477 (1084) ولو أن طبعة «طورنبورغ» تثبت شهر ربيع الاول. أما كتاب الاستقصا فيحذو في صفحته السادسة والعشرين من جزئه الثاني حذو «القرطاس».

(48) انظر الصفحات 102 ـ 104 من النص العربي لكتاب «وصف افريقيا الشمالية»، ونفس الصفحات أيضا من ترجمة «سلان» لهذا الكتاب.

(49) انظر الصفحتين 167 و 168 من نص «وصف افريقيا واسبانيا» والصفحات 199 ـ 201 من ترجمة «دوزي» و «غوج» لهذا الكتاب أيضا.

(50) يقول ابن الابار في الصفحة الرابعة والخمسين من كتابه «المعجم» ان المقصورة لم يكن بناؤها قد تم في سنة 490 (19 دجنبر 1096) ولو ان الانصار يشير في كتابه «اختصار الاخبار» الذي طبعه محمد ابن تاويت واورده في الجزئين الثالث والرابع من «مجلة تطوان» (1958 ـ 1959) الى ان المقصورة قد بنيت في شهر رجب سنة 428 (ماي 1037)، انظر كذلك ترجمتي لهذا النص في العدد السابع والعشرين من مجلة «الاندلس» (الصفحات 398 ـ 442) الصادرة سنة 1962.

(51) انظر الصفحة الرابعة عشرة من الجزء الاول من «أزهار الرياض».

(52) كـذلك

(53) انظر الصفحة 183 في الجزء الثالث من كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي، في طبعة بيروت.

(54) انظر الصفحتين 89 و 90 في طبعة القاهرة.

(55) يرجع الى الاصل العربى فى «**كتاب العين**» لابي زيد سعيد اللغوي.

(56) قافية «وا» فى الطويل.

(57) انظر «كتاب رايات المبرزين» لابن سعيد (الصفحة 275 من ترجمة وطبع «غارثيا غوميث».

(58) انظر الصفحات 192 ـ 205 و 208 ـ 219 من كتاب «الذخيرة»، والصفحة 410 فى الجزء الثاني من كتاب «الصلة»، والصفحة 296 من كتاب «جذوة المقتبس» والصفحة 44 والصفحات التي تليها من كتاب «المعجب»، والصفحات 19 ـ 21 من الجزء الثالث من كتاب «وفيات الاعيان» لابن خلكان المطبوع سنة 1948 بالقاهرة، وكذلك الصفحتين 213 ـ 214 من كتاب «**نكت الهميان**» للصفدي المطبوع بالقاهرة سنة 1911.

(59) انظر الصفحة 96 من كتاب «المعجم» لابن الابار، والصفحة 572 من الجزء الثاني من كتاب «الصلة»، والصفحة 159 من الجزء الثالث من «أزهار الرياض» للمقري، والصفحة 124 من كتاب «**السيارات**» لابن مخلوف، المطبوع بالقاهرة سنة 1349 هجرية.

(60) انظر الصفحة 204 من كتاب «المعجم» لابن الابار.

(61) انظر الصفحة 102 من الجزء الثاني من كتاب «الصلة» والصفحة الرابعة والخمسين من كتاب «المعجم».

(62) انظر الصفحة 415 فى الجزء الثاني من كتاب «الصلة» وكتاب «البغية» (رقم 1145) والصفحة 432 من «الفهرسة» لابن الخير، والصفحتين 181 و 182 من كتاب الديباج لابن فرحون، والصفحتين 97 و 98 من كتاب «**المرقبة** العليا»، حيث يقول المؤلف ان عبد الله، أمير غرناطة، قد ارسله الى سبتة سفيرا لدى يوسف بن تاشفين.

(63) انظر الصفحة 80 من كتاب «اسبانيا الاسلامية في القرن العاشر» لصاحبه «لفي بروفنسال»، وكذلك الصفحة 81 والتقييد الثاني، والصفحة 479 من الجزء الاول من «غال» لصاحبه «بروكلمان» وما الى ذلك من الملحقات.

(64) انظر الصفحة 250 من الجزء الثالث من كتاب «البيان».

APENDICE I

El qāḍī de Ceuta Ibn Zawbaʿ

Según el *Kitāb Tartīb al-Madārik* del qāḍī ʿIyāḍ,
ms. de la R.A.H. de Madrid, f^os^ 20 r. - 20 v.

ابو بكر بن عيسى رحمه الله ويعرف بابن زوبع من اهل سبتة، وقال ابن حيان ابن زوبع من اهل العلم والادب واجل قضاة سبتة، وكان تخطط بالشرطة العليا وقضاء سبتة وأصيلا والمغرب، كذا رأيت السجلات تنعقد عليه.ويقال ان اصله من البصرة وله رحلة الى الاندلس، ويقال انه دخل العراق وحج ولقى علماء البلاد، ورجع الى قرطبة فاختص بابن ذكوان وهو كان الحوقة (1) به لما وجد عنده من العلم. وكان له مال واسع، وذلك ان قاضي الجماعة تسلف له مالا من مال الاحباس باشبيلية، واخرجه في زيت باسمه، فعاد عليه منه عائد كان أصل ماله فيما ذكر.

وكان حسن السيرة في قضائه، وايامه مشهورة لعلومكانه وسمعة علمه وبعد صيته. قال لي بعض الشيوخ وكان متفننا في علمه، نظارا صاحب حجة وجدال، عالما بالحديث.

قال ابن حيان : وكان له منزلة عالية عند سلطان الاندلس متمكن الاسباب لديه، وهو آخر قضاة بني أمية بسبتة. قال أبو مرو ان بن حيان : وكان من وجوه أصحاب ابن ذكوان وله في العلم والفقه والصرامة درجة سامية (و) قدم صدق ادته الى المنية.

وقال : وقلده المظفر قضاء سبتة بلده وعمله بارشاد ابن ذكوان اليه، وذلك عند اختياره لخطة قضاء أهله، فحمدت ولايته واتصلت الى أن قامت الفتنة، وسما قاسم بن حمود الى الخلاق على بني مروان بسبتة، فكان من قضيها هذا عنه بعض التأخر، فاغرى به العامة وقتله، ورعب الناس بقتله فلم يختلفوا عليه، وخبره مشهور في الجرالة.

وما قاله ابن حيان من اغرائه للعامة غير صحيح فقد كان اجل في قلوبهم من ذلك، وانما قتله رجال بني حمود، والصحيح أن الآمر بقتله علي بن حمود وأخوه قاسم، وذلك بعد الاربعمائة، وقد بسطت أخباره في ذكر قضاة سبتة من تاريخها.

---

(1) Tal vez الحقه .

APENDICE II

El qāḍī de Ceuta Ibn Abī Muslim

Según el *Kitāb Tartīb al-Madārik*,
f^os 58 r. - 57 v. (*sic*) porque la paginación está repetida.

يوسف بن حمود بن خلف بن أبى مسلم الصدفى القاضى أبو الحاج سبتى شهير البيت بها فى العلم.

كان فقيها خيرا فاضلا زاهدا متقشفا اديبا شاعرا راوية. سمع من شيوخ بلده ورحل الى الاندلس فسمع ابا محمد الباجي وابا محمد الاصيلي وابا المغيرة خطاب بن السرى (1) وأبا بكر ابن الزبيدى وغيرهم.

وولى قضاء سبتة، ولاه المستعين من بني أمية العلويين ؟ بعد قتل (ابن) زويع. فكان من اجل قضاته طريقة واحمدهم سيرة واشدهم على اصحاب السلطان شكيمة، وله فى كل هذا اخبار مأثورة. وكان يرغب الانحلال عن الخطة فلا يسعف.

رحل الى المشرق وهو كبير بعد ولايته القضاء سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، واستعفى الى الخطة عنه فلم يسعف فى الانحلال، فقيل له استخلف، فاستخلف قاسم بن ابى مسلم، وتخطط (2) بالفقهاء، ومسافر فحج وسمع من ابى ذر (3) وعبد الله الصورى، وانصرف فرجع الى قائه.

وكان على مكانه من الجلالة، كثير التواضع، يتمهن نفسه فى تناول أسبابه وفلاحة جنته، ويمتطى حمارا له فى تصرفاته حدثني من راه متجرفا فى جنته بالميناء ينظر فى بعض مسائل غراستها. وحدثني غير هذا انه كان فى بعض أزقة الميناء اذا سمعت الناس يقولون القاضي ويذهبون لحضوره قال : فانه شيخ طويل القامة أبيض اللحية طويلة يمشي وبيده قفة فيها آلة الفلاحة قد سترها بطنب غفارة عليه، واذا به القاضي منصرفا من جنته تلك.

---

(1) Ibn Baškuwāl, *Ṣila*, B.A.H., p. 622 : ابن مسلمة .

(2) Tal vez تخط .

(3) Ibn Baškuwāl, *ibid.*, y al-Ḍabbī, *Bugya*, p. 474, añaden الهروي .

وخبر مع الغريبين اللذين قصداه فالقياه بجنته، فدقا عليه الباب فخرج اليهما فى صورة خدمة الجنات فعرفاه أنهما يريدان (4) القاضي وهما يظنان انه اجيره. فقال لهما : ترونه ان شاء الله تعالى. فلما قضى شغله لبس ثيابه وركب حماره، وانصرف الى المدينة والرجلان معه، وتبين لهما من اجلاله واكبار الناس له انه القاضي، فاعتذرا له فهون وتظر فى قصتهما. ومن خبره أن ادريس بن علي الحسني أمير سبتة اذ ذاك رأى هلال شوال فى جماعة من اصحابه، ولم يره احد من أهل سبتة سواهم. فقال له بعض اصحابه : ادفع شهادتك الى القاضي، وثبات ذلك عندك وصحته. فقال له ابن حمود : ذلك لايغنى عنده شيئا. فانكروا ذلك عليه، فقال لهم : سترون، ووجه اليه بعض ثقاته يخبره برؤيتهم الهلال ويأمره بالخروج من عندهم الى الصلاة مع الناس، فقال لهم : ان كان ثبت عند الامير شيء فليفعل ما ثبت عنده، واذ (5) انا فما ثبت عندي شيء يوجب أمرا الى الآن. فرجع الرسول اليه، فقال لهم : ابيتم الا فضيحتنا، وقطع اليقين على أنه لا تقبل شهادتنا. قال : وجاء داخل الليل اثنان من الصيادين فى البحر من الثقات فأخبراه بكشفهما الهلال من موضع صيدهما ورؤيتهما له، فاثبت مشاهدتهما ووجه الى ابن حمود باثبات الخبر عنده مشاهدة من شهد بذلك من الصيادين، فزادهم عجبا. وقد بسطنا من أخباره أشبع من هذا فى قضاة السبتيين من تاريخنا. ولم يزل ابن أبى مسلم يتردد فى الاستعفاء من القضاء الى أيام ادريس، فصرفه والحقه غضاضته، وسبب عليه من يطلبه لما تولاه من الاحباس والاوقاف، فوقاه الله شرهم. توفى اثر ذلك فى نحو الثلاثين واربعمائة وكان مدة قضائه نصفا وعشرين سنة.

---

(4) Palabra ilegible. Tal vez أن يريا .

(5) Tal vez وأما

APENDICE III

Ocupación almorávide de Ceuta

Pasaje extraído de la *Dajira* de Ibn Bassām,
ms. inédito de Bagdad, f^os 202 r. - 204 v.,
confrontado con el *Mafājir al-Barbar*, ed. Lévi-Provençal.

وامير المسلمين وناصر الدين رحمه الله يومئذ مشغول ببقية حرب طوائف البرابرة المتغلبين ـ كانوا ـ على اقطار العدوة، فلم يزل يميط اذاها، ويضرح قذاها، حتى سلكت سبيلها، وطاب مستقرها ومقيلها. وكان من اشد تلك الطوائف ايدا، وامتنها كيدا، (1) سكات المتغلب كان على مدينة سبتة وما والاها، فانه جاهر بالخلاف سماعا وعيانا، وشغل امير المسلمين رحمه الله عن تلافى هذه الجزيرة زمانا، الى أن بلغ الكتاب أجله ووقته، وفتحت على يديه سبتة، حسبما تخلص الخبر عنها

ايجاز الخبر عن فتح مدينة سبتة وتلخيص التعريف باولية أمرها : كان سقوت بن محمد المتغلب عليها قد جرى عليه سباء، واستبد به ولاء، ففاز به قدح علي بن حمود ايام امترى اخلافها، واعروري شقاقها وخلافها، ومن هالته طلع هلال وبدرا وبين باطله وبطالته عتق خلا وخمرا، وعليه حبيبت (2) رحاها، واليه كان مجراها ومرساها، حتى عدت أيامه، واشتهر مقامه وملأ أجزاء الزمان، وصدر الاوان، باسه واقدامه، ولما افضت الدولة الحمودية الى سقط زندها، ومنتهى جهدها، يحي بن علي المتقدم الذكر القى بمقاليد سبته الى هذه الافعال الخارجية (3) والشعلة الوارية سقوت المذكور فاقام بها عمودها، واطمعه قائمها وحصيدها، وطفق لاول حينه يخلق ويفرى، ويجرى لابعد شاويه يسير ويسرى، وقد كان يحي بن علي اشرك معه فى عمالتها مولى آخر من مواليه يكنى أبا العطاف احد اجدال الطعان، وكفاة الاقران، فاقاما بقية ايام يحي بن علي يتجادل بان اهدابها، ويتعاطيان اقداحها واكوابها، الى ان وقع من مقتله سنة سبع وعشرين ما فرغنا من ذكره ونبهنا على مستودع مستقره. ولما افضت دولة آل حمود الى ابنه ادريس ابن يحي بن علي سما سقوت بن محمد، فاخذ يلقم الطريق، لغبونه ادريس تمخضت له بموتة، فى خبر طويل تركته تخفيفا للثقيل.

فاصبح بعده سقوت بن محمد وقد حلت (4) شمس سلطانه (5) الحمل، من ثنايا العيوق، واول ما بدأ به من ذلك الفتك بشريكه الجاسر بحيلة خفية

وقام وزن زمامه (6) واعتدل، وتسمى من اول وقته يومئذ (8) من الاسماء السلطانية بالمنصور المعان (وقد عرض له ابن حيان ببعض اوابده، وفصل بذكره سلك مقيداته وشوارده، وانا اذكر بذلك ما وفي به وسعى، وكان من شرط جمعي) (9) قال ابن حيان : وهذه نادرة من ضحيات (10) هذه الفتنة المبيدة ان تخطت ارض هذه الجزيرة الى ما وراء بحرها الزقاقي الذي كان منه دخول العرب (12) ايام فتحهم لهذا الصقع، هاجها (13) (اسباب المنافسة الفادحة لامتعاض حسيب الاملاك النبيه الابوة الشاجخة عباد، من هضم جاره سقوت مولى ابن حمود ابن عمه (14) الناهض الجد بانقض الجلال من معقد المولى، وخبر الرقيق، واستهضام الحقوق، والترقي لاعلى مراتب السلطان، حتى تسمى بالمنصور المعان) (15) لقبين (16) في قران، اغمض له (17) عليهما (18) الزمان. فساء غلطه (19) في نفسه (20). (واضطره القدر الى أن يتمرس بجاره عباد صبر في الفتنة، الذي لا ينام على دمنة، وكان سبب ذلك اعتقال عباد لرجل من. تجا رسبتة في شيء حضره بمحضرته. فاعتدى عليه سقوت، فاعتقل له عدة تجار فنشأت بينهما لذلك وحشة سنة سبع وخمسين امتطيا لها ظهر اللجج، على ما بينهما من التطام اللجج، فتهافتا على القطيعة، واجتمعا على عقد البحر بينهما، فتلفت فيه رؤوس أموال، وهلكت من أجلها نفوس رجال، يطول في صفتها المقال، الى ان اكمل عباد من اسطول انشاه نحوا من ثمانين قطعة. فاجراها الى سبتة، فخرج اليها اسطول شقوت، فكان الظهور لابن عباد. ثم افترقت الاساطيل بعد حروب وسفك دماء، وانقطع بحر الزرقاء بينهما مدة استهما اخترام منافعه فيها. انتهى ما لجصته من كلامه.

قال ابو بسام : (21) ثم غلب (22) امر سقوت (23) حتى أخاف (24) الرقيب والنازح، واقتاد (25) الحرون والجامح، وانبثت سراياه في البحر والبر، فادرك المطلوب والطالب، وتصيد الطافي والراسب، (26) و (27) نجم في لمتونة (امير المسلمين وناصر الدين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين رحمه الله). فأحاطت (28) دولته بالفرق، احاطة القلادة بالعنف، ودبت في مماء (29) العرب والعجم، دبيت البرء في السقم، وطفق يتتبع آفاق جورهم بالعدل، تتبع الديمة آثار المحل، ويسبق قولهم (30) بالعمل، سبق السيف العذل (31) وتجاروا (32) الى مصارعهم، حتى لحق متبوعهم بتابعهم، وانتظم دانيهم بشاسعهم ودارت النوبة على سقوت بن محمد (33) فتطوف أمير المسلمين رحمه الله باده للفراغ ممن شذ عنه من ذؤبان زناتة، وقد التفوا بأحد محاش (34) الفتنة وأتوا الى موضع يعرف (35) بالدمنة،

فنزل بساحتهم امير المسلمين سنة احدى وسبعين، وعلى مقربة من بلاد سقوت (36) فهم بالانحياش اليه (فقد كان الى وايل (37) عليه) فنهاه حزبه الذميم الشقي، وثناه ابنه القائل الرأي، فقد كان هذا الفتى على بعد مراميه (38) ولوذعية (39) ـ زعمو ـ كانت فيه، يذهب مذهب الجبابرة من ملوك الطوائف عندنا من الاعراض عن العواقب، واخذ الشاهد عيارا عن (40) الغائب أين ما هو فيه، لا يحفل (41) بشيىء يذره (42) ولا ياتيه. ووضحت لامير المسلمين ـ رحمه الله ـ السبيل الى حربه، لما كان من نفاره (43) عن قربه (44) وانتباذه (45) لاول وهلة عن حزبه. فلما اوقع بأهل (46) المدينة (47) رمى سقوت بن محمد (48) باقماره ونحومه، واحله وجوه همته وهمومه، والبلاد تنقاد (49) لحكمه، والمنابر تكاد تهل (50) باسمه، وسمع (51) الرعية بمقدمة فانثالوا عليه انثيال الجياع على الوليمة، وتباشروا به تباشر البلد (52) بالديمة، وخرج سقوت (ابن محمد) (53) في عديده وعدده، للذب ـ زعموا ـ عن رعيته وبلده (54) وعساكر امير المسلمين يومئذ على مقربة من مدينة طنجة، وعليها من قبله (55) ابنه المسمى بيضاء الدولة، فلقي عساكر المرابطين وقد سالت بها سيولهم، وشارفها لواؤهم (56) ورعيلهم، فاقام (57) بازائهم يومئذ (58) والاجل (59) يقحمه (60) والجيل تلمه (61) الى ان طحنته رحاهم، وسالت نفسه على اسنتهم وظباهم (62) يوم الكسوف الشمسي الكلى من العام المؤرخ، ودخل المرابطون طنجة ذلك اليوم.

وافضت الدولة البرغواطية الى الحاجب العز (63) شهاب افلاكها، وخيرة املاكها، هبت للادب (64) ريحا، ونفحت دولته في اهله (65) روحا (66) اعرض (67) به الشعراء واطالوا، ووجدوا به السبيل الى المقال فقالوا، وممن خيم في ذراه (68) ونال الحظا الجسيم من دنياه الحصرى (69) الضرير (70) فان له فيها (71) ما اذهل (72) الناظر الرقاد (73) واغنى (74) المسافر عن الزاد، والحاجب يكحل عينيه (75) بزينة دنياه ويتفق لهاته (76) بمواهبه ولهاه، وكان سهل الحجاب للقصاد، طلق اليد بالمواهب الافراد.

من رجل استعان بالشر، وتهاون بالامر، لا يجبى الا من غلول، ولا يجيش الا الى (77) ابن سبيل، لاسيما البحر فانه أضرم لججه (78) نارا، ولقى ريحه (79) اعصارا، اخذ كل سفينة غصبا (80) واضاف الى كل رعب رعبا (81) فضجت منه (82) الارض والسماء، والقت الشكوى والدعاء،

واذن الله لامير المسلمين (وناصر الدين رحمه الله) (83) فاناخ بعقوته (84) وحكم بين سنا ملـه وذروته، وكان من الاتفاق العجيب ان انشأ المعتمد (85) سفينة ضاهى بها مصانع الملوك القاهرين، بعد العهد بمثلها (86) اسر، وسعة بطن وظهر، كانما بناه على الماء صرحا (87) ممردا، واخذ بها على الريح ميثاقا مؤكدا، ووجهها طنجة لتمتار (88) وقد انجد امر الله وغار.

لما رأى امير المسلمين (وناصر الدين رحمه الله) (89) تلك السفينة خاطب المعتمد (90) فى ذلك فسحبت على سبتة موتا ذريعا، وأقيمت بازائها سورا (91) منيعا (92) فلما كان يوم الخميس من صفر سنة ست وسبعين قدم امير المسلمين لقتال سبتة اسطول ضخما، رجم به (93) مردت عفارتها رجما (94) ولقيه العز (95) من اسطول طالما اوسع البلاد شرا، وملأ قلوب اهلها ذعرا، فكان لاول ذلك اليوم ظهر على اسطول المرابطين حتى اخذ منه قطعة جليلة المقدار، ظاهرة الحماة والانصار، (فكان من اذلال الله للعز ابن سقوت يومئذ ان يخل على آخذها وتكلم بكلام انكر عليه فيه) (97) وارتاعت محله المرابطين لاخذ تلك القطعة حتى هموا بالاحجام، وقوضوا بعض الجيام، وغضب امير المسلمين (وناصر الدين) (98) رحمه الله احدى غضباته، فكانت اياها، وفغرت (المنايا) (99) على سبتة فاتها، وتقدمت تلك السفينة فاطلت على اسوارها (100) ورفعت صوتها ببوارها، وافضت بدولة صاحب سبتة الى سوءقرارها، ليلة الجمعة من صفر المؤرخ ولجأ العز (101) ابن‌سقوت (فى نفر من اصحابه) (102) الى البحر، فهم بركوبه فاعوزوه (103) القرار، ودفع فى صدره المقدار فكر (104) راجعا، ودخل (105) دارا تعرف بدار تنوير (106) وتذربه (107) جماعة من المرابطين، فاجتمعوا عليه بعد مرام (بعيد) (108) وقتال شديد، حتى ضاق اضطرابه، وفر عنه اصحابه، ولما احس بالشرد ذخائر (109) كانت عنده الى احد من وفى له رؤوس حماته (110) فبلغني أنه عثر عليه ووجد (111) فيها جواهر كثيرة ونشبت (112) من نشب الملوك (113) خطيرا، ووجد فى جملتها خاتم يحي ابن علي ابن حمود (114) وتخرج (115) بالعز (116) بن سقوت حين وضح الفجر (من ليلته تلك) (117) فلقيه المعز بن امير المسلمين (رحمه الله) (118) (فطلب منه المال فقال له : الخازن ابيك كنت نجمع المال) (؟) (119) فجلله (120) الحسام، وحكم فيه الحمام، تعالى من لا يرد قضاؤه ولا تبيد الآؤه (121).

التعليقات

(1) Tal vez العز بن سكات , hijo de Suqût.
(2) Tal vez دارت .
(3) Debe haber algún error de copia.
(4) *Mafājir*, p. 45 : فاصبح وقد جلت .
(5) *Ibid.* فيها .
(6) *Ibid.* بها .
(7) *Ibid.* لأول .
(8) No está en *Mafājir*.
(9) [ ] Solamente en la *Dajīra*.
(10) *Mafājir* هيجان . Tal vez debiéramos leer طخيات .
(11) *Mafājir* añade البربرية .
(12) *ibid.* المغرب .
(13) *Mafājir* añade سقوت البرغواطي المتغلب على مدينة سبتة .
(14) Quizá debiéramos corregir por بزعمه .
(15) [ ] Solamente en la *Dajīra*.
(16) *Mafājir*, وأمسى .
(17) Solamente en la *Dajīra*.
(18) *Mafājir*, عليها .
(19) *Ibid.* غلظه .
(20) *Mafājir* añade وغلظ أمره .
(21) [ ] Solamente en la *Dajīra*.
(22) *Mafājir*, غلظ por غلظ .
(23) *Ibid.* أمره .
(24) *Ibid.* أخاب .
(25) *Ibid.* اقتلد .
(26) Añade el *Mafājir*, p. 46 : انتهى كلام ابن حيان .
(27) *Mafājir*, p. 54 : ولما .
(28) [ ] Solamente en la *Dajīra*.
(29) *Mafājir*, *ibid.*, مماليك .
(30) Falta en *Mafājir*.
(31) *Mafājir*, العدل .
(32) *Ibid.* تجاوزوا .

(33) *Ibid.* سقوت البرغواطي .

(34) *Ibid.* مجاش .

(35) *Ibid.* يدعى .

(36) Añade el *Mafājir* : فتضيفه لا منَ خلة وأراد ان يكثر به لا من قلة .

(37) Al margen واهل . Lo que está entre corchetes no está en *Mafājir*.

(38) *Mafājir*. مرامه .

(39) *Ibid*. لأدعية .

(40) *Ibid*. على .

(41) *Ibid*. يجعل .

(42) *Ibid*. قدره .

(43) *Ibid*. مقاره .

(44) *Ibid*. قرب .

(45) *Ibid*. انثباته .

(46) *Ḏajīra*. بأهله .

(47) *Mafājir*. الدمنة .

(48) *Ibid*. سقوت البرغواطي .

(49) *Ibid*. تتقد .

(50) *Ibid*., p. 55 : تهلك .

(51) *Ibid*. واسم .

(52) Añade el *Mafājir* التيهاء .

(53) [ ] Solamente en la *Ḏajīra*.

(54) Añade el *Mafājir* : واقسم أن لا يسمع قرع طلبه في ملكه .

(55) *Mafājir*. قبيل سقوت .

(56) *Mafājir*. لواهم.

(57) *Ibid*. واقام .

(58) *Ibid*. يومين .

(59) *Ibid*. الابل .

(60) *Ibid*. تعجمه .

(61) *Ibid*. تسلبه .

(62) *Ibid*. طماهم .

(63) *Ḏajīra*. والعزامة . *Mafājir*. المعز بن سقوت en vez de العز بن سقوت .

(64) *Mafājir.* ألهب اللهيب ريحا .
(65) *Ḏajīra.* احلـه .
(66) *Mafājir.* ريحـا .
(67) *Ibid.* اعـوض .
(68) *Ibid.* داره .
(69) *Ibid.* الحصورى : *Ḏajīra.* المصري .
(70) El *Mafājir* añade الشاعـر .
(71) *Mafājir.* فيــه .
(72) *Ibid.* اغنى .
(73) *Ḏajīra.* الزاد .
(74) *Mafājir.* أغشى .
(75) *Ibid.* عينه .
(76) *Ibid.* لهافــه .
(77) No está en *Mafājir* الى .
(78) *Mafājir.* بلجحه .
(79) *Ibid.* ولقا رحــه .
(80) *Ibid.* غضبا .
(81) *Ḏajīra.* زغب رغبا : en *Mafājir*, p. 56, solamente رعبا .
(82) *Ḏajīra.* ضجب .
(83) [ ] No está en *Mafājir.*
(84) *Mafājir.* بعقوبتــه .
(85) Añade el *Mafājir* ابن عباد .
(86) *Mafājir.* ســدة .
(87) *Ḏajīra.* سرحـا .
(88) *Mafājir.* للثمــار .
(89) [ ] No está en *Mafājir.*
(90) Añade *el Mafājir.* ابن عباد .
(91) *Mafājir.* وسورها .
(92) Añade el *Mafājir.* حصنا .
(93) *Mafājir.* وجم بها .
(94) *Ibid.* رحبـا .
(95) *Ibid.* المعـز .

(96) No está en *Mafājir*.
(97) [ ] No está en *Mafājir*.
(98) [ ] No está en *Mafājir*.
(99) [ ] No está en *Mafājir*.
(100) Falta على en *Daḫīra*.
(101) *Mafājir*. المعز .
(102) [ ] No está en *Mafājir*.
(103) *Mafājir*. فاعوزه .
(104) *Ibid*. وكر .
(105) *Ibid*. فدخل .
(106) *Ibid*. بدار شوير .
(107) *Ibid*., p. 57 : بدربه .
(108) [ ] No está en *Mafājir*.
(109) *Daḫīra*. دنانير .
(110) *Mafājir*. الى بعض اصحابه .
(111) *Ibid*. فوجدوا .
(112) *Ibid*. ونشبا .
(113) *Ibid*. الملك .
(114) Añade el *Mafājir*. الفاطمي .
(115) *Mafājir*. وخرج .
(116) *Ibid*. بالمعز .
(117) [ ] No está en *Mafājir*.
(118) [ ] No está en *Mafājir*.
(119) [ ] Solamente en *Mafājir*.
(120) *Mafājir*. فحلله .
(121) *Ibid*. ولا تبدأ ولاه .

الشاعر ادريس السناني الحنش

عبد القادر زمامه

سبعون سنة كاملة تفصلنا الآن عن وفاة هذا الشاعر المغربي. وما تزال ذكراه عالقة باذهان طائفة من الناس..! وما تزال ازجاله، وقصائده واخباره يتناقلونها في مجالسهم الخاصة..! فهو عند شعراء الملحون قمة ..! وعند ـ الذكارة ـ أسوة..! وعند المتصوفة قدوة..! ولا تخلو كناشة من كناشات معاصريه من المام بهذا الشاعر، الذي تجاذبته في حياته عدة اتجاهات وسبل..! واسهم فيها كلها بحظ وافر من سلوكه الشخصي وانتاجه الادبي..!

على ان هذه المكانة التي ما تزال لهذا الشاعر عند محبيه وعشاق ادبه ما كانت لتلفت اليه انظار الباحثين في تاريخ الادب العربي بالمغرب ..! ليدرسوا آثاره. ويجمعوا اخباره. في كتاب مستقل .. او بحث خاص. حسب ما نعلم ..! وانما هي اشارات طيبة ابتدأها ابو العباس النميشي في محاضرته (1) التي القاها عن تاريخ الشعر والشعراء بفاس... سنة 1343 هـ موافق 1924 م ثم تتالت الاشارات الى هذا الشاعر في اقلام الباحثين والدارسين..! فنجد الاستاذ عبد الله كنون في محاضراته عن الادب المغربي الحديث يذكر هذا الشاعر، ويقدم لنا قطعة وصفية من بنات قريحته..! تشتمل على سبعة ابيات.. ويعلق عليها بقوله (2).

«وهذه الابيات مما تلوح عليه آثار المغربية، فان الزليج من الاوضاع التى لا تستعمل الا في المغرب. وكذلك الصهريج في الغالب..! وهى من الشعر الرائق الذي يطابق الوصف فيه الموصوف. حسنا وجمالا..!»

والذى يهمنا الان بالذات هو تقديم هذا الشاعر فى اطار من المعلومات المتعلقة بترجمته الشخصية. وبيئته الاجتماعية وآثاره الادبية..!

وهذه الاشياء متداخلة ومتكاملة الى حد ما..! نظرا الى اننا امام كناشات واوراق مبعثرة. ومعلومات كتابية وشفوية يتناقلها الثقات والاذكياء ..! والمتخرصون والاغبياء..!

والهدف المقصود هو محاولة الوصول الى صورة تكون قريبة من الحقيقة ما امكن ..! مع تخطي ركام المبالغات عند معاصريه..!

يسمي الشاعر نفسه هكذا في اول صفحة من ديوانه المشار اليه = ادريس ابن علي (مرتين) بن الغالي بن المهدي بن محمد فتحا بن الطاهر بن الراضي المالكي، البكري، بفتح الموحدة وسكون الكاف السناني نجارا..! الفاسي منشأ ودارا ..! = لكن الذي اشتهر به الشاعر في عصره .. واشتهر به والده ثم ابناؤه هو اضافة كلمة = الحنش = الى الاسم الحقيقي... فيقولون : ادريس الحنش ...! والمعطي الحنش ...! والراضي الحنش ...! وعلي الحنش ... وقدور الحنش..!

وبعد البحث والاستقراء وجدنا ان كلمة الحنش ليست لقبا شخصيا للشاعر ..! ولا لآبائه .! ولا لابنائه ... وانما الامر يتعلق باسم = الدوار = الذي كانت تسكنه اسرة الشاعر قبل دخولها وسكناها بفاس.

ودوار الحنش يوجد بقبيلة بني مالك العربية المستوطنة بالغرب ..! فكان ينبغي على هذا ان تزاد في الكلمة ياء النسبة ..! لان الامر يتعلق بنسبة اسرة الشاعر الى هذا الدوار المعروف باسم دوار الحنش..! والذي انتقل من دوار الحنش الى فاس واستوطنها هو علي والد الشاعر ..! وسكن دارا متواضعة معروفة في حارة الشمس العليا بحي الطالعة الكبرى ..! على مقربة من الدار الكبرى التي كان يسكنها في عصر بني مرين الوزير الاديب لسان الدين ابن الخطيب ..!

وكان والد الشاعر فقيرا. وكان من حفاظ القرءان الكريم لهذا اخذ مكتبا من مكاتب تعليم الصبيان وهو مكتب يسمى مكتب فران كويشة واخذ يؤدي عمله وينال التقدير والاحترام ويعرف بين الناس باسم سي (علي الحنش).

وعرف الشاعر نور هذه الحياة بدار سكنى والده بحارة الشمس حوالي سنة 1256 هـ. كما كتب ذلك احد تلامذته حينما ارخ وفاته بسنة 1319 هـ قائلا :

= وعمره لا يتجاوز ثلاثا وستين سنة ..! = فاذا اسقطنا 63 من سنة الوفاة 1319 تكون سنة الولادة هي سنة 1256 هـ بتقريب..!

ولا نعلم شيئا عن نشأة الشاعر الاولى. ولا نعلم السنة التي فقد فيها حنان والده ..! ويظهر ان ذلك كان في بواكر شبابه او أواخر طفولته ..! وقد حملنا على هذا الظن شيئان :

الاول ـ اننا لا نجد في ديوان الشاعر ما يرثي به والده ..! مما يدل ـ بحسب الظاهر ـ على انه توفي قبل ان يملك ناصية القريض..!

الثاني ـ ان الشاعر اقبل منذ بواكر شبابه على احتراف الخرازة ..! ومن هذه الحرفة اصبح يكتسب لقمة العيش في عناء واجهاد ..!

ولو كان له سند عائلي لاقبل على طلب العلم بعد ما ودع حياة المكتب، وحفظ القرءان الكريم ..!

واشتغال السناني بالخرازة ليس معناه انه كان منقطعا عن الحياة الاجتماعية والعلمية والروحية ايضا ..! بل ان الواقع يشهد انه كان شغوفا بمجالس العلم، ومحافل الذكر في الزوايا والمساجد، ومصاحبة المنشدين والذكارة واشياخ الشعر الملحون ..! وكان اثناء مزاولته لعمله في الخرازة بفندق الشماعين الشهير يرفع عقيرته بانشاد الازجال والبروال والامداح النبوية والقصائد الصوفية التي سمعها وحفظها فصارت سلوته في عمله وانسه في وحدته ..!

وكانت ظروف الحياة تجعل من الصناع والمحترفين طبقة اجتماعية نشيطة تشارك في كل ما يجد من الوان في هذه الحياة من جد وهزل واستقامة وانحراف، ورشاد وضلال، فهناك الزوايا والطرق ..! وهناك الفرق والطوائف ..! وهناك مجالس العلم والعلماء .. وهناك المواسم العامة، والمحافل الخاصة التي يظهر الناس فيها بمحاسنهم ومباذلهم ..! وفي مقدمة الجميع الطبقة المتوسطة من صناع ومحترفين ..!

واشتهر السناني عند اهل حرفته ومعامليه بالاستقامة والنشاط. كما اشتهر عند اصحاب الملحون بشغفه البالغ بفنون القول ومعرفته الجيدة بالاوزان والاصطلاحات واخبار الاشياخ المتقدمين ..! وبذلك اخذ طريقه للتصدر في محافل الانشاد.! واخذت قريحته تفيض بالجيد الطريف من فنون الشعر الملحون بموضوعاته المعروفة في المدح والتوسل والتغزل والحكمة والموعظة والتذكير..!

وعرف الاستقرار في عمله وبعض السعة في رزقه فتزوج ورزق اولادا ذكورا نعرف منهم : المعطي، وعلال، وعبد الوهاب .. كما نعرف منهم محمد الرضي الشيخ الجليل رحمه الله ..! وظلت السمة التي اتسم بها السناني

في اذهــان معاصريه سمة غريبة متناقضة في نظرهم. فهو الى جانب كـونـه محترفـا مكتسبا .. يطلب العلم .! وينتسب الى اهل التصوف والـزهـد ..! ويتصدر محافل الانشاد والتذكـير..

وهــذا هــو السبب الذي جعل بعض معاصريه من اهــل العلـم يعـده في (العــوام) ويصفه بقوله : (ذكــار عيساوة) وهــذا هــو السبب ايضا الــذي جعل السناني ـ يضرب صفحا عن الانتماء الى العلـم ..! او الظهـور بمظهـر العلماء ..! بـل انه صار يحرص كل الحرص على ان يكـون سمعـة ورصيتا في طبقـة اخرى من ذوي الاريحية والوجاهـة والجـاه مـن امـراء وشرفـاء وبعض العلماء والشعراء وذوى السلطة والنفوذ ..! ووسيلته دائما هي شعـره ومـا يملك من قدرة على الحديث الممتـع والسمر المـؤنس وبـذلك لا يعـد في = العــوام = ولا يوصف بكونـه = ذكار عيســاوة = فقط ..! بـل هـو الشاعر الاديب..!

على ان هناك معلومات استفدناها من كناشات خاصة تصور لنا تحـولا او على الاقل انطلاقا في حياة السناني ... وذلك ان الرحـالة الراويـة المحـدث الشيخ علي بن طاهر الوتـرى المدني المتضلع من علوم الشرع واللغـة والادب زار المغـرب مرتـين. الاولى سنة 1287 هـ والثانية سنة 1297 هـ وفي كـل زيارة يكون له مقام محمود عند اهل العلم والادب في مدينة فاس ..! (3) ويذكي في الجميع جـذوة الطموح الى التبريز في العلوم والفنون المختلفـة ..! ولا تذكـر هنا المحدثـين الذين تهافتوا على السيد علي بن طاهـر الوتـرى للاخذ عنـه والتماس الاجازة ..! وانما نذكـر الشعراء الذين ثبت عندنا اجتماعهـم بـه وملازمتهم مجالسه ليل نهار لسماع اماليه في اللغـة والشعـر والعـروض ..! وكــان هؤلاء الشعراء يكونون جماعة من الشبان والكهول فيهم :

الفاطمي الصقلي وادريس السناني والعباس الابار وادريس ابـن طلحـة واحمد بن العباس البوعـزوى ..!

وقد لازمته هذه الجماعة في محـل اقامته ودرست عليه بعض كتب اللغة ودواوين الشعراء والعـروض وشحذ قرائحهـم بمناقشاتـه وانتقـاداتـه ..! وارشاداتـه.

وعكف السناني كما يقول معاصروه على كتاب القاموس المحيط للفيروز ابادى يحفظ مواد اللغـة. ويتعمق في معـاني الالفـاظ كمـا عكف على كتب العروض وبذلك اشتهـر بـين الناس ..! وجـاء شعـره المنظوم صورة واضحة للشاعر اللغوي المتضلع من مفـردات اللغة العارف الخبـير باساليبهـا.

كما جاء شعره الملحون صورة ناطقة بمقدرته وتجربته الواسعة ومسابقته لاعلام هذا الفن الذين كانوا يغتنمون المناسبات المختلفة لاظهار مواهبهم والاعراب عن مطامحهم في الشهرة والتبريز عند الخواص والعوام.

ولا ننسى ان البيئة ـ الشعرية ـ كانت في فاس اواخر القرن الثالث عشر واوائل القرن الرابع عشر الهجريين مزدهرة الى حد بعيد ..! لا باعتبار الشعر الفصيح ..! ولا باعتبار الشعر الملحون ..! فالاسماء في كل ميدان منهما كثيرة ..! لان النظم كان هو الوسيلة المفضلة للتعبير ..! الى جانب اسلوب المقامات ..!

فالاخوانيات والرغائب والالتماسات وتقاريظ الكتب المطبوعة على الحجر نجدها في الغالب منظومة نظمها شعراء يسمون انفسهم شعراء ..! ويسميهم الناس شعراء ..! ويمثلون المفهوم الشعري الذي كان معروفا في ذلك العصر ..! والمفاهيم عادة تتطور وتاخذ اتجاهات متعددة حسب العقليات والثقافات والاهتمامات الضرورية لكل زمان ومكان..!

فما كان الناس يسمونه شعرا في ذلك العصر ربما لايستحق الآن عندنا هذا الاسم ..! ومن كانوا يلقبونه بالشاعر ربما لا يستحق عندنا الان هذا اللقب .. والعكس ممكن ..!

وقبل ان نعرض النماذج الشعرية والنثرية التي كتبها السناني نريد ان نعرف الوجه الاخر لهذا الشاعر الغريب الاطوار..! الذي بدأ حياته خرازا .. ثم شاعرا .. ثم ناسكا متصوفا ..! وقد عرفناه في طوريه الاولين .. فلنعرفه الان في طوره الثالث وهو طور التصوف والرياضة الروحية.

وقد ادركنا ان اطوار السناني متداخلة متكاملة ..! ليست لها حدود ..! فلم يودع في زمان معين طورا ليقبل على آخر ..! وانما كان يسير في هذه الحياة ضاربا في هذه الاتجاهات يسهم هنا ويسهم هناك ..! وكأنه اشخاص ..! لا شخص واحد ..!

ومن حسن الحظ اننا وقفنا على مخطوطتين اثنتين من مؤلفات السناني في موضوع التصوف والرياضة الروحية ..!

الاولى : تسمى نزهة الاعيان، وتبصرة الاخوان في تبيين مقام الاحسان..! وهي مكتوبة بخط نجل المؤلف علي بن ادريس السناني .. المدعو علالا .. كتبها سنة 1310 هـ والكتاب موجه الى متفقرة الوقت ..! الذين لم يعرفوا من التصوف الا السبحة والرقص..!

وفي هذا الكتاب يذكر السناني شيوخه في التصوف واجلهم في نظره ابرهيم بن علي الغماري المتوفى سنة 1295 ﻫ (5) الذى ادبه وعلمه طريق السلوك الشاذلي..!

وفي الكتاب نقدات وغمزات لطيفة جدا تصور احوال بعض الادعياء ..! كما تصور احوال المجتمعات وما يسودها من نفاق وتلون وشعوذة ..! وجهل ..!

ويحاول المؤلف ان يصور التصوف الحقيقي وما له من اشعاعات روحية خارج هذه الملابسات التى الحقها به الاغنياء والادعياء حسب فهمه الخاص ..! ودرجة ثقافته ..! التى كانت ولا شك سطحية ..! في هذا الميدان، كما يحاول ان يعطينا سنده في الطرق المشهورة من شاذلية وقادرية وعيساوية ..! وما له من اخلاص وتقدير للاشياخ الذين اخذ عنهم هذه الطرق واجازوه فيها ..!

والثانية من المخطوطتين .. تسمى : التذكير ببعض مايجب على الفقير..! وهذا الكتاب مجموعة خواطر صوفية وحكايات واخبار تتعلق برجال التصوف منقولة من الكتب المشهورة مع تعليقات وشروح تتعلق بآداب المريد..

وهو مكتوب بخط ولد المؤلف المعطي بن ادريس السناني وليس فيه اى شيء يتعلق بجباة المؤلف ..! بخلاف الكتاب الاول .. المسمى نزهة الاعيان..!

والسناني ربى اخوانه واصدقاءه وانجاله تربية صوفية بمثل هاتين المخطوطتين، ومن اجل ذلك نجد نسختيهما مكتوبتين بخطي ابنيه علي ..! والمعطي ..! كما نجد ديوانه الشعري المحفوظ بالخزانة العامة بالرباط بخط نجله محمد الراضي الشيخ الشهير..!

ولننتقل الان الى الاثرين الادبيين للسناني وهما : (المقامة) والديوان..!

فالمقامة تسمى هكذا = المقامة المغنيه عن المدامة = وموضوعها. واسلوبها. ولغتها. قمة في هذا الفن وكذلك هيكلها وحبكها ..! وقد استعمل فيها السناني براعته اللغوية ومحصوله من المفردات والامثال والمقتطعات الشعرية على السنة المتحاورين ..! مع ذوق وحسن تناول .. ووصف كاشف .. ومجون (مهذب) ..! وهذه فقرات منها ..

«ثم قلنا له لا يسع سيدنا غير اسعاف الاخوان، وان قدرت على تكميل هذه البغية فذو الفضل معوان، فاطرق براسه متفكرا، وجائلا في زوايا سره ومستحضرا، ثم قال، والله لاكونن ابا عذرها، ثم نهض بعد القعود، وقال مكانكم حتى اعود، واذ لعب اعدى من ابى غزوان، بعدما

عاهدنا على الاياب وحلف بالايمان، فغاب غير بعيد، واقبل في جهد جهيد، ولما وصل وحيا بالسلام، قلنا ما وراءك ياعصام، فقال حم الامر وقضي الوطر، وهاضالتنا المنشودة على الاثر فقلنا ما انت جعلنا فداك، الامد حرة لدفع مدلهم الكرب وجذل حكاك بينما نحن في الخطاب، والتلذذ بالوعد المستطاب، اذ لاح لنا شخص من قبل المدينة، قاصدا نحونا برفق وسكينة، فاشرابت انفسنا اليه، وقلنا علنه المعول عليه، ولم نزل فيه بين ريب ويقين، وتحريك وتسكين، الى ان وصل حضرتنا وحيا، وادهشنا منه لوائح المحيا، وهو يعثر في اذيال الحياء ويتثنى، ويختال له في رداء الملاحة فتخا له غصنا،

مليح يغار الغصن عند اهتزازه	ويخجل بدر التم عند شروقه
فما فيه معنى ناقص غير خصره	وما فيه شيء بارد غير ريقه

فجلس الى جنب صائده وصاحبه، ولا تسل عما لقيت قلوبنا من عامل لحظه وحاجبه، فجعلنا نسارقه النظر، ونستحسن منظره المزري بالقمر، فاذا هو احيا من بكر، واجمل من بدر، واحلى من الشهد، واشهى من الوعد، كانه قضيب اس، لقده الميال المياس، بابلي الجفون، نرجسي العيون، خده مذهب، وصدغه معقرب، جوهري الثغر، لفظه كالخمر، فتبارك من اولاه خالص الحسن والجمال، وحلاه باللطافة والدلال، وجعل وجهه كعبة النواظر، وفيه لعمري ينشد قول الشاعر،

خالسته نظرا وكان موردا	فازداد حتى كاد ان يتلهبا
انظر اليه كانه متنصل	بجفونه من طول ما قد اذنبا
وكان صفحة خده وعذاره	تفاحة رميت لتقتل عقربا

هذا ولما تارجت الحضرة بطيب رياه، وابتهجت بطلعة محياه، وقعت الاشارة من عبيد بالحاجب، ان ازيلوا الدهشة عن الداخل كما هو الواجب، فقلنا اهلا ومرحبا بريحانة الارواح، وجمانة الملاح، فيومنا بوجهك سعيد، وفرحنا بمجيئك وافر مديد، حرس الله طلعة جمالك، وجازى لي خيرا من بسط نعمة وصالك، وهو لا يزيد على قوله : شرف الله مقامكم، وجعل الدهر عبدكم وغلامكم، والحياء يعصر ورد خده، وريح الدلال تهصر بغصن قده، فجعل عبيد الظريف، يتمايل وينشد قول ابن العفيف :

اعز الله انصار العيون	وخلد ملك هاتيك الجفون
واصبغ ظل الشعر دوما	على قد به هيف الغصون

فلما فرغ من الانشاد، واقتراح الزناد، قلنا له يا ابن الطالب لا فض فوك، هكذا وصفوك، فامرك سهد مهد، لكن لم نرلك سهدة بعد حصول المقصد، اما علمت ان الراح روح السرور، وعليها المسرة تدور، والوقت اضيق من طل رمح، فمن لك بمثل هذا الفتح، فات باوان الشرب، وضع الهناء مواضع النقب، وقدم من يستحق الامامة، وان لم تفعل فالعمامة. فقال انها اشد علي من ضرب السيوف، ونثل من بيننا اسرع من خدروف، فوضع أواني الشرب بين يدي غزاله، وانشد من عنديته لحاله :

ادريا حبيب القلب فالوقت قد حلا   كئوس مدام مثل خدك تجتلي
على الزهر والنهر الوضيء وصفوه   فلله نهر لسرور تحفلا
يلوح على وجه البسيطة رائقا   كأنه ايم في الربيع تململا
تراه لدى الاشراق يبدو كفضة   وعند اصيل كالنضار تحولا
عليه يحق الشرب بالصبح والمسا   واما سواه يا اخي فلا ولا

فتوردت من المليح الوجنات، وقال لاعملن بمقتضى هذه الابيات، فصفف الكؤس، واطلعها من الابريق كالشموس، فسقى عبيدا وكان عن شماله، فشرب وكاد الفرح يحل عقله من عقاله، فاردنا ان نميل به الى المداعبة، ونستخرج من بحر ادبه جواهر المخاطبة، فقلنا معرضين بالمدير، ومتعرضين للكبير بالصغير، الا ان المعادله، تمنع المجاد له، والانصاف، من شيم الاشراف، وارتكاب القصد والعدل، من علامة الذكاء والعقل، والخروج من الصواب، موجب للعتاب، ومن «اثر نفسه على الرفيق، لا يخلص له صديق، وجعل بعضنا يتغنى بمعلقة عمرو بن كلثوم، هذا وعبيد يتامل من المعرض به من الملوم. فلما بلغ المغنى (وكان الكاس) زال عنه الوهم والالتباس، فجعل يقول، وهو يسحب على سحبان من ذيله الفضول ان من مكارم الاخلاق مساعدة الاخوان والرفاق، ومن علامة الصفا، ترك معاتبة من هفا، ومن الميل والحيف، مواخذة الزائر والضيف، يابى الخلق النفيس، ان لا يسامح الجليس، ولا زالت الاحرار، تقيل العثار وتقبل الاعذار، مع انكم لو نظرتم بعين الانصاف، وتاملتم الاوصاف، وجدتموني اهلا للتقدم، وتركتم الاعتساف والتكلم، لاني عليل الهوا، مضطر الى تعجيل الدوا، ثم ان هذا المليح الاجمل، والصبيح الاكمل، كان اعرف منكم بالحال، على التفصيل والاجمال، وحيث رأى مني ما رأى من الاضطرار، خصني بسابقة العقار، وأني لخليل ترك الايثار والاسعاف، بعد قوله (وندب ايثار المضطر) دون

عموم الاصناف، فلما لمع برق جوابه، ونصع صدق خطابه، تعجبنا من نثره السليس وعذره النفيس، وقد اشتهرت هذه المقامة في حياة السناني وطبعت على الحجر بفاس وكان لها اثر في الوسط المهتم بالادب ..!

واما الديوان فهو صورة حقيقية للعصر ورجاله وافكاره واهتماماته واحداثه ايضا ..! وقد سماه السناني هكذا :

«الروض الفائح بازهار النسيب والمدائح»

ورتبه على الحروف المعجمية ..! بحسب القوافي .. مقدما بين يدي كل قصيدة او قطعة موضوعها وسبب نظمها. وبحرها العروضي ..! وكتب مقدمة لهذا الديوان ذكر فيها ان بعض الاشراف طلب منه ان يجمع في ديوان ما جادت به قريحته فلبى رغبته رغم ما يعاني من تراكم الاكدار قائلا :

«وقد انعدمت بواعث الشعر واسبابه ! وحط لدى غالب الناس قدره وجنابه ! وصار اهله كاليتامى. يتعاشى عنهم جفن الاعتناء ويتعامى ..! واصبح ربع الندا اخلى من جوف حمار..! والناس لا يشعرون باهل الاشعار ..! حتى لو جاءهم الحريري على علو مقاماته وهمته لرأيته وهو عليهم اهون من قعيس على عمته ..! وما اجدر من تخلف بهذه الرذائل بان ينشد فيه قول القائل وهو عز الدين الموصلي رحمه الله :

نادمت قوما لا خلاق لهم ولا ميل الى طرب ولا أسمار
يستيقظون الى نهيق حمارهم وتنام أعينهم عن الاوتار

والشخصيات الادبية والعلمية والسياسية التى ذكرها السناني في الديوان مادحا او مساجلا او مسامرا كثيرة ... بحيث ان للديوان قيمة تاريخية بالغة الاهمية .. من هذه الناحية فنجد فيه من اسماء شعراء ذلك العصر.

- العربي المشرفي ...!
- العربي بن حميدة الشركي
- احمد ابن المواز
- احمد بن المامون البلغيثي
- محمد بن العربي غيلان
- محمد بن احمد الكردودي

كما نجد قصائد كثيرة في امداح السلطان مولاي الحسن الاول رحمه الله. وفي بعض رجال دولته كالوزيرين محمد الصنهاجي وعلي المسفيوي وعامل فاس عبد الله بن احمد ..!

وشخصات اخرى مثل مولاي ادريس بن عبد الهادي. ومولاي عبد الملك الضرير. ومحمد بن العربي قصارة. وعبد الله الكامل الامراني. والعابد الادريسي. والعربي المنيعي ... وغيرهم من الشخصيات التي كانت لها ظلال وآثار في ميادين مختلفة ... مما يدلنا على ان الشاعر كان شديد الاتصال برجال عصره ..! مع ما اشتهر به من تصوف ... وانتماء الى رجال الطرق والطوائف.

وهناك الى جانب الشخصيات التى في الديوان الاحداث ..! والوقائع الاجتماعية والمبرات والانتقادات والتعريضات ...!

فنجد مثلا الشاعر يطلب من الشريف الاريحي مولاى ادريس بن عبد الهادي دفين المدينة المنورة رحمه الله ..! ان يبني من ماله الخاص ضريح لسان ابن الخطيب الذي كان الى ذلك العهد مهملا بباب الشريعة بفاس ..! فيلبي رغبته وذلك سنة 1312 هـ. ومن اجل ذلك يمدحه بقصيدة يذكر فيها هذه المبرة التى اضافها الى قائمة مبراته ..!

ونجده يذكر قصة الفيل الذي أهدى الى السلطان مولاي الحسن سنة 1309 هـ وكان لهذا الفيل طنين ورنين عند الشعراء والكتاب والمؤلفين...

فقد نظمت فيه القصائد ..! وحفرت المقامات ودونت الاخبار والخصائص..! ثم يموت الفيل سنة 1311 هـ... ويسجل السناني ذلك نظما ونثرا..!

كما يسجل بعض اخبار اصدقائه من ذوى الاريحية في مجالسهم واسمارهم وما يتصفون به من صفات هي في الحقيقة سمة العصر ومرآة محاسنه ومباذله ..!

وموضوعات الديوان متعددة وكان ناظمها اشخاص لا شخص واحد .. فهناك التنسك والمناجاة والتوسل .. وهناك المدح والرثاء والوصف والشوق ..! وهناك المجون (المهذب) والمجون (المكشوف) وكان هذا (التناقض) لا يثير من الشاعر اي استغراب او اعتذار ..! فهو ابن بيئته وعصره ...!

وهـذه بعض المقتطفات من الديوان.

(1)

شـربنا على زهـر غصـن يميل ... وعـرف نسيـم لطيف عـليـل
شـرابا عتيقـا كشمس السمـا ... يطـوف بـهـا بـدر تـم جميـل
مليـح تـردي بـثـوب الـبـهـا ... يـذيب القلـوب بجفـن كحيـل
اذا مـا تثنـى تـرى الغصـن قـد ... تستـر بـالـورق وهـو ذليـل
غـزال غـزا القلب قبـل اللقـا ... بسيف جفـون مـبيـر صقيـل
حسـام يبيـد اسـود الشـرى ... غـدا الخـد مـنـه بظـل ظليـل
تخـالـه روضـا ولـكـنـه ... ارانـا لظـى الجمـر وهـو بليـل
شممـت شـذاه ولـولا التقـى ... جنيـت لاشفـي بـذاك الغليـل
واطفـات نـار صميـم الحشـا ... بـريـق يـروق بـه الـزنجبيـل
فـلـله يـوم عـلـى غـفـلـة ... بشـاطىء نهـر حكـى السلسبيـل
ولحـن هـزار فـصـيـح تـلا ... حمـامـا ينـوح ويبكـي الهـديـل
وكـاس مـدام يـدور بهـا ... مليـح صبيـح نـبيـه نـبيـل
لطيف هـفـيـف ظـريف فمـا ... يطيب سـواه لقلبـي خـلـيـل
الا يـا عـذولـي تـرفـق ولا ... تلمنـي هـديت سـواء السبيـل

(2)

رأتني اشـم الـورد يومـا فـاقبلت ... تـلاحظني شزرا وقـد ملئت غيظـا
فقـالت امـا فـي الخـد مني مقنـع ... فقلت : بلى لكـن فمن لي بـد حظـا
فولت تجـر الـذيـل تيهـا وتنثني ... وتكسر لي من فـرط نخوتها لحظـا
فلله مـا احلـى رشـاقـة قـدهـا ... ويامـا أحيلى ذلك التيـه واللفظـا

(3)

رثـاء زوجتـه

كيف اصطباري للخطوب الجـائـرة ... قـد غـاب عقلـي والنـوائب حاضرة
عظم المصـاب فمـا السلـو بممكـن ... تبت زخـارفـه وضلت خـاسـرة
فالقلب فـي حـر الجـوى متقلب ... والعـين عـين كـل حيـن عـابـرة
يا قلب ذب كـمـدا ويـا عـين اسكبي ... دمعـا يـزيد على السحابـة ماطرة
حتى اذا نفـدت جواهـرك انثـري ... سمط العقيـق فـلا عدمتك نـاثـرة
وبـاتمـد التسهيـد فـاكتحلـي ولا ... يـات الصبـاح عليك الا سـاهـرة
عـادي الرقـاد عـداوة ابـديـة ... فحبيبتـي رحلت لـدار الاخـرة
هيهـات هيهـات الصفـا وزمـانـه ... فـالعيش فى كـدر بموت «الطاهرة»
رزء لـه انفطـرت سمـاء سـرورنـا ... وغـدت كـواكب انسنـا متنـاثـرة

خلت القيامة بادرتنا دفعة ... فالنفس سكرى والجوارح حائرة
لولا نسيم اللطف هب على الحشا ... لفنى الجسيم من الجحيم الزافرة
قاسيت ما قاساه صب حبابة ... ومحب لبنى فى القرون الغابرة
قال العواذل : كيف تبكي زوجة ... والدور حولك بالكواعب عامرة
ما كان اجهلهم وابعد رأيهم ... اين الصواب من العقول الفاترة
ان امرء قطع الزمان بخطبه ... احدى يديه فهل له من جابرة..؟

(4)

واعظ ..!

ولم انس اذ وافيته وهو جالس ... على كرسي التوريق يدعو الى الرشد
عفا الله عنه كيف يسمع وعظه ... وقد سلب الالباب باللحظ والخد
وصارت عيون الناس تعبد وجهه ... وتسجد في روض الجمال الى الورد
فوا عجبا من واعظا يرشد الورى ... اضل عقول الخلق لكن بلا قصد
نزيه جناب لا يحيد عن التقى ... تبارك من حلاه بالحسن والمجد
على انه باللفظ يدعو الى الهدى ... وباللحظ يغرينا على طاعة التجدي

(5)

شمطاء

وجارية شبه سعد الأديب ... لوجه قبيح وجسم معيب
عجوز تجاوز ام الحليس ... بدهر طويل مديد رحيب
حفيدة حام على انها ... راته وقد دخلت فى المشيب
اذا ما مشت وقفت ريثما ... تئن انين العليل الغريب
وان صعدت درجا كيفما ... تكاد من الغشيان تغيب
وتفسو كخنفسه بيننا ... فتلجئنا لبخور وطيب
وقد فض فوها قديما فما ... تحب من القوت الا الحليب
وتندب ناسا لها ملكوا ... فتنشد بالحال قول اللبيب
(متى يجمع الله شملي بكم ... فقولوا قريب. قريب. قريب.)

(6)

سبو

هل بارض الغرب نهر كسبو ... فاليه الحسن طرا ينسب
ان قوما حدثوني قبل ذا ... عن بهاه ولكم قداً سهبوا
صدقوا والله فيما قد حكوا ... واصابوا حيث فيه رغبوا
هو نهر طاب ماء وحلا ... اى نهر هو منه اعذب

هو في الانهار اضحى ملكا   وسواه في الرعايا يحسب
اذ اليه كل نهر ينتمي   وملوك الغرب منه تشرب
ان علت بالنيل مصر فلقد   بسبو الا شهى تسامى المغرب
لا زدراع وانتفاع وازدها   حبذا النهر ونعم المشرب
ذو اعوجاج فى ابتهاج وصفا   شربه تنفى لديه الكرب
جئته ابغى ارتياحا والحشا   في اكتئاب وفؤادي متعب
فغدا لى لا عدمنا حسنه   صارما هامة همي يضرب
حافتاه بدتا فى سندس * عبقرى نسجته السحب
وترى الزهر به كالطراز او * كنجوم ضاء منها الغيهب
غير ان الشهب يخفي ضوءها * ونجوم الزهر ليست تغرب
سرح الاجفان فى الارض تجد * حكمة دقت وسرا يعجب
عجبا للارض اضحت جنة * كيف لا ينسى لديها النصب
يا خليلي فاغتنم وقت الهنا * كن اريبا قد اتاك الارب
زمن الازهار ضيف فاغتنم   ستراه عن قريب يذهب
واصل اللذات فيه واجتهد   واعص قوما في التسلي ابوا
او لسنا قد حللنا بقعة   هاجم الاحزان منها يهرب
من هنا جاء اشتقاق لاسمها (6)   والاسامي جلها لا يكذب
لا يحوم الكرب يوما حولها   او تراه من فضاها يقرب

والديوان فى مجمله جدير بالدراسة والنشر والتعليق لما يضم من اشعاعات عن مصالح ماض قريب..!

وقد ودع السناني هذه الحياة كما يقول ولده الشيخ محمد الراضي بعد ما حج وجاهد وانقطع للذكر والعبادة ... بمسجد سيدي يعلى بالطالعة الكبرى حيث كان يسرد كتب الوعظ ويجتمع حوله اصدقاؤه ورفاقاؤه...

وكانت وفاته سنة 1319 هـ ومثواه خارج باب عجيسة قبالة ضريح سيدى محمد بن الحسن رحمه الله.

التعليقات

(1) انظر ص 94. ط فاس 1343 ه.

(2) احاديث عن الادب المغربي للحديث ص. 29 ط. القاهرة 1964 م.

(3) انظر معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة ص. 121 ج. 2 ط. فاس 1350 ه.

(4) مترجم في السلوة ج. 3 ص. 347.

(5) الهاربة : ارض فلاحية معروفة بجوار نهر سبو..!

العلاقات الدبلوماسية بين الاندلس وايطاليا في الفترة الاموية

(١٢٨ ـ ٣٦٦ هـ/٧٥٥ ـ ٩٧٦ م)

بقلم

دكتور عبد الرحمن علي الحجي

ليس لدينا معلومات مدونة ـ عدا نتفا ـ عن علاقات دبلوماسية قامت بين ايطاليا والاندلس. ولعله من المتوقع ـ الى حدما ـ الا توجد علاقات، ودية او حربية، قوية مستمرة بين البلدين؛ كما هو الحال مع اسبانيا الشمالية او بلاد الفرنج، نظرا للجوار وقيام احتكاك ومصالح مشتركة او مشاكل تقتضى التفاهم والحل؛ مما لم يكن قائما بين ايطاليا والاندلس. وحينما وجد هذا الاحتكاك والمصالح المشتركة بين ايطاليا ومسلمي صقلية او افريقية ـ مثلا ـ قامت بينهما بعض العلاقات وان كانت ـ ربما ـ مؤقتة، سواء مع دول (دوقيات) ايطاليا ـ خاصة في الجنوب (١) او مع الدولة البابوية (٢) وكل المعلومات التي نملكها عن قيام علاقات ودية، ايطالية ـ اندلسية، نجدها في عصر الخلافة القرطبية(٣). خاصة ايام عبد الرحمن الناصر (٣٩٩ ـ ٩١٢/٣٥٠ ـ ٩٦١).

واغلب هذه المعلومات في الحقيقة ـ ان لم تكن كلها ـ تكاد تكون مغلقة مبهمة، عبارة عن خبر بجملة، ربما تكون عرضية، وعلى الاغلب دون ذكر لاسباب ذلك النشاط الدبلوماسي او أهدافه ونتائجه، ودون تعيين لتاريخه او اسم الحاكم الايطالي الذي قام به، فضلا عن عدم ذكر اي تفصيلات عن الكيفية التي تم بها هذا النشاط. ولعلنا كنا نتوقع وجود تبادل سفاري بين ايطاليا ـ بسلطتها المختلفة ـ والاندلس اكثر من النصوص التي لدينا، خاصة بين الدولة البابويه (التي كانت تمثل ـ بجانب السلطة الزمنية في داخل حدودها (٤) زعامة العالم المسيحي) وبين الخليفة الناصر، الذي كان من اقوى حكام العالم الاسلامي ان لم يكن اقواهم طرا. وليس ببعيد عن الصواب ان يفترض وجود مثل هذه العلاقات، اذ النقص ـ على ما يظهر ـ في تلك المعلومات التي وصلتنا عن اخبار هذه العلاقات.

يذكر دوزي ان الناصر دخل في علاقات وديـة مع ملك ايطاليا (في الشمال) هـوج البـروفنـي Huges (Hugh) of Provence دون ان يقـدم اي تفصيـلات اخرى (٥) وجليا ان المصلحة المشتركة دفعت الى قيام هذا التحالف بين الطرفين. ويظهر ان السبب المباشر، الذي دفـع الى هذا التحالف، هو الموقف المتماثـل، لكل منهما، تجـاه الخلافة الفاطمية (٦) وعلى الرغم من معقولية قيـام هـذا التحالف، فانني لم اجد في كـل من المصادر الاوربية والاسلامية ذكـرا لهـذا التحالف او ما يمكن ان يتنـاظر معـه. ان دوزي لـم يـذكـر المصدر الـذي استقى هذا الخبر منه، وكـل الذين ذكـروه بعد ذلك نقلوه عـن دوزي (٧) ولكن لدينا مصدر يخبرنـا بان هوج البرفنسي هـذا، في حوالي ٩٤١ م (٨)، عقد صلحـا مع الدويلة الاسلامية التي اسسها بعض المغـامرين الانـدلسيـين في ضراكسنيتوم «جبل القـلال» قـرب خليـج سنت ترويـز، شمـال شرقي مرسيليا (شمـال طـولـون) حيث تقـوم اليوم ـ على مـا يظهـر ـ قـريـة «كارد فرينة» (٩) وان دوزي لم يذكر تاريخا لمعاهدة هوج مـع الناصر، ولكن يظهـر انها كانت في وقت ما بعـد سنة ٩٣٥ م، تاريخ مهـاجمـة الفاطميـين لجنـوة (١٠) وربما قبـل ٩٤٢ م.

ان ليفي بروسفال (١١) يجعل هوج هذا هـو المقصود بـ «أفوه» في نص ابن خلدون «وآخـر [يعني ان رسولا آخـر حضر الى بلاط الناصر] مـن ملك الفرنجه وراء المغـرب، وهو يومئذ افوه» (١٢) ولكن هذا الوصف «ملك الفرنجة وراء المغـرب» لا ينطبق على هوج الذي كـان حاكم منطقـة البروفنس (جنوب شرقي فـرنسا) (١٣)، والـذي اصبـح ملك ايطـاليـا (القسـم الشمـالي) فـي ٩٢٦ م (١٤)، بل ينطبـق على هيو الكبيـر (توفى ٩٥٦ م) الذي كـان حاكم دوقيـة (امـارة) باريس. وهذا بالاضافـة الى ان السفارة التي ذكرهـا ابن خلدون يمكـن وضعهـا ـ قياسـا لمـا يجاورهـا مـن أحداث في النص ـ حـوالي ٣٤٢ هـ/٩٥٣ م، بينما هوج هذا، الذي عقـد معاهدة مع الناصر ـ توفي يـوم ١٠ نيسان (ابريل ٩٤٨ ٢٥. من هذه المناقشة يتبـين ان هذه السفـارة التي ذكرها ابن خلدون كـانت من هيو الكبيـر الى الناصر وليست من هوج.

تذكر الرواية الاسلامية (اثناء الحديث عن بناء الزهراء المدينـة الخليفيـة التي ابتدأ الناصر بنـاءها في محـرم ٣٢٥/تشريـن (نـوفمبـر) ٩٣٦، ذلك البناء الذي استغـرق اربعـين (٢٦) سنة) ان السواري التي استعملت في بنـاء الزهراء والتي بلـغ عددهـا حوالي ٤٣٠٠ سارية (١٧) كـان اربعـون منهـا هدية من ملك رومـا (١٨) ويكاد يكون من المحقق ان تاريخ هذه الهديـة كـان

خلال الخمس والعشرين سنة الاولى من فترة بناء الزهراء؛ وهي تقابل النصف الثاني من حكم الخليفة الناصر. ولكن من الصعوبة تعيين هذا التاريخ. ولا يستبعد ان تكون هذه الهدية قد جلبت مع سفارة روما التي حضرت الى قرطبة بصحبة سفارات من اقطار اوربية اخرى، لم يعين لها تاريخ، وقد ساقها ابن خلدون في حديثه العام عن الناصر، وكانت هذه السفارات قد حضرت الى بلاط قرطبة ـ بالهدايا ـ طالبة الصداقة والسلم (١٩). اما اذا لم نعتبر خبر هذه السفارة من باب الحديث العام عن الناصر، واعتمدنا على مكان ذكرها من الاحداث المجاورة لها في النص، واذا كان بالامكان استنتاج تاريخ لهذه السفارة ـ على ضوء ما تقدم ـ فمن المحتمل ان يكون حضورها الى قرطبة (من روما) حوالى ٣٣٤/٩٤٥ او ربما بعد ذلك. ولعل مرسلها ـ على هذا الاعتبار ـ هو البابا مارينوس الثاني (٩٤٢ ـ ٩٤٦) (٢٠) او أجابيتوس الثاني (٩٤٦ ـ ٩٥٥ م) (٢١).

ويذكر ابن خلدون ـ ولعله ينقل عن ابن حيان ـ بان سفارة حضرت الى بلاط الناصر، من سلطات روما، طالبة الصداقة وحسن الصلة، من غير ذكر لتاريخ او اسم الحاكم الذي ارسلها فيقول : «ووصل بعده [بعد سفارة حاكم برشلونة] رسول صاحب رومة يطلب المودة فاجيب (٢٢) ومن حديث ابن خلدون وبالقياس على الاحداث السابقة لذكر هذه السفارة، يمكن وضعها في حوال ٣٤٣ هـ/٩٥٤ م. وعلى ذلك تكون هذه السفارة قد ارسلت من قبل البابا أجابيتوس الثاني (٢٣) اما الاغراض الاخرى لهذه السفارة، وهل هي جوابا لسفارة بعث بها الناصر الى روما، او هي نفسها السفارة السابقة؛ كل ذلك من الصعوبة البت فيه على ضوء المصادر التي لدينا.

يورد لنا العذري ـ في نص اكتشف حديثا ـ مقطعا عن مقابلة ودية ـ غير رسمية ـ تمت بين الرحالة (أو التاجر) اليهودي (او المسلم) : ابراهيم ابن يعقوب الاسرائلي الطرطوشي وبين ملك الروم برومية [روما] (٢٤). والذي أفهم من هذا النص انها مقابلة تمت مع البابا يوحنا الثاني عشر (٩٥٥ ـ ٩٦٤ م)، (٢٥) في سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م. ويعتقد انها كانت مقابلة خالية من اي طابع رسمي او حتى شبه رسمي. وان هذه المقابلة لم تكن بين الطرطوشي واوتو الكبير ـ امبراطور المانيا (٩٣٦ ـ ٩٧٣ م) (٢٥). واورد هنا نص العذري الخاص بهذه المقابلة دون التعليق عليه (٢٦) يقول العذري :

«وقد رايت من قدم خبرها (٢٧) أن ابراهيم بن يعقوب الاسرائلي الطرطوشي أخبر أن ملك الروم بروميه سنة خمسين وثلثمائة من الهجرة قال له اني اريد ان ارسل الى امير المؤمنين بالاندلس قومسا حاذقا بهدية، وان من اعظم حوائجي عنده، واجل مطالبي قبله وذلك أنه صح عندي أن في القاعة الكريمة كنيسة وفي الدار منها زيتونة اذا كان ليلة الميلاد (٢٨) نورت وعقدت وأطعمت من نهارها فاعلم أن لشهيدها محلا عظيما عند الله عز وجل فاضرع الى معاليه في تسليل أهل تلك الكنيسة ومداراتهم حتى يسمحوا بعظام ذلك الشهيد، فان حصل لي هذا فهو كان اجل عندي من كل نعمة في الارض» (٢٩).

ان النصوص التي وردت في اعلاه عن العلاقات الدبلوماسية بين ايطاليا والاندلس هو كل ما لدينا عن هذا الموضوع، ولا يستبعد ان تكون هناك سفارات اخرى قد تبودلت بين البلدين، خاصة في ايام الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، المتوفى ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م، قد ضاعت اخبارها، كما ضاعت اخبار أحداث اخرى كثيرة. ولعله ـ فيما ياتي من الايام ـ يكشف عن نصوص مصدرية اصلية تلقي ضوء جديدا أعلى هذا الموضوع، كما القت غيرها من النصوص التي تم اكتشافها في السنوات القليلة الماضية، والتي كان من بينها نص العذري القيم.

التعليقات

(١) انظر : المدني، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا، ص، ٧٦، ٧٧، ١٤٧؛
. Mann, *The Lives of the Popes*, vol. III, pp. 281, 285, 296, 321 ff.

(٢) كما حدث ـ مثلا ـ مع البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ ـ ٨٨٢ م) في حوالي ٨٧٨ م. انظر :
Gregorovius, *History of the City of Rome*, vol. III, 184 ; Amari, *Storia dei Musulmani di Sicilia*, vol. I, p. 593 ; Hitti, *History of the Arabs*, p. 604 ; Lewis, *The Arabs in History*, p. 117.
لم تكن ايطاليا في هذه الفترة، خاضعة كلها لسلطة واحدة بل كانت فيها عدة دوقيات مستقلة، بالاضافة الى الدولة البابوية (روما وما حولها)، عاشور، اوربا العصور الوسطى، ١/٣٢٨ وما بعدها.

(٣) كان حكام بني امية في الاندلس، قبل الناصر، يسمون بالامارة؛ فكان الناصر اول من تقلب بالخلافة وامارة المومنين في الثاني من ذي الحجة ٣١٦/١٦ يناير (كانون الثاني) ٩٢٩. انظر : ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص، ١٩ ـ ٣٠؛ ابن عذاري، البيان، ٢/١٩٨؛ ابن خلدون، العبر، ٤/٢/٢٩٨؛ المقري، نفح الطيب، ١/٣٣٠؛ ابن سعيد، المغرب، ١/١٧٧؛ ابن الابار، الحلة السيراء، ١/١٩٨؛ عنان، دولة الاسلام في الاندلس، ٢/٣٩٢. وكذلك :
Una Cronica Anonima de ʿAbd al-Raḥmān III le-Nāṣir, p. 195 ; Gonzalez Palencia, « El Califato Occidental », *Revista de Archivos*, vol. XXVI, p. 192 ; Lévi-Provençal, *Historia de España : España Musulmana*, tomo IV, p. 321 ; Imamuddin, *A Political History of Muslim Spain*, pp. 98-9.

(٤) Bryce, *The Holy Roman Empire*, p. 131 ; Gregorovus, *op. cit.*, vol. III, pp. 321, 328 ; Duchesne, *The Beginning of the Temporal Sovereignty of the Popes*, pp. 126, 223, 225. وكذلك : عاشور، اوربا، ١/١٦٠.

(٥) . Dozy, *Spanish Islam*, p. 434.

(٦) هاجم الفاطميون جنوة في ٩٣٥. المدني، المسلمون في جزيرة صقلية، ص، ١٣٨. وكذلك :
Cambridge Medieval History, vol. III, p. 155 ; Liudprand, *The Works of Liudprand of Cremona*, p. 144.
ومن ناحية اخرى فقد كان الناصر في حالة حرب مع الفاطميين واتخذ كل الاحتياطات لرفع خطرهم، كان منها هذه المعاهدة. وامكي، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية، المجلد الثاني، ص، ١٢١ـ٥. وكذلك :
Lévi-Provençal, *Al-Andalus*, vol. XI, pp. 366-73 ; Gonzalez Palencia, *Historia de la España Musulmana*, pp. 46-7 ; Hitti, *History of the Arabs*, p. 521.

(٧) العبادي، نفس المصدر والصفحة؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص، ٢٨٨.

(٨) Liudprand, *op. cit.*, p. 187 ; Reinaud, *Muslim Colonies*, pp. 130 ff.
وكذلك : شكيب ارسلان، تاريخ غزوات العرب، ص، ١٧٤؛ عنان، دولة الاسلام، ٢/٤٢٨.

(٩) راجع عن هذه الدولة.
Reinaud, *op. cit.*, pp. 130 ff.; Amari, *op. cit.*, vol. I, p. 46.
وكذلك : شكيب ارسلان، نفس المصدر، ص، ١٦٠ وما بعدها؛ عنان، نفس المصدر، ٢/٤٢٥ وما بعدها.

(١٠) *Cambridge Medieval History*, vol. III, p. 155 ; Liudprand, *op. cit.*, p. 144 .
كذلك : المدني، نفس المصدر، ص، ١٣٨.

(١١) Lévi-Provençal, *Historia de España*, vol. IV (*España Musulmana*), pp. 352, 368 No. 167.

(١٢) ابن خلدون، العبر، ٤/٢/٣١٠ (نقله المقري، النفح، ١/٣٤٢).

(١٣) *Cambridge Medieval History*, vol. III, p. 136; Reinaud, *op. cit.*, pp. 138, 143 .

(١٤) *Cambridge Medieval History*, vol. III, pp. 139, 156.

(١٥) *Cambridge Medieval History*, vol. III, p. 158.

(١٦) Balbas, *Historia de España*, vol. V (*España Musulmana*), p. 424; Imamuddin, *op. cit.*, p. 103.

(١٧) ابن حيان (نقله المقري، النفح، ٢/١٠٢)؛ البيان، ٢/٢٣١؛ ابن غالب، فرحة الانفس، مجلة معهد مصر المخطوطات، ١/٣٠١؛ عنان، دولة الاسلام، ٢/٣٩٨. وكذلك :
. Balbas, *op. cit.*, p. 434 ; Lane-Poole, *The Moors in Spain*, p. 140.

(١٨) ابن غالب، نفس المصدر والصفحة؛ المقري، النفح، ٢/١٠٢؛ عنان، نفس المصدر، ٢/٣٩٩. كذلك :
. Balbas, *op. cit.*, p. 434 ; Lane-Poole, *op. cit.*, p. 140.
ويظهر محققا ان «ملك روما» هنا هو البابا؛ اذ قد ورد هذا الاستعمال صريحا عند ابن رستة حين الحديث عن روما ـ نقلا عن هارون بن يحيى ـ في الاعلاق النفيسة، ٧/١٢٨. انظر كذلك : ابو حامد الغرناطي، تحفة الالباب، المجلة الاسيوية *Journal Asiatique* (١٩٢٥)، ص، ١٩٤.

(١٩) ابن خلدون، العبر، ٤/٢/٢٩٩ (نقلها المقري، النفح ١/٣٣١). ويظهر ان ابن خلدون نقل هذا الخبر عن ابن حيان، انظر كذلك :
Palencia, *Revista de Archivos*, vol. XXVI, p. 195 ; Reinaud, *op. cit.*, p. 151 ; . Hitti, *op. cit.*, p. 524.

(٢٠) عن هذا الباب راجع :
. Mann, *The Lives of the Popes*, vol. IV, pp. 218-23

(٢١) عن هذا الباب راجع : Mann, *op. cit.*, vol. IV, pp. 224-240 .

(٢٢) ابن خلدون، العبر، ٤/٢/٣١١؛ المقري، ١/٣٤٣. كذلك :
Gayangos, *The History of the Mohammedan dynasties in Spain*, vol. II, p. 140; Lévi-Provençal, *Historia de España*, IV, p. 352 ; Murphy, *History of the Mahometan Empire in Spain*, p. 102.

(٢٣) يعتبر عنان (دولة الاسلام، ٢/٤١٧) هذه السفارة من قبل البابا يوحنا الثاني عشر، دون ان يناقشها. ولا يظهر ان الامر كذلك، اذ لو كان كذلك، لما كان مثل هذا الحديث الذي دار بين هذا البابا (يوحنا الثاني عشر) وبين الطرطوشي، الذي سيرد ذكره؛ ولا تخذ هذا الحديث شكلا آخر.

(٢٤) عن الطرطوشي راجع مثلا : مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية، المجلدان ٧ ــ ٨، ص، ٢٧٢ ــ ٧٦. وكذلك :
The Jewish Encyclopaedia, vol. VI, p. 554 ; Rapoport, *The Slavonic Review*, vol. VIII, p. 331 ff.

(٢٥) عن هذا البابا راجع : عاشور، اوربا، ١/٣٠٢ وكذلك :
. Mann, *The Lives of the Popes*, vol. IV, pp. 241-72.

(٢٦) عن الامبراطور اوتو الكبير راجع : عاشور، اوربا، ١/٢٩٨ وما بعدها. وكذلك : *Encyclopaedia Britannica*, vol. XVI, p. 964.

(٢٧) قمت بدراسة مستفيضة عن هذه المقابلة، مبنية على نص العذري هذا وعلى الدراسات التى ظهرت عن الطرطوش بلغات عدة. ولطول هذه الدراسة فلها مكان آخر.
الدراسة فلها مكان آخر.

(٢٨) ضمير الهاء هنا يعود الى شجرة زيتون مقدسة في ساحة في كنيسة كانت تقع قرب مدينة لورقة التى تقع حاليا بين مدينتي غرناطة ومرسية فى جنوب شرقي اسبانيا. عن مدينة لورقة راجع الحميري، الروض المعطار، ص، ١٧١؛ ياقوت، معجم البلدان ٧/٣٤٢. كذلك :
. Lévi-Provençal, *Encyclopaedia of Islam* (Old. Ed.), vol. III, p. 32

(٢٩) يعني ليلة ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

(٣٠) العذري، نظام المرجان، ص، ٧ ــ ٨. وعن هذه القصة راجع ايضا : الحميري، الروض المعطار، ص، ١٧١؛ القزويني، آثار البلاد، ص، ٥٥٦، أوردها حين الحديث عن لورقة والقزويني يسميه ابراهيم بن احمد الطرطوشي، مما يجعل الدارس يميل الى الاعتقاد بان الطرطوشي كان مسلما وليس يهوديا او انه كان يهوديا ثم اسلم. عن الطرطوشي هذا راجع ايضا :
Canard, *Etudes d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal*, vol. II, pp. 503-508.

بعض الاعــلام الواردة في المقــال

1 — Agapitus	فــرنج
2 — Andalusia	كـارد فرينة (قرية)
3 — Otto I (the Great)	لورقــة (مدينة)
4 — Barcelona	مارزينوس (بابا)
5 — Genova	مرسيليا
6 — St. Tropez	مرسيــة
7 — Sicily	هوج البروفنسي
8 — Toulon	هيو العظيم
9 — Granada	يوحنــا (بابا)
10 — Fraxinetum	أجابيتوس (بابا)
11 — Franks	الاندلس
12 — Garde-Frainet	اتو الأول (الكبــير)
13 — Lorca	برشلونــة
14 — Marinus	جنــوة
15 — Marseilles	سنت ترويز (خليج)
16 — Murcia	صقليــة
17 — Hugues (Hugh) of Provence	طولون (مدينة)
18 — Hugh the Great	غرناطــة
19 — John	فرالسنيتوم (قلعة)

مصــادر المقــال

اولا – المصــادر العـربيـة

١ – ابن الابـار، الحلـة السيراء، ت. حسـين مؤنس، القـاهرة، ١٩٦٣، الجـزء الاول.

٢ – ابن الخطيب، أعمـال الاعـلام، ت. ليفي بروفنسال، بـيروت، ١٩٥٦.

٣ – ابن خلدون، العبر، بـيروت، ١٩٥٨، المجلـد الرابـع، القسم الثـاني.

٤ – ابن رستـه، الاعـلاق النفسيـة، ت. دي خـويـه، ليـدن، ١٨٩١، الجزء السابـع.

٥ – ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ت. شوقي ضيف، القاهرة، ١٩٥٣، الجـزء الاول.

٦ – ابن عذاري، البيان المغـرب، ت. ليفي بـروفنسال وكـولان، ١٩٥١، الجـزء الثاني.

٧ – ابن غالب الاندلسي، فرحة الانفس، ت. لطفي عبد البديع، مجلة معهـد المخطوطات (الجامعـة العربيـة)، القاهـرة، ١٩٥٥، المجلـد الاول، العدد الثاني.

٨ – ابو حامد الغرناطي، تحفـة الالبـاب، ت. فـران، المجلـة الاسيويـة، *Journal Asiatique* باريس، ١٩٢٥، المجلد ٢٠٧.

٩ – الحمـيري، صفة جزيرة الاندلس منتخبة مـن الـروض المعطـار، ت. ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٢٩.

١٠ – سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمـين وآثـارهم في الانـدلس، بـيروت، ١٩٦٢.

١١ – شكيب ارسلان، تاريخ غزوات العرب، القـاهـرة، ١٣٥٢ هـ. يعتمـد بصورة رئيسية على كتاب رينو. انظر اسفل رقم ٤٠.

١٢ – عاشور، سعيد عبد الفتاح، اوربا العصور الوسطى، الجزء الاول (التاريخ السياسي)، القاهرة، ١٩٦١.

١٣ – العبادي، احمد مختار، «سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس»، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد، المجلد الخامس، ١٣٧٧/١٩٥٧.

١٤ – العذري، احمد بن عمر بن أنس، نظام المرجان في المسالك والممالك، ت. عبد العزيز الاهواني، (تحت الطبع)، مدير المعهد، لمساعدتها واعطائي ملازم هذا الكتاب.

١٥ – عنان، محمد عبد الله، دولة الاسلام في الاندلس، القاهرة، ١٩٦٠، الجزء الثاني.

١٦ – عنان، تراجم اسلامية، القاهرة، ١٩٤٧.

١٧ – القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد واخبار العباد، بيروت، ١٢٨٠/١٩٦٠.

١٨ – مجهول، مدونة مجهولة المؤلف عن عبد الرحمن الناصر، ت. ليفي بروفنسال وغرسية غوسى، مدريد/غرناطة، ١٩٥٠، بعنوان :

١٩ – المدني، احمد توفيق، المسلمون فى صقلية وجنوب ايطاليا، تونس، ١٣٦٥ هـ.

٢٠ – المقري، نفح الطيب، ت. محي الدين، القاهرة، ١٩٤٩، الجزء الاول والثاني.

٢١ – مكي، «محمود علي، التشيع فى الاندلس»، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، المجلد الثاني، ١٣٧٣/١٩٥٤.

٢٢ – مؤنس، حسين، «الجغرافية فى الاندلس»، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، المجلدان ٧ ـ ٨، ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠.

٢٣ – ياقوت الحموي معجم البلدان، القاهرة، ١٩٠٦، المجلد السابع.

ثانيا – بالانجليزية

24 — Bryce, J., *The Holy Roman Empire*, London, 1904.

25 — Dozy, R., *Spanish Islam* (Eng. tr. from the French by F.G. Stokes), London, 1913.

26 — Duchesne, L., *The Beginning of the Temporal Sovereignty of the Popes* (Eng. tr. from the French by A.H. Mathew), London, 1908.

27 — *Encyclopaedia Britannica*, 1952, vol. XVI.

28 — Encyc..., *The Jewish Encyclopaedia*, 1904, vol. VI.

— *Encyclopaedia of Islam* — see Lévi-Provençal.

29 — Gayangos, Pascual de, *The History of the Mohammedan Dynasties in Spain* (extracted from *Nafḥ Aṭ-Ṭib*), London, 1843, vol. II.

30 — Gregorovius, F., *History of the City of Rome in the Middle Ages* (Eng. tr. from the German by A. Hamilton), London, 1895, vol. III.

31 — Hitti, P.K., *History of the Arabs*, London, 1960.

32 — Imamuddin, S.M., *A Political History of Muslim Spain*, Dacca (Pakistan), 1961.

33 — Lane-Poole, S., *The Moors in Spain*, London, 1897 (The Story of the Nations, No. 6).

34 — Lévi-Provençal, E., Lorca, *Encyclopaedia of Islam* (Old Edition), 1936, vol. III.

35 — Lewis, B., *The Arabs in History*, London, 1958.

36 — Liudprand, Bp. of Cremona, *The Works of Liudprand of Cremona* (Eng. tr. from Latin by F.A. Wright), London, 1930.

37 — Mann, H.K., *The Lives of the Popes in the Early Middle Ages*, London, vols. III (1906) & IV (1910).

38 — Murphy, J.C., *History of the Mahometan Empire in Spain*, London, 1816.

39 — Rapoport, S., « *The Narrative of Ibrahim-Ibn-Yakub* », *The Slavonic Review*, London, 1929, vol. VIII, No. 23.

40 — Reinaud, J., *Muslim Colonies in France, Northern Italy and Switzerland* (Eng. tr. from the French by H.K. Sherwani), Lahore (Pakistan), 1964.

41 — *Cambridge Medieval History*, vol. III. (The Kingdom of Burgundy, by L. Halphen & Italy in the tenth century, by C.W. Previté-Orton).

ثالثا – بالفرنسية

42 — Canard, M., « Ibrāhīm Ibn Ya'qūb », *Etudes d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal*, Paris, 1962, vol. II.

رابعا – بالاطالية

43 — Amari, M., *Storia dei Musulmani di Sicilia*, Catania (Sicily), 1933, vol. I.

خامسا – بالاسبانية

44 — Balbás, L.P., *Arte Hispanomusulmán, Historia de España* (ed. by R.M. Pidal), tomo V, *España Musulmana*, Madrid, 1957.

45 — Lévi-Provençal, E., « La Política Africana de 'Abd al-Raḥmān III », *Al-Andalus*, Madrid, 1946, vol. XI, fasc. 2.

46 — Id., *Historia de España* (ed. by R.M. Pidal), tomo IV, *España Musulmana* (Sp. tr. from the French by E. García Gómez), Madrid, 1957.

47 — Palencia, A. González, « El Califato Occidental », *Revista de Archivos*, Madrid, 1922, vol. XXVI.

48 — Id., *Historia de la España Musulmana*, Barcelona, 1932.

محمد بن تاويت

نقد الكتب

تاريخ افريقيا الشمالية

لشارل أندري جوليان

تعريب

محمد أمزالي   البشير بن سلامة

وهذا كتاب هام في تاريخنا القديم، الذى ينتهي بظهور الاسلام، وهو بحق يعد الحلقة الاولى لتاريخنا الصحيح في تلك الحقبة الغامضة، التي كان المغرب الاقصى فيها، صاحب النصيب الاوفر في هذا الغموض، والنصيب الاضأل من هذه الدراسات المنيرة، القائمة على قواعد صحيحة واستنتاجات علمية.

واذا كان من ملاحظات على الكتاب، فانما هي حول تعريبه، من لدن مثقفين أصيلين مقتدرين، وهما صديقنا محمد مزالي والسيد البشير بن سلامة.

لقد اجتمعت بالاستاذ مزالي في القاهرة، أواخر سنة سبع وخمسين، اذ كنا نمثل بلادنا في مؤتمر الادباء العرب، فعرفته شابا على ثقافة عربية متينة، وفي حرارة متقدة من الغيرة الوطنية، وعلى مقدرة من الخطابة والجدال، تعرض لها الوفد التونسي، وقد تصدى له الوفد اللبناني، فكان مزالي المدافع المستميت عن زميله التونسي، في صلابة ومنطق وعربية سليمة في ارتجالها المفاجىء ...، فاعجبت بالاستاذ مزالي، ثم أعجبت بمجلته «الفكر»، وهي مجلة في دراستها العميقة، وفي تجديدها وتركيز بحوثها، مما تفتخر بها العربية، على العموم، وفي الشمال الافريقي على الخصوص، وقد علمت أن مزالي اسندت اليه مناصب ثقافية، قام باعبائها خير قيام.

ولم يبق لنا الا البشير بن سلامة، الذي نعده لا يقل عن قدرة زميله، في هذه العربية، التي عملا معا فى حقلها، وان كنا بحق على خجل، من عدم معرفتنا به، معرفة اتصال شخصي، كما هي لنا مع زميله الاستاذ مزالي.

وملاحظتنا التي قدمنا، لا نريد بها ما اتصل بالعربية، بقدر ما نريد بها ما اتصل بالمغرب والمغربية، ونحن ولله الحمد، مومنون بالمغرب الكبير العربي، الذي يومن به مزالي، وكان يعمل على تحقيقه، من قبل أن تستقل الجزائر، وبرهن على هذه الغاية النبيلة، فى تلك المناسبة بعينها، وفى «الكواليس»، كما يقال، ولعله، على ذكر منه، ونحن الثلاثة، من تونس والجزائر والمغرب.

من المآخذ المغربية، التي تعتب عليها، أسماء الاماكن الجغرافية، مثل

المليلة بدل «مليلية» أو مليلة، كما في الصفحة	185	
الملوية، بدل «ملوية» كما في الصفحة	190	وغيرها
الذراع، بدل «درعة»، كما في الصفحة	31	وغيرها
أوزيلة، بدل «أصيلة»، كما في الصفحة	171	
الاعراش، بدل «العرائش» ،،،	،،،	
جوز، بدل «الحوز»	22	وغيرها
واد لخوس، بدل «وادي لكوس» ،،،	،،،	
دوكالة، بدل «دكالة»	21	
الشليف، بدل «شليف»	33	
وقريني، بدل «قرينة»	26	وغيرها

ومن هذه، وان لم تكن من القبيل الجغرافى «بلاد الصبا» والمراد بها «بلاد السايبة»، كما كان معروفا، فيما مضى ص 82 وغيرها ويبدو أن المؤلف كان معتمدا على المصادر الاسبانية في جغرافية المغرب، فهو يكتب كانيون بالاسبانية، وترجم بالخور، ومسيتا وأصلها تصغير ميسا، اى المائدة، ولكن المعربين، كتباها «الميزيتا» على قاعدة الاملاء الفرنسي، من نطق السين زايا بين حركتين ولا نقف عند هذا الحد، بل نتدخل فى

«الشؤون الداخلية» فنرى أن تذكر مدينة «قرطجنة» هكذا، لا قرطاج، كالفرنسية ...، وكذلك تذكر الشهور العجمية، بما سبق لها أن عربت به، مثل يَنيو، بدل جوان 151، وغشت، بدل أوت 159، ويناير، بدل جانفي 162 ثم هناك أخطاء عامة، مثل سوف لا، بدل «لن» 127، وبالتالي، بدل «ثم» 30، وسيد ممتطا، بدل «ممتط» 328، والتي كانت أعماله، بدل «والذي كانت أعماله» 158 وشتى الاعمال، بدل «الاعمال العديدة 298، وحمى غودة ضد أخيه، بدل «ونصر غوده على أخيه» 160، والدوارين، بدل «الطوافين» 227، و «الاشد» وصفا للانثى، واهمية ابلغ، والفيل، بدون وصفه بالاطلسي، كما هو في الاصل الفرنسي وملانا، بدل «سيدنا» كما هو في الاصل الفرنسي ايضا، وجزر البليار، كما في الاصل، وغير هذه وهي طفيفة، مع تصحيف قليل جدا.

الاباضيــة موكب التــاريخ

الحلقـة الثـالثـة

تاليف علي يحيي معمـر

بدأ اهتمامي بالاباضية، منذ نيف وعشرين سنة، حيث قـرأت في «المجلـة الاسلاميـة» التي تصدر في لندن بالانجليزية «اسلاميك رفيو» هـذا العنوان «مملكـة فارسية بشمال افريقية».

فاستهواني هذا العنوان، واكببت على قراءة المقـال، الـذي كـان حـول مملكـة الرستميـين بتاهرت، وتتبـع مراحلها التي قطعتهـا في التاريخ، ثـم ما حل بها عند الغـزو العبيدي، من تشتيت وتشريـد، ثـم ذكر الاماكن التي استقرت بها هذه الامة وأهمها ما كان بالجزائر وليبيـا، وما تعرض له هؤلاء اللاجئون عند الحرب العظمى وما تلاها من محن الاستعمار الايطالي والفرنسي.

حقيقة كان البحث شيقا ممتعا جامعا، وقد كـان منطلقا لي في بحثي حـول هؤلاء الرستميـين، فتأت لي دراسة وافيـة، كما اعتقدت، ونشرتها في «صحيفة المعهد المصرى» بمدريد سنة 1957 (العدد 1 ـ 2) بعنـوان «دولـة الرستميـين أصحـاب تاهـرت».

وهكذا بقيت الهمة متعلقـة بالاباضية من حيث اتصال هـذه الدولة بهم، وكـان أهم مرجـع لي في شأنهم، كتاب الازهـار الرياضية لعبد الله الباروني، وهو بحق عمدة غالب الكتاب في هـذا الموضوع، اعتمد عليـه صاحب المقـال السالف واعتمد عليه عثمان الكعـاك عندما تعرض فى كتابـه «موجز التاريخ العام للجزائر» لدولة الرستميـين، واعتمد عليه مؤلفنا الذي نحن بصـدده، ولا شك أن اعتماده عليه فى الحلقتين الاولى والثانية كـا اقوى منه فى هـذه الحلقة، وان لم أكـن مـع الاسف قد اطلعت عليهما حتى الآن.

والواقع ان هـذه الحلقة أجمع ما كتب في تاريخ اباضية تونس وجزيرتهم «جربـة» الخالدة، فلقد تناولهم منذ نشأتهم الى الآن وتعرض للاحداث التـي تعرضوا لها، والفتن التي خاضوها، والحركـة العلميـة التي قاموا على رعايتها،

الى غير ذلك، مما صوره لنا في فصوله المتعة، وفي تراجم رجال الاباضية، الذين لا تقتصر معرفتهم على ان تمدنا بمعلومات قيمة عن اباضية تونس وحدهم.

والكتاب يتناول موضوعه بحرارة وحماس، لم يقصد صاحبه أن يعرض عليك التاريخ ويشرحه، كما يشرح الطبيب الجثث في برود وعدم انفعال، وان كان المؤرخ، كما يقال، يجب أن يتعرى من عواطفه، بل يعرض عليك التاريخ وأنت تشعر أنه جزء منه وأنه يعظك ويذكرك به، ويستجلي لك العبر من أحداثه وأحزانه، لا يفتر في هذا ولا يني من أول صفحة الى أن يصل الى آخرها من الكتاب وهي التي سطر عليها «كلمة الختام» فكانت الصفحة 430.

وهذا لا يعاب به المؤلف، ما دام غرضه قد أفصح به، وهو ليس التاريخ المجرد، مما جعله ينطق في حرية فيكرر في بعض الأحيان، ويقدم ويؤخر في التراجم، بدون ما يلتزم نظاما، لا زمنيا ولا هجائيا، ولا غير ذلك من الالتزامات.

فيه قصص، وفيه وعظ، ولكن فيه أيضا منهجية لبعض فصوله، التي من أهمها ما عقده لجزيرة «جربة»، وما تعرضت له من محن، وما كان من آثار تلك المحن، في داخلها وخارجها.

لقد أطلعنا المؤلف على صفحات قائمة مظلمة، سطرها المعز بن بادس، تلك الصفحات التي كنا غافلين عنها، ونحن المالكية نعم المالكية، الذين نظرو بمنظار أسلافهم، الراضين عن المعز، الذي ثار على الفاطميين، وفتك برجال من الاباضيين، فآمنت بأن المذهب له دخل في التقويم، وان حاول صاحبه أن يتجرد منه، ويتخفف من مسوحه الثقال.

ولولا أن المؤلف بدا لنا مخلصا في عرضه، لكنا نتهمه بالمذهبية أيضا، ونقول انه ما نظر الا من زاويتها، على انه وان كان بهذا الاخلاص، لا يخلو من تحيزه الخفيف لاباضية الجزيرة، فيجعل البطولة لهم في المواقف التي ثبتوا فيها، حتى ولو كان من ورائهم من يؤيدهم ويشد أزرهم، ويبرئهم من كل ما الصق بهم او يعتذر عنهم، حتى ولو كان اصحاب المعاجم يجمعون على مؤاخذتهم كالبكري ومن اتى بعده منهم.

وأنا على معرفتي المحدودة بهم، أحس بشيء من التحيز وشيء من التحامل على المعز، والأيام كفيلة بأن توافق أو تخالف فيما أحسست به، احساسا مجردا او قريبا من المجرد.

هذا وان ملاحظة المؤلف على الباروني، فيما كتبه عن الحملة الاسبانية واسباب اندحارها، ملاحظة صحيحة ولا محال فيها للشك أو النقاش. فالباروني، على اخلاصه فيما كتب، عن الاباضية بالخصوص، اخذ بالمراجع الاسبانية المعتمدة على التقريرات الكاذبة في تصوير ذلك الاندحار المخزى للاسبان، والمشرف لأولئك الجربيين الافذاذ في بطولتهم واستماتتهم واستشهادهم.

وان كانت لنا من ملاحظة على الكتاب، فذلك ما يتصل بالمطبعة غالبا ولا يتصل بالمؤلف كذلك، يتصل بالمطبعة العربية على العموم، لما يقع منها من تصحيف، وان كان في هذا الكتاب لا يتعدى عدد الانامل، ومن هذا القبيل هذا البيت الزهيري، الذى يجب أن يكتب كما يلي :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه　　　يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

(ص 223)

اما ما عدا هذه، فنحو «ولا زلت» الواردة في الصفحة 8، وصوبها وما زلت، لأن «لا» لاتدخل على الماضي الا في أحوال ليس هذا منها، وهذا الخطأ في فعل «زال» بالذات، عم المشارق والمغارب، وهو لحن صراح سواء كان بالمشارق أم بالمغارب.

ونحو «النضوج» الواردة في الصفحة 42، وهي من الاخطاء الشائعة شيوع سابقا، ولا يوجد الا «النضج» بفتح النون وضمه، وسكون الضاد، والقياس فتحها معا. أما النضوج فلا يبيحه لا السماع ولا القياس، حيث ان هذا الوزن مقيس في فعل، بفتح العين، وهو لازم كما قال ابن مالك :

وفعل اللازم مثل قعدا　　　له فعول باطراد كغدا

وجلس ونهض وسكت وجحد وسجد وركع، وهذا بشروط لا لزوم لذكرها الآن، وقد ذكره ابن مالك فيما بعد هذا البيت.

وفي الصفحة 345، ياتي ببيتين، وينسبهما «للشاعر القديم» ويكرر ذكر هذا «الشاعر القديم» مرتين، مع أنه ليس قديما، بل من البلاد التي تنتمي اليها الجزيرة، وهو ابن رشيق القيرواني، من رجال القرن الخامس، كما هو معروف، والبيتان ليسا كما ذكرهما المؤلف الفاضل، بل هما كما يلي :

مما يزهدني في أرض اندلس　　　تلقيب معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موضعها　　　كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

واخيرا، نكرر شكرنا للمؤلف الفاضل، مؤملين له مزيدا من هذا العمل المجدي، الذى انتفعنا منه كثيرا.

كتاب خاص الخاص

لابي منصور الثعالبي

قدم له حسن الأمين

في مختارات شعرية ونثرية من حكم وامثال وغيرها.

وقد جعله صاحبه في ثمانية أبواب :

الأول فيما يقارب الاعجاز من ايجاز البلغاء.

الثاني في أمثال العرب والعجم.

الثالث فيما جاء من الأمثال على أفعل من كذا.

الرابع في لطائف الظرفاء.

الخامس في تكل كل من صناعته ومرفقه.

السادس في التوقيعات المختارة عن الملوك والسادة.

السابع في عجائب الشعر والشعراء وهو اطول الابواب وأهمها، فقد ذكر به من الشعراء 185، مبتدئا بامرىء القيس ومنتهيا بمسافر.

الثامن في افراد معان لمؤلف الكتاب.

فهذا هو موضوع الكتاب الذي ـ كما قال المقدم له ـ أحق بوصف الجاحظ للكتاب بقوله :

«وعاء ملىء علما، وظرف حشي ظرفا، ومن لك ببستان يحمل في كم، وروضة تقلب في حجر».

لقد اختار المؤلف نماذجه من شعراء في الجاهلية والاسلام، وبلغاء كذلك فيهم الخاصة والعامة والملوك والسوقة، كما أتى بأمثال وقصص عجيبة، في موضوعات شتى، مما رآه لائقا بخاص الخاص، المعنون به الكتاب.

واذا كـان في يتيمته، يتناول شخصيات شرقية وغربية وفيهم الاندلسيون فانه هنـا لـم يات بشيء لهؤلاء الاندلسيـين او غيرهم من الشخصيات الغربية، فربما كـان «خاص الخاص» متقدم التاليف على اليتيمة كما اتي فيه بما لـم يذكـر في اليتيمـة.

والملاحظ على الكتاب في طبعته هـذه ما يلي :

في الصفحة 20 ورد بيت هكـذا :

ليس قصا مثـل قطي ولا الـ   مرعي في الأقوام كـالراعي

وصوابه : ليس قطـا ،،، (بالطاء) وهو مثل «ليس قطا مثل قطي» بتصغير للثاني، أي ليس النبيل كـالدني».

وفي الصفحة 60 ورد بيت هكـذا :

وهــذه قــد تفيــد النفس ابهـاجـا ولا تنصب

والصواب : وهــذى ،، وكـذلك وقــع تصحيف 77.

وفي الصفحة 104 ورد بيت هكـذا :

أمــن المنون وريبــة تتوجــع   والدهر ليس بمعتب من يجزع

وصوابه : أمن المنون وريبها ،،، والبيت معروف للهذلي في رثـاء بنيـه، وقد روى بتذكـير المنون على أنـه الدهر، فيكـون الصـواب «وريبـه ،،،».

وفي صفحة 108 ورد بيت هكـذا :

أحببت من شعر بشار لحكمته   بيتا لهجت مــن شعــر بشار

فسقطت «بــه» بعــد «لهجت».

وفي صفحة 119 ورد اسم «دعبـل» مصحفـا بدهبـل، وهو غـيره مكنى بالاب، كما هو معروف ومنسوب الى جمـع وذكـر 1067.

وفي الصفحة 126 ورد بيت هكـذا :

مــن بكى هــذه السماء عليــه   نعمــة أو بكى بهـا مــرورا

والصواب : بكى عليهـا مرورا.

وفي الصفحـة 128 ورد بيت :

ان الـثمـانـيـن وبلغتهـا قد أحوجت سمعي الى ترجمان

منسوبا الى عوف بـن محلم الشيبـاني، مـن قصيـدة لـه في طـاهـر ابن عبد الله بن طـاهـر.

وفيها ورد بيت هكـذا :

رق حتى حسبته ورق الورد نـديا يـرف بيـن الريـاح

ولا شك ان البيت مدور، وان الدال من الورد يبتدى بها المصراع الثـاني.

وفي الصفحة 182 ورد بيت هكذا :

ابـو مـازن لازم مـنـزلـه قد امسى في الناس لا ذكر له

فسقطت الواو بعـد «أمسى» على انها تامة.

وفي الصفحة 183 ورد بيت هكـذا :

هـواه كهـواى النفس تصافـاه صفيـان

والصواب : هواه كهوى النفس تصافاه صفيـان.

وفي الصفحة 191 ورد بيت هكـذا :

وهم خالفوني وأوطاوا في صلاتهم فصنت عن الايطاء شعـرى فيهـم

والصواب · وهم خالفوني اوطـاو ،، بالفصل لا بالوصل الذي لا يستقيـم بـه الوزن وتنزل به الرتبـة البلاغية.

وفي الصفحة 196 ورد بيت هكـذا :

أموت صبـرا ولا أرى ملكـا يرقص في جنك أنفه الصلف

وصوابه · يرقص في جنب ،،، والبيت لعبد الصمد بن بابك، مـن رجال اليتيـة.

وفيه ورد له بيت آخـر هكـذا :

ان لـم أردعك فلـي عـذرة فـاثـن اليهـا أذنـا واعيـة

وصوابه : ان لم أودعك ،،،

وفي الصفحة 207 ورد بيت هكذا :

قال يا بدر أنت تغر بالسا   ري وتغرى بزورة الحسناء

وظاهر أن الشطر الاول فيه كسر.

وكذلك ورد بيت آخر بعده ببيتين هكذا :

فاذا البدر نيل بالهجو فليس أولو العقل السن الشعراء

ففيه كسر وغموض.

وفي آخر الصفحة، ورد بيت آخر، لنفس الشاعر، هكذا :

عرضت نفسي للحتوف بعارض   كالورد بداه الصباح بطله

وصوابه : كالورد نداه ... وهذا الشاعر لم يذكر في اليتيمة.

وفي الصفحة 211 ورد اسم شاعر هكذا «ابو سعيد بن خلف الهمذاني» ورد في اليتيمة هكذا «علي بن محمد بن خلف» فخلف اذن اسم جده.

وفي الصفحة 218 ورد بيان هكذا :

ظللت أفكر طول النهار   وقد حملت ذهبي العقار
أفي يدها ذهبي العقار   احسن أم ذهبي السوار

وواضح أن تقطيع البيتين هكذا :

ظللت أفكر طول النها   ر...
أفي يدها ذهبي العقا   ر...

هذه اشياء تتصل بالناشر، كما أظن.

أما الكتاب، فكل ما يلاحظ عليه أنه يكرر بعض المختارات بالذكر، مثل البيتين :

سأقضي ببيت يحمد الناس أمره   ويكثر من اهل الرواية حامله
يموت ردى الشعر من قبل اهله   وجيده يبقى وان مات قائله

فقد ذكرهما (76) لدعبل، في فصل الشعراء ثم ذكر بهما، على أنهما من غرر شعره في «عجائب الشعر والشعراء».

ومثل البيت :

ولكـن البـلاد اذا اقشعـرت وصـوح نبتهـا رعي الهشيم

فقد ذكره أولا لأبي البصـير ـ مع اختلاف «وقـد قيل» بـدل «ولكن» (19) فـي «أمثال العـرب والعجـم والخـاصـة والعـامـة» ثـم فيمـا ورد منـه.

ومثـل البيتـين :

بلـوت أبـا جعفــر مــدة فـالفيت منه بخيلا سخيفـا
ولـولا الضـرورة لـم آتـه وعند الضرورة آتـي الكنيفا

فقـد ذكـر منهمـا الا في (31) البيت الاخـير، لابـن بسام فـي أمثـال العـرب الخ ثـم ذكـرهما معـا لـه (علي بن أحمد بن نصر بـن بسام) كـذلك.

ومثـل البيتـين :

أفي الحق لن يعطى ثـلاثـون شاعرا ويحرم مـا دون الـرضى شاعر مثلي
كمـا الحقت واو بعمــرو زيــادة وضويق بسم الله في الف الوصـل

فقد ذكرهما (67) لابي سعيد الرستمي في الباب الخامس، ثـم ذكرهما فيما تقـدم أي في باب عجائب الشعر والشعراء.

ومثل البيت :

كـل رئيس بـه مــلال وكـل رأس بـه صــداع

ذكر فيما تقـدم (20) ثـم ذكـر ضمن ابيات سبـع لـلابيوردى أيضـا.

لسان الدين ابن الخطيب

وهذا مؤلف آخر للاستاذ محمد عبد الله عنان، صدر ضمن دراساته الاندلسية المفيدة، فى كتاب يضم نحو اربع مائة صفحة، بما فيه من ملحق بالرسائل والمستندات وفصول.

والكتاب دراسة وافية جامعة لحياة هذا الاديب الاندلسي الكبير، الذى كان ـ بحق ـ خاتمة رجال الاندلس، فى العلم والادب والسياسة، ولا نبعد كثيرا : اذا قلنا انه كان رجل الاندلس، فى حقبه العديدة، ومجالاته الواسعة، فقلما نظفر بهذه الشخصية، التي كانت تحمل المشعل الوهاج، فى تلك الربوع، فتحترق قبل احتراقها، وتكون آخر ومضة انطفات فانطفأ بها كل بصيص.

هذه العوالم المتجمعة، فى شخصية ابن الخطيب، كشفها لنا الاستاذ عنان، بقلمه السيال، بعد دراسات اتجمع شرائطها فى المشرق والمغرب، وتكبد لها اسفارا، منها ما كان فى اسبانيا، ومنها ما كان في الشمال الافريقي عامة، يزور المكاتب ويستشف المظان، ويستفسر الوثائق ومخطوطات الاسفار، فكانت هذه الموسوعة «الخطيبية» تغني الدارسين، وتقوم بحاجات البحثين.

وان كان لنا ملحظ على هذا الكتاب، فانما هو فى هذه الجزئيات التي نجملها فيما ياتي : متمشين مع صفحات الكتاب :

في الصفحة 5 وردت العبارة «تبلغ الاثنى عشرة» والصواب «الاثنتي عشرة».

وفي الصفحة 13 تصحف «العام التالي» بالعالم التالي، وفيها وردت العبارة «حمل مشعل الحضارة ... مائتي عاما اخرى» بدل «مائتي عام اخرين».

وفي الصفحة 24 تصحف عثمان بن ابي العلاء، بابي الغلاء، بالغين.

وفي الصفحة 27 ورد في أول البيتين «واعدني» وصوابها «وعدني».

وفي الصفحة 38 يذكر ان ابا الحسن المريني «هزمت قواته امام حشود الاعراب»، والواقع ان الكارثة كانت اولا بسبب الاسطول الذى تحطم فى المياه التونسية.

وفي الصفحة 57 ــ 58، وهو يتكلم عن الجفوة التي حصلت بين ابن الخطيب وسلطانه المنفي بالمغرب : «ولم يذكر لنا ابن خلدون ولا ابن الخطيب شيئا عن سبب هذه الجوفة».

وحقيقة انهما ما ذكرا شيئا من ذلك، ولكننا فيما نعلم عن ابن الخطيب وانتهازياته، أنه سعى الى مصانعة السلطان الجديد، وقد أشار المؤلف نفسه الى هذا فى كتابه ببعض صفحاته الاخرى.

وفي الصفحة 74 نجد هذه العبارة، وهو يتكلم عن المرينيين : «ولكنهم سطعوا كذلك فى المغرب بدولتهم المستنيرة ،،،، وقد تمتع المغرب الاقصى فى ظل بني مرين، الذين استطالت دولتهم اكثر من قرنين،،».

واظن ان كلمة المستنيرة كان احسن منها كلمة «النيرة» وأن «استطالت» حلت محل «طالت» أو استمرت.

وفى الصفحة 86 يستظهر أن تكون زوجة ابن الخطيب المتوفاة فى المغرب، غير أم ابنه الذي كان فى العشرين، لانها توفيت عن أصاغر زغب الحواصل، بين ذكران وأناث «ولا معنى لهذا الاستظهار، في تلك الزوجات اللاتي كن يزوجن في سن لا تتجاوز غالبا الرابعة عشرة، فيتوفين، تاركات زغب الحواصل. وأنا نفسي كنت من هؤلاء، «الزغب»، ولو كان الاول منا على قيد الحياة، لكان فى سن العشرين أو أكبر.

وفي الصفحة 87 يذكر احتفالهم بالمولد النبوي، فيذكر المولد باسم «ليلة الميلاد» ولا شك أنه تعبير تسرب من الاصطلاح المسيحي، أما المستعمل عندنا فهو «ليلة المولد»، كما قال صاحب الهمزية :

ليلة المولد الذى كان للدين سرور بيومه وازدهاء

وبهذه المناسبة، أذكر أن صديقا، حدثني أنه سمع، هنا في المغرب أوربيا، يقول لآخر، صبيحة أول يوم من السنة الهجرية : «الليلة ليلة عيد الميلاد عند المسلمين».

وفي الصفحة 98 يذكر للغني بالله النصرى» ما قام به من السعي لاطلاق سراح الأمير أبى زيان محمد من أسر بلاط قشطالة» وأبو زيان هذا لم يكن فى اسر ملك قشطالة، بل انه، كما يقول ابن الخطيب فى الاحاطة، ونقل

ذلك عنه صاحب الاستقصا والنفح كان قبل ولايته عند الطاغية بالاندلس، فر اليه خوفا على نفسه «ومحمد هذا هو ابن أبي عبد الرحمن يعقوب بن أبي الحسن المريني.

وفي الصفحة 115 ورد بيت هكذا :

ثم لما حل في فخ الهوى طيره بعد حذار ووقع

وواضح أن «طيره» ابتداء للشطر الثاني من البيت.

كما ورد بيت هكذا :

قل لوادي القبط هل من عودة يصل الأنس لدينا ما وقع
جعلت اليك والملأ الأعلى وسايل لا تلقى شفاعتها كلا

وفي الصفحة 116 ورد بيت هكذا :

ومن يقتضي الخلق الحقوق فبجاهه اتيت به حتى النبيين والرسلا

كما وردت أبيات، بعضها هكذا :

خليفة الله في أرضه ونعم الخليفة
ومن كفاه افتخارا تراع يوم السقيفه
فجمل اليوم عذرى فلك السجايا الشريفه

وفي الصفحة 117 ورد بيت هكذا :

وعلى الشوق وان يشب انما هب بانفاسكم نسيم الصباح

وصوابه :

وعلى الشوق أن يشب اذا هب بأنفاسكم نسيم الصباح

وبيت :

وقفت أنشد صبرا ضاع بعدهم فيهم واسائل ربعا لا يناجيني

وفي الصفحة 118 ورد (والنظر الشذر) بالذال، بدل الزاى، وهو تصحيف يقع فيه، من حيث لا يدري، من ليس فى كلامه تفرقة بين الذال والزاى، كالفرش احيانا والاتراك دائما والمصريين فى عامتهم.

وفي الصفحة 119 يستدل استاذنا، من قول ابن الخطيب ـ على لسان ـغيره ـ : وقد اخبرني (اى ابن الخطيب) انه سليب المال، كثير العيال، ضعيف الجسم، وقد ظهر في عدم نشاطه اثر السن «يستدل بهذا، على ان ابن الخطيب» كان رجلا ضعيف البنية».

ونحن لا نرى في هذا استدلالا الا ان كان هذا الضعف ملازما له في سحنته، أما وهو طارئ» طرؤه غيره كظهور «اثر السن»، كما قال، فلا يبدو منه «ان ابن الخطيب ،،، كان رجلا ضعيف البنية، نحيل الجسم او الخلقة.

وفي الصفحة 121 وردت العبارة : اني الى الله تعالى مهاجر،،، لأحد انشاء الله وحاجر».

وفي الصفحة 123 وردت العبارة : ولقد كنت اعجب من نفاق اسواق الذكرى لديه،،، وايفاع نبات الرشد فيه نصيحة.

وفي الصفحة 138، ورد بين قوسين هذا النص «اهتزاز الدولة بقدومه» ماخوذا من التعريف لابن خلدون، وهو فيه هكذا «اهتزاز الدولة لقدومكم»، باللام بدل الباء، التى لا تستقيم هنا، وضمير الخطاب، بدل الغيبة.

وفي الصفحة 140 ورد ان المدينة الجديدة التى انشأها ابو يوسف المريني، «سميت ،،، اولا بالدار البيضاء والواقع انها سميت «المدينة البيضاء» يعنى «فاس الجديد»، ولا شك ان «الدار» هذه تسربت الى أستاذنا من اسم آنفا،،، الحديث، مع انه في الصفحة 145، يسوق فيها ما قاله ابن الخطيب واما مدينة الملك «فبيضاء» كالمصباح (المدينة البيضاء).

وفي الصفحة 142 يقع فيما يتصل بهذا، فيذكر ان المدينة المذكورة «سميت بالبلد الجديد» مقابل المدينة القديمة او فاس البالي» وهذا خطأ آخر، بل خطآن اثنان، فالمدينة تسمى «فاس الجديد» لا البلد الجديد، ثم ان «فاس البالي» هو غير «فاس» التي يعينها المؤلف، بل فاس البالي بعيد عنها بعشرات الكيلو مترات، بين وزان وفاس، عن طريق «جبل زالاغ» كما هو معروف.

ثم تاتي صورة الباب المعروف باسم «بوجلود» ليكتب تحتها «باب أبي الجلود» فهذا التعريب، كان يلزمه ان يجعله «باب أبي الجنودة كما هو الاصل فيه، والا كان يتركه، على ما هو معروف به «باب بوجلود» غير تدخل فيه بتعريب أو غيره.

وفي الصفحة 169 يعلق على فاجعة ابن الخطيب بقوله : وهكذا ذهب الكاتب والمفكر الكبير ضحية الجهالة والتعصب،،، والواقع أن المسالة لا تدخل فيها لا للجهالة ولا للتعصب، وانما هي «الاحقاد السياسية» التي قال بها بعد هذا، وليست وضعية، كما وصفها، وانما هي قائمة على اساس عمل فيه ابن الخطيب نفسه، كما بينت ذلك في مقال، نشر بالرسالة المغربية، منذ ثلاث وعشرين سنة، بعنوان «طموح ابن الخطيب»، ثم القي في مؤتمر باسبانيا، مترجما الى الاسبانية، منذ بضع عشرة سنة.

وفي الصفحة 188 ورد في رسالة خطابية «وهو دينكم فانصروه، وجواركم القريب فلا تخفروه، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه» ولا شك ان «لا» الناهية هذه، أفسدت المعنى، ونكست خلقته، وان الاصل كان هكذا «فلتخفروه» بلام الامر، لا النهاية.

وفي الصفحة 192 يشك في كون علي بن لسان الدين خدم أبا العباس المريني، الذي قتل في عهده ابن الخطيب.

ولا معنى لهذا الشك في ذلك فهو متواتر، في التاريخ، وابو العباس هذا، بريء من قتل ابن الخطيب، الذي تولاه الاندلسيون الآتون والغوغاء المسلطون، ثم ان عليا نفسه، ما كان يبرىء ساحة أبيه من هذه الأخطاء التي تسببت في قتله.

وفي الصفحة 208 ينكر أن ابن الخطيب «كان أيضا من أقطاب الزجل، وهذه الخاصة ،، من جلائل خصائصه ،،، بل هو ابن الخطيب امام الزجل،،، قد مارس الزجل وابدع فيه،،، ثم يذكر لنا معالجته للزجل في موضع واحد فقط ،، وذلك في كتابه «نفاضة الجراب».

ولا شك أن المؤلف بالغ جدا، في وصف ابن الخطيب بامام الزجل، اعتمادا على هذا الموضع الواحد، وعلى ما ساقه للمقرى وابن خلدون، ثم هذه النماذج المتواضعة التي ذكرها، وليست تدل على هذه الامامة التى حلاه بها، وليست الابيات الاخيرة، مما ينطبق عليه وصف الزجل، الذى اتى به ابن الخطيب وغيره، فهي كما سنرى، ابيات فصيحة، خاضعة لبحر عربي فصيح :

انت في حسنك فرد كل حسن منك يبد
انت بدر أنت شمس أنت آس أنت ورد
انت خصر أنت ثغر انت لحظ انت خد
انت معنى العشق لولا ك سلا بشر وهند
انت معنى للمعاني أنت قبل انت بعد

فهذا شعر فصيح، ووزنه من مجزو الرمل، وقد حصل تصحيف في البيت الأخير، حيث ورد هكذا :

انت معنى للمعاني أنت كل أنت بند

والشطرة، كما استصوبنا، اشارة الى قوله تعالى «هو الاول والاخر».

وفي الصفحة 215 ياتى بما قاله يالنثيافى المأساة التى حلت بابن الخطيب وهو قوله كان الجشع والطمع في المجد سببا في النهاية المحزنة التي لقيها ذلك الكاتب المبدع «ولم يعلق على هذا، مما يجعلنا نفهم أنه موافق عليه، وبذلك يخالف ما سبق له فيه.

وفي الصفحة 271 ـ 272، ياتي بعبارات، في نهاية شرح لأرجوزة «الحلل المرقومة»، ويعلق عليها بقوله «وهي عبارت تنم عن اسلوب ابن خلدون» ونحن لم نر فيها ماينم عن هذا الأسلوب، اللهم الا ان يكون المؤلف أكثر اتصالا باسلوبه منا واشد ادراكا له.

وفي الصفحة 273، يذكر ان مولانا احمد بن مولانا الحسن بن مولانا ابي العباس بن احمد «من الامراء السعديين، ونحن لا نعرفه وليس في البيت السعدى مطلقا من يسمى بالحسن، أما أبو حسون بن زيدان ابن الاعرج فهو علي، وكنيته أبو حسون، وامه للا مريم.

وفي الصفحة 276، ورد بيتان هكذا :

أهديتك السلم الذى بقبوله كتـ ـب الله مزية الانسان
واخترت فى الطب منه لقوله العلم فيما خرجوا علمان

وغير خفي أن الشطر الأول ينتهي عند «بقبوله» ثم ان «الله» وردت هذه الكلمة بدل «الاله»، وبذلك يتزن البيت الأول أما البيت الثاني، ففي نهاية المصرع الاول منه تجد «لقوله» بدل «لقولهم».

وفي الصفحة 278، ورد بيت، هكذا :

الحمد لله الذي ما من أذى يلحقه ولا احتاج لغذى

وصوابه «ولا احتياج» حتى يتزن البيت.

وفي الصفحة 289 نجد هذه الفقرة مجزورة في كلام ابن الخطيب «ومن فصول منشوره : وأطلقنا يده على كل ما جعل الله لنا النظر فيه».

وفي الصفحة 303 وما بعدها من الصفحات، ياتي بقصائد ومقتطعات لابن الخطيب وهي مليئة بالتصحيف، لدرجة أننا لو أتينا على ذكرها لكانت في صفحتين أو ثلاث، ومن الملاحظ في كتب أستاذنا أن أكثر ما يتعرض للتصحيف فيها هو الشعر بصفة خاصة.

وفي الصفحة 308 يذكر في التعليق (1) أن المقرى نقل القصيدة التي علق عليها، مع أنه لم يذكر منها الا اربعة أبيات.

كما أننا وجدنا تعاليق اخرى ابتدأت بالصفحة 117 تنص على كون النص من بفاضة الجراب فلم نجد تلك النصوص بها.

هذا الى ما ورد من آية قرءانية محرفا في نهاية الصفحة 359، ولم يتنبه المؤلف الى كونها من القرءان، وهي من سورة الحشر، كما يلي : أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله».

وأخيرا، فان نفح الطيب كان العمدة الأولى للمؤلف في كتابه هذا، وهو معقول، ما دام الكتاب مؤلفا بالذات في ابن الخطيب.

فهرست

مطبعـة اكـدال زنقـة بيـارن رقـم 22 – الـربـاط